٥٢١



أليس كذلك

الكنز

عبد العال مخبر بوليس طويل أسمر، وعلى ظهر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

عبد العال مخبر، ومع هذا فله عيلة وزوجة أحياناً تناكفه وأحياناً ترضى عنه، وأحياناً يحلف عليها يمين الطلاق، ونادراً ما يقع اليمين.

ولعبد العال ماهية عشرة جنيهات بما فيها كل ما ناله وما لم ينله من علاوات.

وعبد العال سعيد جداً بحكاية المخبر. إذا ركب الأتوبيس وجاء الكمساري قال: «بوليس». وأحس بأهميته وهو يقول بوليس، والناس يرمقونه ويضربون له بعيونهم السلام.

وعبد العال مثل كل الناس يحلم بالمستقبل. وهو لا يحلم حلماً عادياً مثل أن يصبح ضابطاً أو مساعد حكمدار.. هو في الحقيقة يحلم أن يكون وزيراً للداخلية. يا سلام! يصحى الواحد ويلاقي نفسه وزيرا له عربة وله حاجب ويقف على باب منزله عسكري على الأقل بشريطين. بسيطة! وليست على الله ببعيدة، فالذي خلق الأرض والسماوات من العدم، ألا يمكنه أن يخلق من

العسكري وزيرا؟ ثم لماذا لا يخلق منه وزيرا وهو دوناً عن رفاقه يجيد القراءة والكتابة، ويرطن أحيانا بألفاظ انجليزية، ويلتهم الصحف ويعرف كوريا، ويستطيع أن ينطق اسم همر شولد صحيحاً.

وعبد العال من مدة كان معه تحقيق وسين وجيم. فقد اشترك مرة في ضبط واقعة واستلم هو المضبوطات وأمضى بذلك. وبعد أيام جردت الأحراز فوجدوا حرزا ناقصا. وجاؤوا بعبد العال وسألوه وأنكر. وألحوا في السؤال وأغلظوا وتلجلج. وشك فيه الضابط وهدده بالتفتيش. ورأى عبد العال من عينيه أنه ينوي حقا تفتيشه، وحينئذ مد يده في جيبه وأخرج منها الحرز المفقود.

وكان الحرز هو الدليل المادي في القضية، فقد كان شيكا مزورا.. شيكا بمبلغ مائة ألف جنيه أتقن تزويره.

واستغرب الضابط.. وفتح محضرا وراح يسأل. وتوقف عند السين التي تقول: لماذا احتفظت بالشيك المزور معك؟ ولم يستطع عبد العال أن يدلي بسبب واضح.

وهمهم وغمغم وقال كلاما فارغا كثيرا لم يقنع الضابط، ولم يقتنع به هو.

وفي آخر النهار عاد عبد العال من القسم منهوكا محطم القوى. عاد وقد خصم من مرتبه نصفه، ونقل من المباحث وأنذر بالفصل.

عاد وهو حزين ساخط، ومع ذلك كانت في أعماقه طراوة رضا وسعادة. فلا أحد قد فطن الى أنه كان قد احتفظ بالشيك المزور

ليستخرج له صورة فوتوغرافية طبق الأصل، صـورة كلفته كثيـرا ودفع فيها خمسة عشر قرشا.

ومضى اليـوم، ومضت وراءه أيـام، وذهب حـزن عبـد العـال وسخطه، ولكن بقيت صورة الشيك المزور.

وللآن لا تزال أسعـد لحظات عبـد العال هي تلك التي يهـرب فيها من زحمة الناس ويختلي بنفسه، ويطمئن إلى أن أحداً لا يلحظه أو يـراه، ثم يخـرج حـافـظة نقـوده بعنـايـة، ويستخـرج من جيب مخصوص منها صورة الشيك ،ويحس بالرعـد في أذنيه والتنميـل في أطـرافه وهـو يرى شعـار البنك والحـروف المطبـوعـة، ثم وهـو يقـرأ الجملة الخالدة ويلمس عليها بأصابعه:

ادفعوا لحامل هذا مبلغ ألف جنيه مصري لا غير.

ويستمر يحدق في الشيك حتى تهجمع الزوابع التي في جوفه، ثم يطويه بعناية ويعيده الى جيبه الخاص في المحفظة ويتنهد، وكأنما قـد انتهى من اعتـراف أو صـلاة، ثم يعـود هـو في بطء الى النـاس وزحمتهم، يعـود كما كـان عسكريـا طويـلا وأسمر، وعلى ظهـر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

الحالة الرابعة

انتهى العشاء وهب الدكتور مازن كي يقوم بنوبتجيته في الاستقبال .
كـان عشاء بيت الامتيـاز سخيفاً في ذلـك المساء كعـادتـه كـل مســاء كان مكونا من بطاطس مفروض أنها محمـرة، ولم تكن لا محمرة ولا مسلوقـة ولا شيء من هذا القبيـل، انما كتـل لزجـة متراصـة من مادة البطاطس يفصلها زيت رخيص. . ثم أرز باللبن، أو بطاطس باللبن ، أو حجـارة وحصى و«زلط» بـاللبن، كله مــاشـي وكله لا يـقيـم أود مخلوق. كان العشاء محنة يضطر اليها الأطباء الذين لا يملكون سوى مرتباتهم، وحتى لا يملكـونها كلهـا فجزء غيـر قليل منهـا يذهب الى عـائلاتهم التي رأت المـر كي تنفق عليهم وتجعلهم في نهـايـة الأمــر أطباء«قد الدنيا». أما الدكتور مازن فلم يكن يحفل بالعشاء أو بالغداء أو حتى بطعام بيت الامتياز كله. كان أبوه أحد كبـار الأطباء في وزارة الصحـة، ومن صغره وهـو يذهب الى المـدرسة في عـربة ويعـود في عربة. وحين كان في كلية الـطب لم يره زمـلاؤه الطلبـة أبدا الا ثمــة شيء جديد قـد أضيف اليه، قـد يكون جـاكتة وقـد يكون في أحلك الأحوال منديل صدر جديد. وكان العمل بالنسبة للدكـتـور مازن شيئـا

مهماً حقا. اليوم الذي يأخذ نوبتجيته فيه كان يسبقه اعداد أيما إعداد. فلا بد أن يتفق مع اثنين من زملائه«الغلابة» على أن يأتوه ليسلوه في وحدة نوبتجيته. ويختارهم مازن بعناية، فأحدهم لا بد يجيد رواية النكت ويخلق من التفاهة فكاهة، والآخر لا بد أن يكون عليما ببواطن الأمور يحدثه حديث العارف عن الأسرار الرهيبة التي تدور داخل جدران المستشفى، وعن الزملاء الأطباء وعلاقاتهم الخفية مع الممرضات والحكيمات، وعن الفضائح. ثم لا بد أيضا من اعداد للعشاء.. فقبل الثامنة يرسل عبد الغني فراش بيت الامتياز الى جروبي أو الاكسلسيور ومعه قائمة معدة ومنتقاه بعناية لعدد كبير من الساندويتشات. ثم لا بد آخر الأمر من احضار عدد من المجلات المصورة الأمريكية والفرنسية، تحتوي على عدد من الوجوه والأجساد الجميلة يكفي للتفرج عليها ليلة بأكملها. كان لا بد من اعداد هذا كله في يوم النوبتجية حتى لا يحس مازن بأي سأم أو ملل، ومع كل هذه الاحتياطات، ولو فرض ووقع المحال وأحس بشيء من الملل والسأم فهناك التليفون، وهناك ثلاث فتيات وامرأة متزوجة تملك أجمل صدر في جاردن سيتي، مستعدات أن يقضين معه الليلة في كلام ودردشة وفكاهات.

هبط الدكتور مازن الى الممر الطويل، وكل شيء على أتم ما يرام.. البالطو أبيض ونظيف ومكوي، والبنطلون الأبيض حده كحد السيف، والسماعة معلقة في صدره يلمع معدنها، والحمام الدافىء الذي أخذه بعد إغفاءة الظهر يخدر وجهه ويجعل من خلاياه دوامات

صغيـرة تدور بهـا السعادة. كـل شيء حتى شكله كان قـد ألقى نظرة طويلة على نفسه في مرآة التسريحة الحكومية الحادة في بيت الامتياز واطمأن ـ كعادته ـ الى الصورة التي سيكـون عليها حين يـراه الناس. جسـده طويـل رياضي لا انبعـاج فيـه، وسنـواتـه لم تتعـد الخـامسـة والعشرين، ووجهه أبيض حليق نـاعم جميل، والشعـر موزع تـوزيعاً أنيقاً على رأسه. . أربعة أخماسه تتموج إلى اليمين، والخمس الباقي يستكين إلى اليسار ولا تنفر منها شعرة واحدة.

كان الممر طويلا قد حل الفساد في بعض مصابيحـه فانـطفأت تنتظر الاستمارات ومصلحة المباني لاستبـدالها، وكـان النور يتسـرب الى الممر من الأقسام التي على يمينه وعلى يساره فيضيء الممر بنـور شاعري رقيق. وكان البالطو الأبيض يحف حفيفا خافتا كلمـا اصطدم بساقيه الطويلتين السائرتين، والكولونيا تدفع ببرودة ذات رائحة جميلة الى ذقنه، وكان جيب البنطلون على صغره يضيق ببـاقي الورقـة ذات العشرة الجنيهات، والـدنيا في نـظره لحن جميل كـأنغام الكمـان في رقصة شهر زاد.

وكان يلقي التحيات ذات اليمين وذات اليسار، تحيات المسـاء كان يلقيها من أنفه إلى تلميذات الأقسام الساهـرات، وكان دقيقـاً في القاء تحياته فهو يعرف أنه جميل وغني ومن عائلة، وأن التلميذات لا بد يحلمن به وبابتسامـة منه، ولكنـه أعرف النـاس بالبيئـة التي ينشأن فيهـا، ويقبلن منهـا الى المستشفى تـدفعهن الحـاجـة لأكـل العيش والعمل وإهدار سيرتهن على الألسنة والأفواه. ولهذا لم يفكر أبدا في

مصاحبة احداهن أو حتى في التحدث معها. كان حديثه مع الواحدة منهن لا يستغرق لحظات وكله«حديث عمل» لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة. ولكنه لم يكن يحب أن يبدو متكبرا في نظر الناس، وكان عليه أن يحييهن.. ولكنها لا بد أن تكون تحية مضبوطة لا تغري بالألفة ولا تهبط بمستواه ولا ترتفع بمستواهن.

مضى في الممر المظلم الحالم يلقي بتحيات المساء بإيماءاته، ويحس أن الناس كلهم لا بد في مثل دقته ونشاطه، وأن الوجود لا يستحق ملليجراماً واحداً من التعاسة، والحياة لو أخذت هكذا سهلة بسيطة بلا احقاد أو تعقد لما أصبح للناس في الدنيا مشاكل.

ووصل الى قسم الاستقبال.. كان زبائنه كثيرين في تلك الليلة، وكانوا ينتظرونه لا بد من قبل أن تغرب الشمس. وعلى الرغم من كل شيء فالدكتور مازن كان يحب نوبة المساء.. كانت بالنسبة اليه فترة مستحبة لاتتملكه فيها عصبية النهار، ولا يقاسي من كثرة المرضى الذين يقفون أمامه في طابور لا أول له ولا آخر، ويقبلون إلى المستشفى مع الفجر.

وتصاعدت الهمهمات من الجمع الصغير لمقدمه، ولم يكن قد تمعن فيهم أو حتى ألقى إليهم تحية المساء. اكتفى بالتفاتة سريعة يعرف بها كم عددهم، وكان واضحا أنهم أكثر من العدد الذي وجده في النوبة السابقة وأحس لهذا بنوع من الزهو. وحين وقف أكثرهم

وأفسحوا له الطريق ودلف من بينهم تحفه التحيات والدعوات من الجانبين ملأه يقين بأهميته، ودون وعي أمسك بوق السماعة بأصابعه وازداد احساسا بضرورته، وشخط في التمورجية العجوز فقد وجد مقبض الباب لا يلمع وبقايا بصاق عالقة بالحائط.. وأسرعت المرأة بأعوامها الخمسين تجري ويطرقع قبقابها على البلاط، وتزيل البقايا وتلعن المرضى وقذارتهم.

ودخل الدكتور مازن الى غرفة الكشف، وكعادته أمر التمورجية بالوقوف على الباب والحيلولة دون دخول أحد الا لبناء على أمره وطلبه.

وانبعج الكرسي وهو يحتويه، وأمر بفنجان قهوة ـ سكر شوية ـ وأكد على التمورجية وتوعدها إذا لم تأت القهوة «سكر شوية».. ومضى يقلب صفحات مجلة«ومن» ويتوقف لدى كل صفحة.

وأخيرا جاء الفرج حين دق الجرس، وأشار للمرأة برأسه دون أن ينطق حرفا.

ودخلت الحالة الأولى تجأر. وقبل أن تنطق كان قد عرف كل شيء، وكتب في التذكرة حقنة تداوي المغص كان يعرف أنها غير موجودة وأنها نفذت من الأجزخانة ولا زال طلبها من الوزارة جاريا.. وكان يعرف عن ظهر قلب ألفاظ المحاورة التي سوف تدور بعد قليل بينه وبين المريض حين يعود اليه خالي الوفاض من الدواء، والتي يعلم أيضا أنها تنتهي في العادة بطرد المريض وإدخال آخر.

ودخلت الحالة الثانية والثالثة.

وكـان لا يـزال مستغـرقـا في المجـلة يتحقق في صـورة ممثلة فرنسية ترتدي(مـايوه) مصنـوع من جلد رأس فهد، وبـه ثقوب مكـان العينين والفم، والثقـوب تـظهـر أجـزاء من جسـدهـا ويخفي الجلد أجـزاء، وهو منفعـل يحاول أن يشغـل خيالـه ليجد مـا وراء الجلد أو يخمنه، كان كذلك حتى دخلت الحالة الرابعة.

ولم يتنبه ولم يعد من الوديان التي كـان يمرح فيهـا خيالـه، ثمـة سؤال صغير مضى يشغله. . تـرى أهي حـالـة مغص أو تسمم؟ وكالعادة مضى يسـأل دون أن يعنى بسماع الجـواب. . اسمـك ايـه؟ وعاوزه ايه؟ وبيوجعك ايه؟.

ولم يعتـدل الا حين خبط عسكري كـان واقفـا أمـام مكتبـه. . خبط قـدميه في سـلام عظيم، وقـدم له أوراقـا كثيرة يحتـويها دبـوس واحد.

ومـر الـدكتـور مـازن على الأوراق مـرور الكـرام. . اشـارات ومكاتبات مكتوبة بسماجة لا طريف فيها ولا جـديد. . ولم يقـرأ منها ولا فهم حرفا.

وتـطوع العسكري بـالشرح، وقـال ان الحالـة التي يستصحبها امـرأة مراقبـة ليس لها منـزل تـراقب فيـه، ولـذلـك تقضي الليـل في القسم، وقد أبلغت الليلة أنها مريضة و. .

ولم يدعه يكمل هذه السخافات، أشـار اليه أن يصمت وتـطلع

الى المـرأة بحب استطلاع حقيقي. لم يكن في حيـاته قـد رأى امرأة مسجونة أو حتى مراقبة، وكان يعتقد أن الـواحدة منهن لا بـد مجرمـة طويلة عريضة تفوح منها القوة وينضج جلدها شراسة، ولها عين وقحة لا يطفئها الرصاص، وأخرى فيها دهاء الثعالب وسم الأفاعي.

ودهش! فأمامه وعلى الأرض المصنوعة من بلاط كانت تجلس المرأة وقد ضمت أجزاءها الناحلة، ووضعت رأسها بين ركبتيها، بينما راحت عيناها الخابيتان تطلان اليه في وهن القطة الجائعة المتعبة.

وأصيب بخيبة أمل. . كانت المرأة دودة صغيرة قد التفت حول نفسها لا قوة فيها ولا جبروت. ولا شراسة فيهـا ولا غدر، ولا يصـدر من عينيها الا استسلام ذليل.

وهز الدكتور مازن كتفيه بعدم اكتراث وقد فشل في اقناع نفسـه بـإجرام الـدودة التي أمـامـه. وارتسم على شفتيـه الاحتقـار. وبنفس الاحتقار هز لها رأسه، وأشار لها بيـده أن ترقـد وهو يحس في قـراره نفسه باشمئزاز مفاجىء.

وحدق برهـة في جسدهـا الأصفر الشـاحب، وفي بطنهـا الذي يتموج الجلد المشوه فوقه، وفي يديها الموضوعتين تحت رأسهـا وقد أغلقت عينيهـا وكأنهـا في سبات عميق، وكثـر اللعاب في فمـه وهـو يطيل تحديقه.

ولـو كان في النهـار لما حفـل بـالكشف عليهـا، ولكنـه الليـل ومزاجه المعتدل، وهكذا أخذ يستمع الى أنفاسها ويعد نبضات قلبهـا

وهو حريص كل الحرص على لم معطفه حتى لا يلامسها أو يحف بثيابها . .

وسألها في فتور وهو يأمرها بإدارة فمها بعيدا عنه، لماذا سجنوها؟

وكان وهو يسألها يعرف أنها ستنكر وتصر على براءتها وعلى أنها مظلومة مضطهدة، كلهم مجرمون كذابون يقتلون القتيل ويمشون في جنازته، ولكن المرأة قالت في هدوء قالت في هدوء غريب:

ـ مسجونة بحشيش.

وخلع الدكتور مازن السماعة عن أذنه كمن لسعه معدنها، وعبر جسدها بنظرة واحدة، وتطلع اليها، ثم عاد الى كشفه وهو مضطرب يكاد يخاف.

وقال لها:

ـ كحي! . .

فكحت، وانهجي! . . فنهجت، وصرخ فيها أن تتنفس بعمق ففعلت.

وانتهى الكشف.

وحين كانت الممرضة تصب فوق يده الكحول ليطهرها، مع أن يده لم تكن قد لامست المرأة ولا علقت بملابسها، وكان يفرك يديه

ضيقا بهؤلاء الناس الحمقى الذين لا يجدون الا الاجرام وسيلة لقتل أنفسهم.

وقال لها في تشفـ وكأنه يعاقبها، ويحس بالارتياح وهو يعاقبها:

ـ انتي عيانة؟

فقالت وهي ترتدي ملابسها وتتثاءب الكلمات:

ـ بإيه يا بيه؟

وضايقته الطريقة التي سألته بها. ان هؤلاء الناس لا يحسون. ان كلمة المرض كلمة مرعبة تبعث القشعريرة في الأوصال، فكيف بها تتلقاها دون أن تتحرك لها ساكن؟ ضايقته الطريقة فقال:

ـ انت عندك سل.

قالها وهو مقدر أنها ستشعل النار في رماد تلك المرأة فتنتفض وتصرخ، وتتوب عن لهجتها المتثائبة وتبكي وتلطم وجهها على الأقل، ولكنها أجابت وكأنها تحلم وتريد اغاظته:

ـ طب مانا عارفه.

وهم برش الكحول في وجهها وعينيها، ولكن هدوءها أعداه وتراخت يده القابضة على الزجاجة وتراخت معها أعصابه، وجلس على الكرسي وأشعل سيجارة، وبدأ ينظر الى المرأة من جديد. انه بالتأكيد ليس أمام حالة أخرى ليكش فيها وترتعد خوفا وهلعا. انه أمام مريضة من نوع جديد لا يفلح معها تهويشه. ثم إنها مريضة بالسل. .

ومع أنه طبيب الا أن خوفه من السل ومرضاه كان لا يقل عن خوف غيره من الناس. وقال لها في لهجة رقيقة نوعا:

ـ وعرفت ازاي؟

وبانت لها سنة صفراء تلمح في فمها وابتسمت، أجل ابتسمت، وجهها الأصفر كالكهرمان تداخلت فيه أجزاء وتقلصت أجزاء وأفلح في رسم ابتسامة، وقالت انه ليس أول طبيب يراها، والمرض له قصة فهو قد داهمها في السجن في الأيام الأولى من سجنها..

وعبثت أصابعه بالسيجارة وضغط عليها بعصبية، وكانت سحب الدخان قد حملها الهواء بعيدا فبدت المرأة واقفة أمامه نصف مستندة الى الحائط، وكلامها ينساب في هدوء غريب محير، وملامحها لا تنفعل لكلامها كأنما هي تتحدث عن كارثة أصابت انسانة أخرى.

وتحت وقع حديثها المنخفض اللين ترعرعت رغبته في معرفة حكايتها. لم يكن هذا طبعه فهو لم يتعود أبدا أن يأخذ ويعطي مع أحد من مرضاه، ولكنه لم يستطع المقاومة ونسي نفسه والمرضى المنتظرين، وسألها في طفولة أن تحكي قصتها.

ولم تعتدل أو تتنحنح أو تصطنع التذكر، انما وهي نائمة صاحية، والكلمات تجهضها شفتاها فتخرج ميتة لا حرارة فيها ولا انفعال مضت تقول:

ـ يا خويا ولا حكاية ولا حاجة.. أنا أصلي م الفيوم.. وأوعى

ألاقي نفسي شايله الشاي مع أبويا في الموقف. . ولما مات المرحوم بقيت أعمل أنا الشاي. . وحبني جدع سواق. . وحبلت. . وسقطتني مرات أبويا. . ولما ضاقت الفيوم في وشي جيت مصر. . مصر أم الدنيا. هيء. . هيء. . هيء. . جيت مع سواق. . ومن سواق لسواق اتبدل على الموقف لحد ما اتلميت على واد نشال بقى ياخد عليّ فلوس. . وعلمني الصنعة. . أهه قلمك البالكر أهه. . حسيت بحاجة. . هيء. . هيء. . والنبي نفسي أبوس شفايفك الحلوين الحمر دول. . يوه. . ما اطولشي عليك خدني الواد في قمته وتحبست مرة. . وطلعت وراقبوني وتفتكر سكت؟ بقيت أنشل برضك. . وتاجرت في الحشيش كمان. . وبقيت أكسب ومعلمة قد الدنيا. وليا رجاله. . ومشيت مع العسكري اللي كان بيراقبني واتمسكت أنا وهوه. . وآدي انت شايف أهي عيشة. . اللي يحب النبي يزق.

كانت تتكلم كمن يحلم، غير حافلة بمن يسمع كلامها أو مقيمة وزناً للطبيب وسماعته ومعطفه، ولا حتى ملقية بأي اعتناء إلى العسكري الواقف بجانبها منتصباً كماسورة العادم. وكما بدأت في هدوء انتهى كلامها في خفوت حتى سكتت.

وطوال الحكاية كان وجه الطبيب كشاشة العرض تتغير عليها الألوان وتتبدل. كان يسمع أشياءخطيرة تقال هكذا بسهولة، وكان وجهه يحمر ويصفر كالعذراء حين تمتد اليها يد جريئة وتعبث بأقدس

ممتلكـاتها وقيمتهـا. وكانت المـرأة تعتـرف بكـل شيء دون حيـاء أو خجل كأنها أستاذة تحاضر في علم النفس.

ورغم كل ما اعتراه وأذهله فقد كان عليه أن يقول شيئا يبـدد به الانتظار الصامت الـذي ساد الحجـرة، فسألهـا وهو يقهقـه ولا يدري لماذا يسأل أو لماذا يقهقه:

ـ وانت.. مالكيش أهل.. مالكيش أهل؟

فقالت وهي تريح رأسها على الحائط:

ـ ليّ..

ـ ايه؟

ـ بنت.

وعاد يسأل وهو لا يدري لماذا يسأل:

ـ ليه.. انت أجوزتي.. والا..

فقاطعته وهي تسبل عينيها:

ـ وح تفـرق ايه لمـا تكـون بنت العسكـري ولا المعلم.. أهم الاتنين أزفت من بعض.

ومضى في أسئلة التي كان يلقيها من وراء عقله:

ـ والبنت فين دلوقت؟

ولمح أولى دلائل الحياة في بريق لمع من عينيها وهي تقول:

ـ في المدرسة..

ـ ايه؟

ـ بتروح المدرسه.. وبتطلع الأولى.. دي بت شاطره قوي تعجبك..

ـ وبتصرفي عليها منين؟

ـ ربك ما ينساش عبيده.

وسألها وقد انتابه بعض الضيق:

ـ وموديّاها المدرسة ليه؟.. انت ناقصه؟

وازداد البريق في عينيها الخابيتين وهي تقول:

ـ عايزاها تطلع دكتوره.

وأعقبت اجابتها بسرب من الضحكات الخليعة الميتة.

وتمتم في سره: جتك نيله.

وفي نفس الوقت عثر على السبب الذي من أجله كان يردد أسئلته التي بدت له سخيفة لا معنى لها ولا ليس وراءها طائل. كان عقله حتى تلك اللحظة يضرب أخماساً في أسداد ويفكر فيما يفعله من أجلها فهو لا يستطيع إدخالها المستشفى فليست هناك أسرة

خالية، ولا يستطيع رفـع الرقـابة عنهـا فليست له السلطة، وليس لهـا بيت. .

وقلب الأوراق التي أمامه بيد غير مستقرة، وتمتم وكأنما يحدث نفسه:

ـ طب وح اعملك ايه بس؟

وفوجىء بصوتها الهادىء يخترق حيرتـه كاليـد الجريئـة العابثـة ويقول:

ـ لا تعمل لي ولا أعمل لك. . اديني الاجازة وخلاص.

وحملق فيها وكأنه يرى شبحا من الأشباح. وبدا له كـأن المرأة مـارد سيبتلعه، وأحس بضيق وتبـدلت لهجته فجـأة وأظلمت ملامحـه وقال:

ـ طب اخرسي انت.

وأمسك بالقلم وحـركه في الهـواء مرات قبـل أن يكتب الجملة التي لا يملك غيرها:

«حضرت وعمل لها اللازم، وتحتاج لإجازة من المراقبة قـدرها عشرة أيام».

وخطت ناحيتـه متمايلة في ضعف، والتقـطت البقية البـاقية من سيجـارته الشـالثة التي كـانت تـرقـد على الأرض، وأخـذت نفسـا ثم أخرجت دخانا كثيرا عاليا، ورنت منها ضحكة خافتة وهي تقول:

ـ مش برضه عشرة أيام يا دكتور؟

وكان أمامه رد واحد. . أن يصفعهـا، ولكنه خجـل فليس هناك سبب واحد معقول يتيح له صفعها، وسكت. . وقالت وهي تأتي على الأنفاس الأخيرة من السيجارة:

ـ والنبي لطلع فاطمة دكتورة حلوة زيك كده. . والنبي. .

وكادت تسترسل لولا النظرات الناريـة التي تفجرت من عينيـه، فقالت:

ـ سبتك بعافية بقى.

وفي هدوء بطيء ذهبت الى الركن وأخذت منه صرة مـلابسها، وخرجت منحنية على نفسها وبقايا السيجارة تحـرق أصابعهـا الجافـة وذرات الدخان تشيعها.

وخبط العسكري الذي يحرسها قدميه في سلام صاخب، وأخذ الأوراق ومضى.

وجلس الـدكتـور مـازن صـامتـاً وقـد تـوقف تفكيـره، وثمـة غيظ يخنقه واحساس بـالخوف. . خـوف ميـت بليد يـزحف عليه من حيث لا يدري ولا يعلم. وتحسس بلا وعي سماعته وزرر البـالطو ثم خبط المكتب فجـأة بقبضـة يـده حتى قفـز قلمـه وسقط على الأرض وانقصفت سنه.

وجاءت التمورجية العجوز على الخبطة، ولم يكد يـراها حتى

٥٤١

انفجر وراح يعيد توبيخها لقذارة المقبض والبصاق العـالق بالحـائط. ولـم يكتف بهذا بل أقسم أنه سيكتب مذكرة للمدير لخصم ثلاثـة أيام من مرتبها.

المحفظة

من الساعة الثامنة وسامي يجلس على ذلك الكرسي الصغير في ركن الحجرة، وأمامه المنضدة والكتب والواجبات والجداول، وأمامه فوق هاته جميعاً المشكلة الكبيرة الضخمة التي كان قد حدد ليلتها بالذات ليحلها.

انه لم يعد يستطيع فليست هذه أول أو ثاني مرة. له شهر وهو يتفق مع صلاح وعبد المنعم على الذهاب إلى السينما، وفي كل مرة.. غداً أجل غداً. خلاص يا سامي، خلاص يا صلاح، الساعة تلاتة أمام شباك التذاكر.. الساعة تلاتة. ثم يأتي الغد ولا يذهب. لا يستطيع الحصول على الشلن ولا يستطيع حتى أن يري صديقيه وجهه ليبدي لهم عذره. وهذه المرة من أسبوع وهو يحاول. ان «المصروف» الذي يتناوله بين كل آن لا يكفي، والمطلوب خمسة قروش. قال لأبيه انه يريد كراسة وقال مرة ورق أشغال، ولم يحصل على ثمن لهذا أو لذاك. حاول مع أمه بلا فائدة. كلما ألحف عليها رفعت كفيها إلى السماء وطلبت من الله أن «يسبك» ما معها من نقود على عينيها إن كان معها نقود.

ما هي حكاية هؤلاء الناس؟ انه ما طلب منهم أبداً نقوداً وأعطوه. دائما والله ما معنا. وأبوه.. أبوه بطوله وعرضه وكرشه الودود وأصابعه الغليظة. أبوه كله لا يتورع عن القسم أمامه بأغلظ الأيمان

أن ليس معـه ولا«خردة» . وهـل هذا معقـول؟ أمعقول أن أبـاه مفلس تماما كما يحاول أن يفهمه؟ أبدا! غيـر معقول بـالمرة. انـه قادر على كـل شيء. انه يستـطيع أن يفعـل أي شيء، فقط لو أراد. أليس هـو الذي أدخله المدرسة بعدمـا دخل الأولاد كلهم ورفضت أوراقـه هو؟ أليس هـو الذي أقسم يـومها أن لا بـد من دخولـه في اليـوم التـالي، وغـاب عن المنزل طيلة مـا بعد الـظهر وأدخله في اليـوم التالي؟ انـه يستطيع أن يفعـل المستحيل. مـرضت أخته. . كـانت أمه تقـول انها ستموت وكانت تبكي وكان سامي يبكي. وكان أبوه هو الوحيـد الذي لـم يبك والذي قـال انها لن تمـوت، وهو الـذي أخذهـا الى الحكيم واشترى الدواء، ولـم تمت سامية. أبوه هذا القادر على كل شيء قال له أمس وأول أمس واليوم أيضا انه مفلس. حدثه سـامي عن اتفاقـاته السـابقة مـع صلاح وعبـد المنعم واتفاقـه ذاك، وضحك أبـوه الطيب وقـال: خليـك لأول الشهـر. وأكثـر من الـطلب وأكثـر أبـوه من القسم. . والله ما معي يا بني. وهل هذا معقول؟ بيتهم كله اذن ليس فيـه شلن؟. انهم يضحكون عليـه. انهم يـظنـونـه طفـلا صغيـراً من السهـل خداعـه. إنهم لا يعنيهم أبداً ذهـابه إلى السينمـا ولا يقدرون قيمته لأنهم لم يجربوها ولم يذهبوا إليهـا. إن المسألـة بالنسبـة إليهم ليست خـطيرة. إنهـا ليست كمرض سامية. ويعتقـدون انـه غـر أبله يكفي أن يقسموا أمامه لكي يصدقهم؟!

لقـد أحكم التدبيـر وكل لحـظة معدة اعـدادا دقيقا في رأسـه. سيحصل على هذا الشلن بأسهل ممـا كنوا يتصـورون. أيعتقد هؤلاء النـاس أنه لا يعـرف محفظة أبيـه ومكانهـا وضخامتهـا وما تحتـويـه؟

أحسبوه مغفلا الى هذا الحد؟

الساعة العاشرة. أبوه وأمه واخوته كلهم نائمون في الحجرة الثانية. انه لا يخاف من أحد سوى أبيه. أمه لا تستيقظ أبدا في الليل. أبوه هو الذي توقظه كل حركة مهما بلغت تفاهتها. عليه أن ينتظر قليلا حتى يطمئن الى انهم جميعا قد استغرقوا في النوم إلى آذانهم.

وأراد أن يقضي الوقت في حل مسألة الحساب الباقية من الواجب، ولم يستطع. كان «ثمن الشراء» يقفز أمامه ويصبح «ثمن البيع». وكان يضع «العلامة العشرية» على يمين الرقم فإذا بها تساهيه وتتسلل وتصبح على يساره. ونفض يده من المسألة وراح يتأمل كالتائه محتويات الحجرة التي يذاكر فيها هو وأخته، والتي يأكلون فيها أيضاً ويستقبلون الضيوف وتناله الصفعات أحياناً.

وانتبه الى نفسه على صوت يأتي من الخارج، وأصاخ أذنيه. كان بيتهم كالقبر لا يسمع فيه خرير الماء القليل الذي يتسرب من الحنفية، وسرسعة الصراصير في المطبخ. وكان الحي بأكمله ساكنا سكونا أبديا لا يقطعه سوى ذلك الصوت.. صوت وحيد متهدج كأنما يعزي الناس على خيبتهم.

وأدرك سامي بعدما تسمع قليلا انه صوت المذيع يقول نشرة الأخبار.

ودق قلبه.

لقد حانت الساعة.

وغادر مكانه على أطراف أصابعه. واحتار أيطفىء نـور الحجرة أم يبقيه؟ يبقيه. انه خائف والنور يونسه. وتوقف في الصالة الصغيـرة التي تفصل حجرتي شقتهم. أبوه يشخر.. عظيم!

وتقـدم من باب حجـرة النوم وأدار«الأكـرة». الباب يـزيق كلما فتح. عليه اذن ان يفتحه مللي بمللي. ها هو قد أصبح في الداخل. الظلام ثقيل، انه لا يرى شيئا المرة. ماذا حدث لعينيه؟ شعاع واحـد يتسرب من الباب الموارب. أبوه يشخر. أخته تقرض مثل الفأرة على أسنانها كعادتها حين تنام. انه يرتعش. لماذا يدق قلبه هكـذا؟ اذا لم يهـدأ سيوقظ أبـاه بدقـه الملعون. ولمـاذا كل هـذا العرق؟ تقـدم يـا ولد.. تقدم!

وتقـدم سامي أكثـر في منتهى الحذر. السـرير الـذي يرقـد فيه والداه وأخته على يمينه، أخوه الصغير يرقد على«الملة» التي يشاركـه فيها. الدولاب بعد خطوات قليلة على يساره. عليه أن يزحف بقدميه حتى لا يسهو ويصطدم بأخيه النائم ويصرخ وتكون الكارثة. كف عن الدق أيها القلب اللعين. شخر يا أبي شخـر. ارفع من صـوتك هـذا الذي طالما أرق نومي.

وحـدث أن توقف فجـأة عن الشخير. وتـوقف قلب سامي هـو الآخر..

ولكن أبـاه عاد وجـذب نفسا عميقـا مصحوبـا بشخير أعمق..

بسرعة ومد يده داخلها ولم يجد شيئاً. وقلبها وظل يرجها وسقط منه شيئان: نص فرنك ممسوح معضوض لا بد أنه كان لازقاً في طياتها.. والشيء الآخر كان غريباً عجيباً.. «زلطة» سوداء صغيرة مفلطحة شكلها لذيذ.. ماذا يفعل أبوه بتلك الزلطة؟ ولماذا يحافظ عليها ويضعها هكذا في أعماق المخفظة؟.. أفيها سر؟.. وهل يتقي بها العفاريت؟.. أو يستعين بها على جلب النقود إلى المحفظة؟..

ولم يلبث أن ترك الزلطة وأمسك بالقرشين.. قرشان؟.. كل ما معه من فكة لا يتعدى«النص فرنك».. وليته نص فرنك صالح للاستعمال، انه يشك كثيرا من إمكان تدواله.

ما هذه المصائب؟.. كل ما توقعه يصفى على قرشين؟!

وأخرج سامي كل ما في باقي جيوب المحفظة من أوراق وتفحصها جميعا بنظرة واحدة سريعة. ولمح من خلال الكومة التي أصبحت أمامه عشرة قروش تكاد تزهق روحها من كثرة ما تراكم فوقها.. وكان من المستحيل أن يصدق أنها كل ما في المحفظة من نقود. لا بد ان البقية يحتويها ظرف من تلك الظروف اذ كثيراً ما رأى أباه يضع فيها الأوراق الخضراء والصفراء..

ومضى يفتح الظروف ويستخرج محتوياتها. كانت رغبته العارمة في العثور على الشلن هي التي تدفعه أول الأمر الى فض المظاريف والبحث بينها، ولكن بعد لحظات غلبه حب الاستطلاع على أمره. كانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يطلع على مكنون

محفظة أبيه وعلى ما فيها من أوراق لا بد أنها مهمة جدا، لهـا أهمية غير عادية والا لما احتفظ بها داخل تلك الحوصلة الجلدية. كثيـرا ما رأى المحفظة وهي خارجة داخلة إلى جيب أبيه، وهي مفتوحة ومطوية، وهي في مكانها المعتاد، ثم وهي ترقد تحت«المخدة» أحيانا.. كثيرا مـا ألحت عليه الخـواطر والهـواجس تخمن ما تحتـويه وتـدفعه اليهـا دفعـا.. ومحتويـاتها كلهـا أمامـه الآن، فأيـة فرصـة ذهبية جـاءته من السماء!!..

لم يكن يفهم ما يقرؤه تماما، ولكنـه كان مسـرورا قلقا، ذلـك النوع الغريب من القلق البهيج الذي يعتـري الانسان كلمـا أتيحت له معرفة سر من الأسرار بطريقة محرمة..

وجد خطابا من خاله.. يتكلم فيه عن ميـراث.. وعن مبلغ.. ويسلم فيـه عليه.. تـرى لماذا لم يبلغـه أبوه السـلام؟.. ثم ما تلك الأوراق الصـدئة المهـريـة التي لا تسمن ولا تغني من جـوع؟.. ان حبرها من نـوع أسود قـديم لم يره أبـدا، وخطهـا حلو، وهذا الشيء المرسوم عليه مئذنة وقبة.. قد صار زواج فاطمة بنت عبد الله.. من تكون ؟ أتكون أمـه.. لا بد.. ولا بـد.. أن يكون ابـراهيم منصور أباه.. وهذه الورقة الحمراء؟.. ادارة الغاز والكهرباء؟.. نرجو عنـد الرد ذكر رقم ٢٨٤.. ايه ده؟.. واذا مش عارف ايـه سنقطع التيـار. ما هو ذلك التيار الـذي سيقطعـونه وبـأي شيء سيقطعـونه؟.. وهـذا الـظرف المكتوب عليـه: قطعـة من كسوة الكعبـة الشريفـة هديـة من العبد الفقير الى الله تعالى الحاج مبارك محمد حسن، قطعة القمـاش

السـوداء هذه التي في الـظرف من الكعبة؟! يـاه!! ان رائحتها صعبـة . . أمســك ذاك أم عنبــر؟ . . هي السبب اذن في تـلك الــرائحـة المقبضة التي تنبعث من المحفظة؟ . .

وكـان ممكنا أن يـظل سامي مستغـرقـا في نشـوة الاضـطراب الخفي تلك، ولكنه وفي خضم ما كان فيه وعت أذنـه صوت السـلام والراديو يذيعه وختم به برامج السهرة . .

وفي الحـال عـاد الى نفسـه مضعضـع الحـواس وكـأنمـا ضبط متلبسا . . وأصبح همه في اللحظة التالية أن يعيد الأوراق كلها الى ما كـانت عليه، بنفس تـرتيبهـا ونـظامهـا حتى تبـدو وكـأن لـم يمسسهـا بشـر. وفي الحق كانت مهمة صعبـة ولكنها انتهت. وبقيت العشـرة قروش راقدة أمامه على المنضدة منطوية على نفسها كالخرقة الباليـة . لم يرجعها الى المحفظة وكذلك لم يدسهـا في جيبه. وكـان عليه أن يقـرر أمـرا من الاثنين ولم يكن القــرار سهـلا . اذا أخــذهـا لا بــد ستنكشف السـرقة، واذا تـركها فقـد آخـر أمـل في الـوفـاء بـالميعـاد والذهاب الى السينما .

والعجيب أنه لـم يفكر في واحد من الأمرين، كان قد أفـاق من النشوة التي أتخم بها حب استطلاعه وامتلأت نفسه بالحنق الشديـد . كيـف لا يعثـر الا على عشرة قـروش مهـرأة . . ونص فـرنـك مـاسـح معضوض؟ . . هذا الأب الضخم الطيب الذي يصنـع المعجزات ولا يقف أمام مقدرته شيء . . كيف لا يكون معه سوى مبلغ تافه كذاك؟ . .

هـذه خديعـة هذا ضحـك من نوع آخـر عليه. لمـاذا لم يعمل حسابه؟ لماذا لم يكن في المحفظة مبلغ كبير كما تـوقع؟ أين صـرف النقود؟ اين الماهية؟

وامتدت يده الغاضبة ودست العشـرة القروش في جيبـه. سوف يذهب الى السينما بخمسة ويصرف الخمسة الأخرى. يـأكل«بغـاشة» و«جيـلاتي» كما يـأكل كـل الأولاد، وليكن بعد ذلـك ما يكـون. وهو ماله؟ وما ذنبه اذا كانوا يرسلونه الى المدرسة ولا يعـطونه نقـودا، واذا سـألهم ضحكوا عليـه وأقسمـوا أن ليس معهم، واذا فتشهم لم يجـد سوى ورقة صغيرة بالية.

وحتى وهـو في طريقـه الى حجـرة النـوم ليعيـد المحفـظة الى الجيب الداخلي، كانت خطواته لا تزال تحفل بـالاستنكار والغضب. وحين فتح الباب وجد كل شيء كمـا كان، أبـوه يشخر وأختـه تقرض أسنانها والظلام مخيم.

ولم يأخذ حذره هذه المرة ويقفل الباب وراءه، اذ لم يعد يهمه وهو في قمة الغيظ ما يحدث. ودلف وراءه من الباب المفتوح شعـاع باهت من النور أضاء الحجرة قليلا وسقط على وجه أبيه.

وألقى عليه سامي نظرة وكأنما ليصب عليه جـام غضبه. ولكنـه تسمر في مكانه وظل يحدق فيه كـالأبله. كانت رأس أبيـه منزلقـة من فوق «المخدة» ومثنية على كتفه، وكانت عارية وقد سقطت عنها الطاقية التي يـرتـديهـا وهـو نـائم، وكـان شعـره خفيفـاً مشـوشـاً تلمـع من

تحت صلعته، وكان فكه مدلى وفمه مفتوحا والشخير يتصاعد منه في غير انتظام. وسامي دائما كان يرى أباه في النهار ضاحكا أو مبتئسا، راضيا أو ساخطا، ولكن ملامحه على أية حال كانت دائما فيها قوة وصحة وحياة تجعل أباه يبدو كالأسد الأليف الذي يوحي مرآه بالثقة، ولحظتها ورأسه منزلقة وفمه مفتوح وشعره مهدل مشوش وملامحه متراخية مستسلمة، لحظتها رآه طيبا جدا.. وغلبانا جدا.. ليس هذا فقط.. بل ان محفظته الكبيرة الضخمة ليس فيها كلها سوى قروش عشرة، وزلطة، ونص فرنك..

ظل سامي واقفا في مكانه يحدق في أبيه وكأنه يراه لأول مرة. كان من كثرة ما تعود رؤيته قد ألفه وألف أن ينظر اليه كأبيه، واذا به الآن يراه وكأنه ليس أباه، وكأنه قد أصبح انسانا مستقلا عنه، رجلا آخر، غريبا.. طيبا.. غلبانا. منفصلا عنه تماما.. له جسد ورأس وساق قد انكشف عنها ثوبه وبدت ضامرة مليئة بالشعر..

وأحس بألم حاد ينتشر في نفسه وشيء يريد خنقه، ثم أحس برغبة عارمة في البكاء، ثم أحس أنه يود أن يلقي كل ما بنفسه ويندفع الى الرجل الغلبان أمامه يعانقه ويضمه بشدة ويقبله، ويقبل فمه المفتوح الطيب ذاك وذقنه النابتة الخشنة وعيونه المغلقة في استسلام.

ولم يكف أبوه طوال الوقت عن الشخير. يستريح وجهه لحظة، ثم تخرج الأصوات من أنفه وفمه.. أصوات ممدودة غلبانة هي الأخرى.. تكاد تقسم وتقول: والله ما معي ولا أمتلك..

لم يضحك عليه أبوه اذن ويخدعه، وهو ليس كما ظن سامي قادرا على كل شيء.. انه نائم.. مستسلم.. وطيب.. ولم يكن يخدعه..

وتململ الأب واضطرب شخيره.

وتحرك سامي والأحزان تملؤه. وأغلق الباب. وأخرج القروش العشرة من جيبه ودسها بغير حماس في المحفظة ثم اسقطها في الجيب الذي كانت فيه..

وبعدما أطفأ النور في الحجرة الأخرى رقد بجوار أخيه على «الملة».

وكان يحب تلك الفترة التي يرقد فيها وينتظر النوم، اذ كان يحلم فيها بالقلم الأحمر الذي رآه في المكتبة والخمسين من خمسين في الانجليزي أو يفكر في الحيلة الجديدة التي عليه أن يبتكرها ليحصل على قرش في الصباح.

ولكن أفكاره طوال الوقت لم تغادر الرجل الراقد غير بعيد عنه فوق السرير، وثمة احساس كبير يملؤه وكأنه كان يستند الى جدار واذا بالجدار ينهار من خلفه ويتركه مستندا الى الفراغ.

وكلما استعاد مشهد ملامحه ومحفظته أحس وهواتف خفية تنبثق في صدره وتهيب به أن يفعل شيئا.. لا بد أن يملأ محفظته بالنقود.. بمئات الجنيهات.. لا بد أن يجلب له كنزا.. لا بد أن يشتغل.. يعمل أي شيء.. وعلى الأقل يقبض عشرة جنيهات في الشهر يعطيها لأبيه قائلا: خذ ولا تزعل.. قم وانهض وغط ساقك،

واستعد ملامح الأسد. قم يا أبي.. ثم أنا لم أعد طفلا. أنا والله رجل. رجل كبير يا أبي لا تخف عليّ سأحميك ولن أطلب منك نقودا. ولن أحتال عليك لأحصل على القروش. وحياتك يا أبي لن أفعل هذا.

وتقلب أخوه وزأم كمن يحلم، ثم علا صوته، وغمغم.. عاوز أشرب.. هه.. عاوز أشرب.

وكثيرا ما يسمع أخاه يغمغم ويطلب الماء في الليل فيظل ساكنا على مضض ولا يتحرك حتى توقظ الضجة أباه فيقوم ويسقيه..

ولكنه ما كاد يسمعه هذه المرة حتى هدهد عليه وهو يقول:

ـ حاضر.

ثم قام في حماس زائد، وملأ له الكوب، وعاد به، وحده، في الظلام.

وقبل أن يغلق عينيه، اعتدل كمن تذكر شيئا، ومد يديه وراح يحبك الغطاء حول أخيه، كما يفعل أبوه تماما، وتأكد أن قدميه ملفوفتان في(البطانية)، ورأسه معدول فوق المخدة.

ثم أخذه في حضنه.

ونام.

٥٥٥

الناس

كان في بلدنا «طرفة»، لم تكن كبيـرة ولا عاليـة أو ذات سيقان وفـروع، كانت ضئيلة الحجم قصيـرة قميئة ورقهـا كورق العبـل رفيع وأسطواني، ولونها أخضر قاتم، ولا تعرف ربيعاً أو خريفـاً فهي تورق على الدوام، ولا تعرف ضعفاً ولا قوة فهي لا تنمو ولا تصغر ولم يـزد حجمها أو ينقص طوال أجيال.

ولا يدري أحد كيف نبتت تلك الشجرة في بلدنا، اذ ان شجـر الـطرف نادر الـوجود في الأرض الـطمي فهـو لا ينمـو الا في منـاطق المستنقعات. وكذلك لا يدري أحد لماذا اختارت ناحيتنا بالذات.

كل ما نعلمه أن أهل بلدنا اعتقدوا فيها ونظرا لواحدانيتهـا حف بها نوع من التقـديس، وآمن الناس أن لا بـد وراء وجودهـا سر بـاتع وكبير.

ومنذ أجيال وأهل بلدنا لا يتبركون بها فقط ولكنهم يستخدمونها كـدواء لأمـراض العيـون. مـا من كـائن وجعتـه عينـه الا ووصفـ لـه أحدهم ورق الطرفة. . تذهب بعد الفجر الى الشجـرة وتنتظر الى أن يهبط الندى، ثم تأخذ عدة عقل من أوراقها وتكسرها فيسيل منها لزج

تقطر في العين الموجوعة منه قطرتان لا ثالث لهما. وبإذن واحد أحد يحل الشفاء.

وأغرب ما في الأمر أن الشفاء كان يحل فعلا. صحيح أنه في أحيان كثيرة لم يكن يحل الشفاء.. أحيانا كان يتضاعف المرض، وأحيانا نادرة كان يحل العمى أو العور، ولكن الناس لم يكونوا يعزون بالفشل الى ورق الطرفة بقدر ما يعزونه الى نجاسة المريض مثلا أو أحد من أهله، أو أن المرض قد زاد واستمكن، أو انك لا بد قد أخطأت ولم تنتظر حتى يهبط الندى.

ووعينا نحن فوجدنا شجرة الطرفة من معالم بلدنا الأزلية تحف بها القداسة وتكتنفها الأسرار، فكنا نخاف منها ونرهبها ونتخيلها بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقطع الطريق إلى الترعة، أو كأنها خالتنا أم الغول.

وشببنا فوجدنا اعتقاد أهل بلدنا فيها لا يتزلزل أو يصيبه وهن. غزا الطب الريف وافتتحت في البنادر عيادات رمد ومستشفيات، وهم مصرون على تلك الشجرة فخورون بها، يحمدون الله على وجودها في بلدنا دون سواها ويكنون لها أعمق التقدير حتى ليكاد الواحد منهم يقرأ الفاتحة اذا ما مر عليها.

والعجيب أن الاعتقاد فيها كان شاملا. الكل يؤمن بها. الكبير والصغير، والفقير وصاحب القرشين، بل امتد هذا الايمان الى ما جاورنا من قرى، وأصبح من المناظر المألوفة في بلدنا أن ترى

أناسا جالسين بعد الفجر حول شجرة الطرفة، ينتظرون في صمت وفي رهبة هبوط الندى.

وأصبحنا تلامذة وتعلمنا، وعرفنا التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وقانون الغازات لبويل.

وبدأنا نكفر بشجرة الطرفة.

وكان أكثرنا حماسا ابن الصراف الطالب بكلية الزراعة الذي لم يكفه الكفر والإلحاد بالطرفة، بل راح يضيق بأهل بلدنا أنفسهم سخافتهم وعقولهم الجامدة الضيقة التي تحجرت على الايمان بشجرة لا حول لها ولا قوة.

ثم أصبحنا كلنا نجاهر بهذا الكفر، وما لبث ضيقنا وسخطنا أن تحول الى حركة ودعوة، وجاء اليوم الذي أعلنا فيه الجهاد وقسمنا أنفسنا.. فريق يخطب في المساجد ويقول: يا أهالي الطرفة تعمى كل ذي عينين. وفريق يلف على الناس والمصاطب ويقول: يا اخواننا الحكومة فتحت مستشفيات عليكم بها ودعوا الطرفة. وفريق وقف بجوار الشجرة يستقبل كل من جاء ويشرح له ويحاول أن يثنيه عن عزمه. وكان الناس ينظرون الينا ونحن نفتح أفواهنا ونخرج منها كلاما سريعا كثيرا، ويهزون رءوسهم ويقولون لبعضهم البعض: كلام حلو يا أخي.. كلام مضبوط.

واعتبرنا أن المسألة قد انتهت وأن عيون الناس قد سلمت على أيدينا وأننا نستحق على مجهوداتنا تماثيل شكر وآيات تكريم. ولكننا

لبعض جيرانه. قد تكون حلولا مثـل تلك قد دارت في عقـل الرجـل وهو يغادر المنزل.

* * *

ـ خلاص يا ستي ولا تحملي هم.

ولم يفت الزوجة وهي تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو من الألـم والوهن.

ولم يفته وهو يروي لها تفاصيل المعركة أن يبالغ.. قليـلا أول الأمر، ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا سـاق فيها وفتـح باب المبـالغة على مصراعيه..

وظنا ان المتاعب قد انتهت عند هذا الحد.

ولكنهما قضيا أتعس ليلة.

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع.. ناو.. نـاو.. ناو..

كان الصوت غاضبا أول الأمـر، قصيرا رفيعـا كالسكين الحـادة حين تقطع في الجسد.

وكلمـا امتد الـظلام والسكـون كـان الصـوت هـو الآخـر يمتـد ويطول.. ناو.. ناو.. ناو.

ولم يعد الرجل يحتمل. اقتحم الصالة خارجا ورمى أنيسة التي كـانت تـروح وتجيء ولا تكف عن النـونـوة لحـظة.. رمـاهـا بفـردة

أستاذ في كليته وحكى له الحكاية، وطلب منه تحليل الأوراق.

وفوجئنا حين أثبت التحليل أن في الورق نسبة من كبريتات النحاس التي تصنع منها القطرة.

وأشعنا الخبر في البلدة، أشعناه ونحن نصفق ونهلل وكأننا اكتشفنا كنزا كان مجهولا. وقلنا للناس:

ـ لا ضير عليكم من استعمال الطرفة، ففي أوراقها قطرة.

وهز الناس رءوسهم بلا حماس وغمغموا:

ـ جالكو كلامنا؟

كل ما حدث انه حين مرت اعوام كثيرة، وعدنا الى بلدنا موظفين وخبراء ومحترمين، وجدنا أن شجرة الطرفة لم يعد لها ذلك التقديس القديم، وأنها هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ولا تخيف كما تخيف أم الغول.

ووجدنا الناس قد كفوا عن استعمال أوراقها في علاج العيون، وحين كنا نسألهم عن السبب ونحن مذهولون، كانوا يهزون رءوسهم ويقولون:

ـ سيبك يا شيخ.. القطرة برضك أنضف..

الوجه الآخر

كان الواحد منا اذا عثر على «نص فرنك» وهو صغير طار من الفرحة. وحين كبرنا أصبح ما يفرحنا أن نعثر على انسان، أو كلمة طيبة.. !

والحركة كما يقولون بركة، وأن تقص شعرك كل مرة عند نفس الحلاق شيء ممل حقا.. ولم أكن أستقر عند أحدهم، ولم أكن أطمع أن أدخل صالونا ذات صدفة فأجد صاحبه انسانا كالأسطى زكي. كان كل همي اذا دخلت عند الحلاق أن أعد نفسي لعملية التعذيب القادمة. وقص الشعر عملية تعذيب يؤديها الانسان كالواجب الثقيل المفروض، اذ ما معنى أن يجلس الواحد نصف ساعة أو أكثر، ورأسه مثني على وضع معين، وعروق رقبته متصلبة تكاد تنقطع، وكل هذا ليقص شعره بضعة مللمترات، أو ليبدو وجهه أكثر وسامة.. !

كان الأسطى زكي الذي أسلمته رأسي رجلا غريبا، فصوته رفيع كأصوات النساء، ووجهه أحمر كوجوه الأتراك، وهو قصير سريع الحركة كمخلوقات والت ديزني، وفي عينيه ذكاء. والأعجب

من هذا سيجار توسكانيللي لا يغادر فمه مطفأ ولا مشتعلا وكأنما ولد به. إذا أشعله يفعل هذا بثلاثة عيدان كبريت، ويكتم الدخان المتصاعد منه أنفاسي.. دخان ثقيل قابض كأنه مصنوع من ذرات رصاص. واذا انطفأ تركه بين شفتيه، وكلما نطق يتلاعب السيجار الى اسفل وأعلى وكأنما أصبح جزءا من تقاطيعه. وكان أكثر شعر رأسه أبيض منكوشا كشعر المذهولين، وهناك وجوه لا تحس بملامحها، وكنت تحس أن في وجهه أنفا. ولم يكن يرتدي البالطو الذي تعود الحلاقون ارتداءه. كان يرتدي قميصا وبنطلونا.. القميص من قماش لا يستعمل للقمصان ذو خطوط غامقة كثيرة وليس له ياقة، ومفتوح عند العنق يظهر بقعة من صدره فيها شعر كثيف أبيض، والبنطلون حائر في وسطه لا يعرف على أي جزء من كرشه المقوس الأملس يستقر. وهو كالمكوك لا يهدأ، في نفس الوقت الذي يقص فيه شعري كان مشتبكا في ثلاث مناقشات مع زملاء ثلاثة له، واحد دخل معه قافية حول البامية والقرون، والآخر يحدثه عن طريقة مبتكرة لعلاج المرارة، والثالث يضحك معه على الاثنين. وينثني فجأة ويهمس في أذني بتعليق أو كلمة ترحيب، ويسألني ان كنت في حاجة لجريدة. ولا ينتظر جوابي ويرتفع صوته باحثا عن«الاثنين» ولا يجدها ويشتم الصبي، ويجد أن«آخر ساعة» قد طارت، ويعود إليّ بالأهرام وعلى وجهه ابتسامة خجولة آسفة تكاد من برودتها تطفىء«ولعة سيجارة».

والمقص بين اصبعيه لا يكف عن الطقطقة به لحظة، وكأنه حاو

يقوم باستعراض أمام الناس ويريهم معجزة

ويبدو أنه كان مشهورا واسمه تتقاذفه الأفواه كـالكرة الشـراب، والداخل والخارج والزبون والزميل والجميع يعاملونه كما لو كـان لعبة طيبـة لطيفـة مهما سخـرت منها فلن تعقب، واللعبـة تغري بـاللعب، وهكـذا لم يكن احد يـدعـه على حـالٍ، ولم يكن يبـدو عليـه الضيق بأمثال تلك المـداعبات بـل لعله كان مسـرورا. كنت الوحيـد المغيظ فـرقبتي هي المثنيـة، والعبث كله على حســاب رأسي وأعصــابي، والرجل كان باديا انه تعـدى الخمسين ولا يستطيـع الانسان أن ينهـره بسهولة.

وبلغ بي الضيق منتهاه، ومن كثرة ضيقي أمرت الصبي الواقف ينش عليّ الذباب أن يكف، فأن يحس الانسان بالعذاب لأنـه يقضي نصف ساعة وهو جالس أمـر قد يحتمـل، أما أن يقضي صبي صغيـر في العاشرة من عمره اليوم بطوله واقفا في مكانه لا يتحرك، ولا يفعل سوى نش الذباب عن وجه الزبائن وكأنه آلة، فأمر لا يحتمل.

والـظاهر أن الأسـطى زكي لم ينتبه الى أني السبب في تـوقف النش، فقد نهر الصبي وأمره بمضاعفة جهوده في طرد الذبـاب. ولم يكن هنـاك الا ذبابتـان، واحدة لا تتحـرك من فوق المـرآة، والأخرى تحوم حولنا، اذا نفث الأسطى زكي دخانه فرت واذا كف عادت.

وانتهزت الفرصة وانفجرت أطلب من الصبي أن يكف، وأقـول للأسطى زكي:

ـ هذا تعذيب وقلة انسانية . . (الخ . . الخ) .

وابتسم ردا على غيظي وقال :

ـ أمال . . أمال . . ينش . . لازم . . !

وعدت أردد له ما قلته ، وعاد يقول وهو حائر بين الضحك والابتسام :

ـ أبدا . . أبدا . . إلا دي . . دا لازم يقف كده . . لازم كده .

ـ ليه؟ . .

ـ أمال . . أمال . . عشان يتعلم . . ينش ويتعلم . . لازم كده . . لازم يقف هنا عشان يشوفني وأنا بشتغل ويتعلم . . إلا دي . .

والى حد ما كاد رأيه يقنعني ، ولكن الصبي على أي الحالات كان يتعذب ، ورد على قولي بقوله :

ـ آه . . عذاب . . معاك عذاب . . انما . . اصول الكار . . يتعلم ازاي أمال؟ . . سيدنا أيوب كان صياد . . وسيدنا عيسى كان نجار . . أنا اتعلمت كده . . كلنا كده . . أصول . . الواحد لازم يكون له صنعة يأكل منها عيش . . إلا دي . . اللقمه اللي من غير تعب فكرك يبقى لها طعم . . إلا دي . . كارنا كده . . مش بالساهل . ح يتعلم ازاي؟ إلا كده . . نش يا ولد نش . . نش يا جنس كلب . . نش إلا دي . .

فقلت وأنا لا ازال ممتعضا :

ـ طيب . . ينش ينش . . لكن ضروري الشتيمة يعني؟

فأغرق في الضحك وقال:

ـ ضروري . . ضروري قوي . . يتعلم ازاي إلا بالشتيمة؟ . . دا جاي هنا غصب عنه . . فكرك هو عايز يتعلم الحلاقـة؟ . . إلا دي . . أبـدا . . دا عايـز يجري ويتنـطط زي التـلامـذة . . يتعلم ازاي الا اذا خاف؟ . . يخاف يتعلم . . وهي دي شتيمه؟ . . أنا وأنا قده كان ابويـا الله يرحمه يتلعن في تربته الف مرة في اليوم . . كنت أزعل . . أنا مـا اغلطشي . . وكده اتعلمت . . هي دي شتيمة؟ . . احنا كلامنا كده . . أصل لا مؤاخذة الصنعه الباردة كلامها بارد . . كلامنا كده . . ح نعمل ايه؟ يا واد حوش الدبانه دي . . الله . . انت عـايزهـا تدخـل بقي؟ . . يعني لازم أوسخ يعني . . إلا دي . .

وفـطنت وهو في منتصف كـلامه الى شيء . . فهـو لم يكن قد سألني رأيي في الطريقة التي أفضلها لقص الشعر، وعادة الحـلاق أن يـأخذ رأي الـزبون. هـو لم يكن يلمح رأسي أمـامه حتى انهـال عليه قصـا وتوضيبـا دون ان يحفل بسؤالي، فقـاطعتـه ولا يـزال غيـظي لم يتبدد:

ـ تسمح؟ . . والله أنا عايز التدريجه . .

فقاطعني هو قائلا:

ـ عـارف. . عارف. . سيـادتك بتحب تكـون متوسـطه. . مش كده؟. . إلا دي. .

ودهشت قليلا وقلت:

ـ ايش عرفك. . ؟

فقال وهو يرفع عينيه عن رأسي ويعتدل وقد فتحت يده المقص وأخذ يطقطق على الفاضي. . والمشط في اليـد الأخرى، والسيجـار في منتصف المسافة:

ـ عرفت ازاي ازاي؟. . انا بعرف كده. . المسأله نظر. . نظرة واحدة للزبون اعرف هو عايز ايه. . إلا دي. . نظرة واحدة. . عرفت ازاي؟ كده؟. . بالفلهوة. . أمال الواحد بقاله اربعين سنة في الكار ده ازاي؟. . بنلعب. . إلا دي. .

ثم عـاد الى العمل، وقصـر قامتـه القصيرة وركـز انتباهـه على نقطة لا بد كانت استراتيجية جداً من رقبتي، وراح يعمل فيها بـطرف المقص بكل دقة وحنكة، وعينه مزرورة ونار السيجار قد اقتربت جدا من أذني حتى لتكاد تلسعها، وأكمل من خلال فمه المضموم:

ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال: اعمل لدنيـاك. . واعمل. . يعني اعملوا. . مش تهـزروا. . لازم الواحـد يتفهم النـاس. . شفت ازاي؟. . أهو حضرتك مش متزوج مثـلا. . لا مؤاخذة أنـا بس يعني

حبيت أوري سيادتك.. ح تقولي ليه؟.. كده.. بالفلهوة.. ح تقولي عرفتها ازاي؟.. أقول لك ما اعرفشي.. كل واحد بيبان عليه.. المتزوج بيبان عليه، والعازب يبان عليه، وكذلك الفقير.

وانقلب سخطي عليه الى سخرية، ونحن لا نترك فرصة للتنكيت الا انتهزناها، فقلت:

ـ ايه.. انت بتقرا لي قفايا والا ايه؟

ولم يضحك، وحسبت السبب ان النكتة لم تعجبه لأني أنا شخصيا حين اعدت النظر فيها وجدتها نص نص، حسبت هذا لولا انه قال:

ـ بالظبط.. بالضبط كده.. أهي دي الفلهوة بقى..

وخربت بيته في سري.. وتركت عملية الحلاقة كلية والتفت الى هذا المخلوق القصير ذي الوجه الأحمر، ان لحسته قد زادت عن حدها كثيرا.. وقلت له وأنا أهز رأسي كمنٍ يهزه الى مخرف كبير:

ـ يعني سيادتك بقى بتقرا القفوات؟

فقال:

ـ لا.. مش قوي كده.. يعني.. إلا دي.. هي القفوات لا مؤاخذة فناچين والا كوتشينه.. الحكاية بالويم يعني..

فسألته ضاحكا:

ـ هيه.. طيب.. وايه تاني في قفايا؟

فابتسم في تواضع وقال:

ـ يو هوه.. حاجات كتير.. مثلا.. يعني سيادتك مثلا عليك اعصابك.. يعني لا مؤاخذة عصبي شويه.. ومع كده ابن حلال يتكتم..

وخربت بيته مرة أخرى في سري، فقد كان ما قال صحيحا بعض الشيء.

وهنا التفت للصبي وقال:

ـ المراية يا ولد..

وحين عاد الولد بالمرآة تناولها منه بعد ان شتمه لتلكؤه، ومسحها أولا بالفوطة، ثم أمسكها في وضع يسمح لي بأن أرى قفاي. وحركها وهو يقول:

ـ شوف سيادتك بقى.. تعجبك التدريجه.. كويسه.. كويس كده؟..

كان يقول هذا بصوت جاد وملامح متأملة وهو يتطلع الى رقبتي ويرقب نتيجة عمله، كما لو يتأمل الفنان لوحة انتهى منها..

ورحت بدوري أحدق في المرآة وأحاول أن أستشف ما في رقبتي من شذوذ أو بروز يكون قد اوحى للأسطى زكي بما قاله، ولكني لم أجد شيئا، وعبرت له عما يجول بخاطري فابتسم ابتسامة الحاوي العجوز، وقال وهو يضبط المرآة التي خلفي:

ـ بص سيادتك.. بص كويس.. شايف ايـه؟.. رقبه.. مش كـده؟.. وشعـر.. النـاس بتسميهُم قفـا.. انـا بسميهم وش.. أنـا عنـدي القفـا وش بـس من النـاحيـة التـانيـة.. بني آدم زي السكين بوشين فليه نسمي الناحيا دي وش والناحية دي قفا؟.. هنا وش وهنا وش..

وسكت فجـأة وسهم وهامت عينـاه، ثم نطق بصـوت مضمـوم خيل إليّ انه يخرج من سيجاره الأسود:

ـ أما حتة وزن!

ورأيت طرف المرآة يطالعني بجزء من الحتة، كان نصف امرأة ماشية في الشارع طويلة سمراء وممتلئة ملتهبـة، وكما هـام فجأة عـاد فجأة، وكان أول مـا فعله أن شتم الصبي وأمره بنش الـذباب، وكـان الصبي ينش فعلاً ولا حاجة به إلى أمر أو سباب ثم استطرد:

ـ ليه ما ينفعش وش؟.. أنا وجهات نـظري كده.. أنـا بشوف ده واشوف ده.. طول النهار وشي في قفا الـزبون.. بشـوف فيه كـل حاجة كأنه وش.

وكان يتحدث طوال الوقت بصوت سريع منخفض وكأنه يخاف أن يسمعـه أحد غيـري، ولكنـه خفض صـوتـه أكثـر على حين بغتـة وهمس في أذني:

ـ وبيني وبينك الوش الوراني ده أحسن من القدماني.

ولم استـطع أن أعلق أو أسأل أو أوقـفـه لحظة. كـان كاللعبـة التي ملىء زمبلكهـا وانـطلقت تتحـرك وأصبـح لا يمكن وقفهــا حتى

تفـرغ شحنتها، واستمـر يقول بصـوتـه الخـافت المتلصص الحـافـل بالحماس وكأنه نبي يبشر برسالته في السر:

ـ القدماني دهه حتى باظ. . بقى بترينه ما عدش ينفع. . اتعلم الحركات. . بقى يمثل وباظ. . الـواحد يبقى قلبـه شايـل الهم ووشه بيضحك. . ويبقى وشه بيقـول لأ وهو من داخليتـه بيقول أهين. . إلا دي. . شوف يا أستاذ. . على قد ما تقدر قـول على الوش القـدماني دهـه. . دهه. . الله يلعنـه. . لا مؤاخذه مـا أقصدكش. . بـاردون. . الرك كله على القفا. . هو الوش المظبوط. . النضيف قفاه نضيف. . والعيـان قفاه عيـان. . والغنى قفاه ملظلظ. . هـو ده الوش اللي بحق وحقيق. . هنا هه. . كل حاجة هنا هه. !

وقاطعه صوت جاءنا من بعيد، كـان صوت زميـل له يسـأله عن البودرة، وحين هب الأسطى زكي من استغراقه في الكـلام معي ورآه زميله وهو في موقفه ذاك الضاحك وقال وهو يخاطبني:

ـ أظن قـاعد يقـولك عن القفـا يـا بيـه. . دا أصله دوشجي. . خللي بالك منه. . دا اسمه الأسطى قفا. .

وامتـلأ الصالـون بالضحـك والقرقعـات، واحمر وجـه الأسطى زكي قليلا وبدا عليه حزن سريع، ولكنه التفت لزميله وقال:

ـ قفا قفا يـا سي أنور إلا دي. . قفـاك يملا حله. . قفـاك يملا حله.

ومرة أخرى دوى الضحك وانصرفت عنـه الأنظار فـانقض على

أذني من جديد. . ويبدو اننا لا نتأثر بمعنى الكلام فقط ولكن أيضا بالطريقة التي يقال بها. وأول الأمر كان زكي يضحك ويصبغ الهزل كلامه، ثم بدأ يتكلم وكأنما ليذهلني بما يقول. ثم تطرقت إلى صورته رزانة ووقار، وبعد أن كنت أسمع له ساخراً تطرقت الرزانة إلى سمعي أنا الآخر وبدأت أنصت:

ـ بيضحكوا. . والله بيضحكوا على أرواحهم. . داحنا في نومه والله. . دول بيضحكوا على بعض. . الراجل يبقى مزوق من قدام وقفاه زي الطين. . يبقى ده لا مؤاخذة راجل مش نضيف وعايز يقول للناس انه نضيف. . بيضحك على الناس. . كل الناس بتضحك على الناس. . تعرف سيادتك بيقولوا عليّ ملحوس ليه؟. عشان وشي زي قفايا. . تسمح؟

وخلع رأس الكرسي بسرعة وطلى وجهي بالرغوة، وسن الموسى ووضع السيجار جانبا بناء على طلبي، وبينما الموسى يعمل ويزحف فوق ذقني بخفة ومهارة، مضى هو يقول:

ـ أهو احنا كده يا ولاد العرب. . ثم تعالى هنا. . تعرف ان الناس ليهم طبايع غريبة، قلت لي ازاي؟ كل واحد يخلي وشه القدماني مختلف عن الباقيين، وكل واحد عايز وشه الوراني يخليه على قد ما يقدر زي الباقيين. ده يربي شنب قد كده، وده يخليه دوجلاس صغير، وده دوجلاس كبير وده يدوبك خط، وده يقول والنبي تخلي القصة طويلة، وده يقول خليها انجليزي وحياتك. كل واحد عايز وش لوحده. انما تيجي للقفا. . اللي رقبته قصيرة يقول

خللي التدريجة عاليه واللي طويلة يقول خليها واطية. ليه؟ علشان ما يبقاش مختلف عن بقية الناس.. عشان يبقى طبيعي.. اتأمل يا استاذ في أحوال الخلق.. التلميذ ولا مؤاخذة عايز يبقى وشه زي وش البيه، والصنايعي عايز يبقى وشه زي وش التلامذه، والفلاح عايز يبقى زي الأفندي، وكلهم عايزين قمواتهم تبقى زي بعض. بص للزباين والناس اللي ماشيين في الشارع. بص لهم كويس تلاقي لهم مليون وش وقفا واحد بس.. قفا واحد بس.

حكمته! ربنا حط في كل واحد عقل وقال له امشي.. قوم شوف. إلا دي.. يقولوا عليّ ملحوس، يقولوا حلاق، يقولوا اللي يقولوه.. انما والله العظيم تلاتة بالله العظيم الناس بتضحك على نفسها.. كل واحد بيضحك على نفسه، وكلهم ليهم قفا واحد. قول لي يا أستاذ، بذمتك قول لي.. ما دام قفاهم واحد ليه عايزين وجوههم مختلفين؟

فسألته وأنا في تفكير عميق:

- تفتكر ليه؟

فهز كتفيه وقال:

- والله ما اعرف.. كله مش داخل مخي. أنا يا عم كلهم عندي واحد وحياتك.. ما فيش حد أزيد من التاني. كلهم عندي قفوات. نش يا ولد نش.. نش جك وجع ينشك.

وكان قد انتهى من ذقني وأعمل يده وأصابعه في شعري

وسواه، ومضى يداعب الشعرات القليلة الناشزة ويحاول إخمادها.

وقلت وأنا أغادر الكرسي:

- يا أسطى زكي.

- نعم...

- نعم...

- نفسي تقول لي ايه اللي طلعت بيه من ده كله؟

ولم يجبني. كان قد لاحظ بضع شعرات في رقبتي أخطأتها ماكينته فرجاني ان أعود الى الجلوس، وانطلق بخطواته الكثيرة السريعة وهو يدفع هذا ويشاكس ذاك، وعاد ومعه ماكينة صغيرة.

وما ان بدأ يعمل حتى نتشت الماكينة الشعر بدل أن تقطعه، وسبب لي هذا ألما فقلت: أخ.. وما كدت أقولها حتى أغرق في الضحك، ضحك خاطف قصير، والتفت أرى ما يضحكه ولم أجد شيئا، وسألته فقال وهو ينفض الشعر عن ملابسي:

- بضحك ليه؟ أصلي هف عليّ الضحك - ما هي حاجة تضحك. انت مش بتسألني طلعت بإيه من الحكاية دي كلها؟

ولا حاجة وشرفك عندي.. ولا حاجة.. كل اللي طلعت بيه ان المكنة دي بقالها خمس سنين بتنتش، وحلقت بيها ليجي عشرة آلاف واحد وكل زبون كان لما توجعه النتشه يقول أخ.. كلهم.. زي انت ما قلت. نعيما! شرفتنا.. ما اعطلكش.. نش يا ولد نش!

داووود

لم يناقش أحد الفتوى التي تطوعت بها «الداية»، وكيف يناقشها أحـد؟ العائلة كلهـا تلهفت شهورا واستعـدت للحـدث الضخم أيمـا استعداد. الأب ما كاد يرى المولود الجديد حتى أحس وكأن قلبه قـد اختفى ـ برضاه ـ من صدره، وأصبح لـه صراخ وأنين، وانتفض حيـاة جديدة لفتها الداية في اللفائف، وكـان ابنه الأول. والأم. . أم الـولد ظلت تئن وتتلوى وهي حـامـل، وتلعن الحمـل و«سنينـه»، وتصـرخ صراخ المستغيث من الحمل بالميلاد ساعة الميـلاد، ولكن ما كـادت تنفصل عنها«حتة اللحمة» وتراها في لونها الأبيض المشـرب بحمرة، وتكشف لها الداية عورتها فتبلغ قمة السعادة بالـولد، ثم يصـرخ هذا الـولد ويستغيث، وتعـطيـه ثـديهـا وتحس بنغمشـة حبيبـة تسـري في جسدها، والولد النـونو العفـريت يطبق بشفتيـه الصغيرتين اللذيـذتين على لحمها ويمتص منها اللبن في مهارة ودهاء، وكأنه تعلم الرضاعة خفيـة وهو لا يـزال في بطنهـا. ما كـاد هـذا كله يحـدث حتى انقلب الصراخ والألم الى محبة دافقة مفاجئـة تغمر كيـانها كلمـا مص الولـد ثـديها، أو أخـذتـه في حضنهـا، أو رفض اللفـائف بسـاقـه الملظلظة

القصيرة التي لا تكاد تتعدى أصبع اليد . .

أجل . . كيف يجرؤ أحد على مناقشة الداية في فتواها، وقد دخلت تصيح على الأم بعد ان مضى على ولادتها يوم . وما كادت تجلس وتخرج علبة السجائر، وتشعل سيجارة وتأخذ نفسا وتبتلعه وتنفثه حتى قالت:

ـ بس أنا خايفه عليكي يا أم سمير(اذ كانت قطعة اللحم قد تحولت في يوم وليلة الى سمير) . .

وأحست الأم بنغمشة حبيبة من نوع آخر تسري في نفسها ء نغمشة فرح واحساس بالمسئولية، تماما كتلك التي أحستها يوم أن اكتشفت لأول مرة وهي لا تزال بنتا انها أصبحت أنثى . ولهذا قالت في صوت واهن لم يكفها وهنه ولكنها أضافت اليه وهناً آخر دائما تتصنعه الوالدات :

ـ كفى الله الشر يا اختي . . ليه؟

فأجابت الداية وهي تنفخ نفس الدخان في ولعة السيجارة فتحمر الولعة كما يفعل عتاة المدخنين الرجال :

ـ بقى تبقي اسم النبي حارسك والدة . . وتخلي القطة قاعدة معاكي في بيت؟ . انتي مش عارفه ادلعدي يا اختي انها ولدت هيه رخره؟ .

ـ ولدت؟!

ـ أي والنبي يـا اختي . . لقيتها راقـده . . اسم النبي اسم النبي حارسك في وش العدو.

ـ والنبي آدي حد علمي . .

وأنـا يا ختي داخله من البـاب وألقاهـا راقدة رقـدة الندامـة في سبت الغسيل بتاعكو. . لأ يا ختي . . لازم تشوفولكم طـريقة . . انتي عايزة ولادها البعيدة، البعيدة عن البيت وصحابه، تكبسك؟ .

ـ يا نهار اسود. . طيب ادلعدي يا ختي يا تفسريش.

ـ دي مجربه من ايام حوا وآدم يا أم سمير(وكأنها بسـلامتها هي التي أشرفت على وضع أمنا حواء). . الله يعـافيها بـالعافيـه بقى بنت أخت ألفت هـانم عملتها . . وبعيـد بعيد عن البيت وصحـابه جـرالها اللي ما يجرى لعدو ولا لحبيب . .

تم هـذا الحديث في الصبـاح، وفي الـظهـر جـاء الأب من الخارج وقد قام بكل الاجراءات الواجبة التي يتخذها الوالد في أمثال هذه الحالات، فاقترض مبلغا محترمـا فك بـه ضائقتـه باسم الكـارثة التي حـدثت، وقام بـإبلاغ الخبـر الى كل الأهـل والأصدقـاء. وكـاد يوقف الناس في الشارع ويخبرهم انه رزق والحمد لله بمـولود ذكـر، وكذلك حصل على إجازة من عمله استطاع بها أن ينهي بعض المشاغل التي تراكمت عليه، وما كاد يضع قدمـه في الحجرة حتى فـوجىء بيا سيـدي أولاد القطة لا يمكن تقعـد في البيت، لماذا يـا ستي؟ الدايـة قالت كيت وكيت. يا ستي كله تخريف في تخريف. انا مالي! لا بـد

من إبعاد أولاد القطة حالاً. يا ستي ماليش دعوة.. أنا كوم وهم كوم يا أنا يا هم. حاضر يا ستي أمري إلى الله..

وقبل أن يختفي الأب لتنفيذ المهمة عن له أن يحيي القادم الجديد، فاقترب منه وأخذ يزغزغه باصبعه الكبير الخشن ويقول وهو يلعب حواجبه ويقوم بأنفه وفمه وعينيه بحركات بهلوانية:

ـ سما الله عليكي.. سما الله عليكي.. زقزق زقزق.. سما الله عليها.. توتو توتو توتو.. عوعو عوعو..

وكانت الأم تراقبه في ضيق وكأنه ينتزع منها شيئا يخصها، ولكن ماذا تقول؟ هو الأب على كل حال. ولكنها حين وجدت ان ابنها بدلا من ان يضحك أو يبتسم فتح فمه الصغير وضم ساعديه وانبعث منه صراخ لا ينبعث عن بالغين، دفعت يد الأب في عنف وضمت الولد اليها وأخرجت «حلمتها» بحركة تلقائية، وفرضتها على فم الصغير فرضا وهي تقول:

ـ امشي يا بعبع.. تعالى يا حبيبي.. تعالى يا ضنايا.. تعالى يا حتة من كبدة قلب أمك يا خويا..

ولدهشة الأب سكت الولد قليل الأدب، بل اندفع يتلوى جذلا كالدودة الصغيرة وهو يمص الثدي بصوت مسموع..

وخرج الأب من الحجرة كالبعبع المكسور الخاطر.

* * *

وبحث عن القـطة كثيراً إذ لم يكن يـدري أين سبت الغسيـل، بـل هو بصـراحة لم يكن يـدري في أعقاب ذلـك الميـلاد وجهـه من قفاه. وكان لا يمكن أن يجدها لولا المواء الخـافت الذي جـاء فدلـه على السبت والقطة. ووجد الماكرة راقدة في تلافيف المربس ووقف يـراقبها من عـل. كـانت نـائمـة على جنبهـا تكـاد تبـدو بلونهـا البني المـطعم بالأسـود كفستان مكـور من فساتين امـرأتـه، وكـانت تصنـع برقدتها قوساً يكسوه من الداخل شعر بطنها الأبيض النظيف، ويحفـل التجـويف الذي يصنعـه القوس بثـلاث قـطط صغـار. كـانـوا صغاراً جداً. . حلوين وكأنهم لعب أطفال مصنوعة من قطط حية.

وكـان من الممكن ألا يقف الأب هكذا طـويـلاً يـراقب القـطة وأولادها، ولكنه لم يـدر السر الـذي جعله يقف جامـداً هكذا يـراقب هـذه الكتلة الحية المكـومة في جـانب من السبت. كان أولاد القـطة يتناوبون الرضاعة ولا يكفون عن الحركة. ويدفع الواحد منهم الآخـر بـرأس مغمض ليـأخـذ نـوبتجيتـه على الشـدي الصغيـر، حتى إذا مـا اكتشفت أن أخاه قد شطب عليه انتقل إلى ثدي آخر وأعمل فيـه فمه الأحمر الدقيق. .

وكانت الأم متكئة على مـا يجاورهـا من ملابس تـراقب الأولاد بعيـون وسنانـة نصف مفتوحـة، وشواربهـا مهدلـة على جـانبي فمهـا غبـطة، وكان يبـدو انها في قمـة السعادة. وكـانت أحيـانـا تبقى على وضعهـا ذاك، وأحيـانـا تنقـل رأسهـا فقط دون جـذعهـا وتـدفنـه بين أولادها، فيصبح وكأنه قطة رابعة هو الآخر، وأحيـانا تلعقهم بلسـانها

النظيف، وأحيانا تدفع الواحد منهم عن ثديها في رفق لتعطي الفرصة لآخر. .

كان الرجل واقفا فوق رأسها في وضع لا تراه فيه. واقفا وقد ذهب عنه التحفز الذي جاء به، وتراخت ذاكرته وذكرياته وتعددت ألوان القطة في عينيه وتاهت. لم تكن القطة هكذا يوم جاءت. كانت شاحبة عجفاء يوم جاءت! لقد استيقظوا يومها فوجدوا في المطبخ كارثة. . كانت امرأته قد أبقت حلة الطبيخ مكشوفة بعد أن غلتها حتى لا تحمض، واذا بهم يفاجأون بحدثين خطيرين. . اختفاء قطع اللحم التي كانت في الحلة كلها، ومواء قطة في الشقة.

ويومها أمسكت امرأته فردة القبقاب وظلت مدة طويلة تحكم النيشان ثم قذفت بالفردة. . ولولا أن القطة تحركت في الوقت المناسب لكانت قد أصبحت في ذمة التاريخ. . ذي الذمة الواسعة. وظلت بعد هذا تتحرك وتزوغ بطريقة لولبية من كل الفرد والمداسات وقطع الأخشاب والزجاجات وأيدي المقشات، وأثبتت بهذا أن القطط ليس لها سبعة ارواح، وإنما لها روح واحدة طويلة مصنوعة من مطاط يلين ولكنه لا ينقطع.

والمثل يقول: ما محبة الا بعد عداوة. وهكذا وحين لم تفلح الزوجة في اصابة القطة أو اجلائها عن الشقة التي وجدت فيها كل تلك الكمية من اللحم، سلمت امرها لله واتخذت الاحتياطات اللازمة لتأمين الطعام. ثم ما لبثت أن أدركت أن صراصير المنزل

تتناقص باستمرار، وأن الفأر المرعب الذي كان يطلع ويبصبص لها بذنبه قد اختفى، وحينئذ ادركت أن لون القطة جميل وشعرها ناعم، واذا شبعت أصبحت لطيفة مؤدبة بنت حلال دمها زي الشربات. وحينئذ، وحينئذ فقط أنعمت عليها الزوجة باسمها وصارت معها مثل اللبن على العسل. أنيسة عيب، أنيسة اطلعي بره، أنيسة عمى في عينيك. بل انها أحيانا كانت تشكو لها متاعبها وتأخذ رأيها في كثير من المشاكل. والحقيقة أن أنيسة أثبتت في كثير من الأحيان أن لها نظراً بعيداً، على الأقل أبعد من نظر الزوج. .

والذي حدث أن أنيسة شحمت ولحمت وصارت حلوة على مر الأيام، ولا بد أن جودة طعامهم كانت هي السبب، ومع مقدم الدفء والربيع بدأت أنيسة تكثر من حك نفسها في الزوج وأحيانا في الزوجة وتكثر من الأزيز والسرحان. ثم جاء اليوم الذي بدأت فيه تموء مواء غريبا عجيبا يكاد ينطق ويقول: داوود. . داوود. .

ان الرجل يذكر هذه الآونة تماما. . فامرأته هي الأخرى لم يرها أجمل ولا أروع مما رآها في تلك الأيام. . كانت خدودها الشاحبة قد أصبح فيها خوخ وتفاح، وعيونها امتلأت بأشياء وأشياء، وهي كلها قد حدث فيها حادث غيرها وحلاها وجعل منها سنيورة جديدة في نظره. ولكن العجيب انه بالقدر الذي احلوت به ملامحها فسدت طباعها. . المشاحنات أصبحت لا تنقطع، وثمة غيرة جديدة طرأت عليها لم يكن يدري من أين جاءت، وكان يأتيها المرض الشهري قبل ذلك وهو لا يكاد يحس به، فاذا به أصبح لا يجيئها الا

وهي راقدة تتلوى وتتأوه. فاذا أفاقت من المرض ظلت تذكره، واذا غاب عنها ذكره اختلقت شجارا، وخاصمته وتبغددت وهي تصالحه، وأكثرت من شروط الصلح. ثم حكاية وجع ظهرها الذي كان لا يلازمها الا في أوقات معينة، ولا يحلو لها الشكوى منه الا في الليل، في عز الليل وهو نائم، تظل تشكو بصوت مسموع وتتباكى من الألم حتى يستيقظ، فاذا تناوم جذبت من فوقه الغطاء لتسند به ظهرها الموجوع.

بالضبط انه يذكر تلك الأيام التي بدأ فيها مواء القطة وعواؤها، اذ طالما صحا من نومه على داووود وهي تجلجل في سكون الليل. وكانت امرأته تصحو هي الأخرى اذا لم تكن صاحية، ويتأملان النداء ويلعنانه كثيرا ثم يناقشانه في خجل، ويتفقان على انها لعوب تجأر في طلب الذكر، ويدلفان أخيرا الى سجال أكثر امتاعا يهيجه العواء الأنثوي الذي لا ينقطع..

وما أكثر ما جره العواء من متاعب، اذ استجاب له ـ لسوء الحظ أكثر من ذكر. وكانوا ـ لسوء الحظ أيضا ـ كثيرا ما يقبلون في وقت واحد وتقوم المعارك.. معارك حادة لا رحمة فيها ولا هوادة كثيرا ما أفسدت ضجتها النقاش الآخر الذي كان يدور بين الرجل وامرأته..

والأدهى من ذلك أن المعركة وصلت ذات يوم الى الحجرة

التي يناماں فيهـا، ووصلت في لحظة حـاسمة من لحـظات النقاش. وكف الـزوج عن الجـدل في الحـال وراح يشخط ويهـدر في القـطة وصاحبيها. واكتفى بالشخط من بعيد لبعيـد فالقـطان كانـا غريبين لم يرهما قبل ذلك وفي عيونهما شر مستطير، وكان الـواحد منهمـا يزعق في الآخر فيقابل الآخر زعيقه بزمجرة لا تقل عنهـا قسوة، يعني حـالة يستحسن فيها الابتعاد قدر الطاقـة عن أرض المعركـة. وكانت أنيسـة واقفة ترقب العراك بعينين فيهما تهافت وحور. . وكلما آذنت المعركة بـالانتهاء ارتفـع صوتهـا الأخنف داووود. . داوووود. وتستعـر نيـران المعركة من جديد. والغريب انها كانت مثل المعارك التي تنشب بين المصريين. . كل قط واقف بعيدا عن الآخر يرعد فيه ويلعن سنسفيل أجداده، ويحاول اخافته وإرسـاء الرعب في قلبـه ليتراجـع فيظفـر هو دون اراقة قطـرة دم، والطيب أحسن! ولكن حدث أن تطور أحدهمـا على الآخر. وهذا الذي تطور كان يبدو أصغر من الآخر سنا فاقتـرب من العجوز وقذفه بصرخة مرعبـة، ولم يتراجـع العجوز وكـأنما أدرك بحكمته ان المسألة تهويش لا أكثر ولا أقل. وحينئذ فقد صغير السن والخبرة أعصابه ورفع كفه الأمامية وأهوى بها على وجه غريمه هكـذا بسرعة متهورة غاضبة. وما كـان من العجوز إلا أن كف عن الصـراخ في الحال وحدق في ضاربه برهة، ثم ألقى عليه نظرة احتقـار هائلة، واستدار في عظمة نمر وغادر الحجر وكاد يصفق الباب خلفه.

وتحركت أنيسة، واقتربت من المنتصر وحكت كتفها في كتفه قائلة

بصوت خافت آثم: داوووود. وغمغم القط في وقار الفائز كأنما يقول لها: صبرك بالله يا وليه أما القط نفسي.

وكان الزوج في وحدته البعيدة مع امرأته، كلما شهد معركة كتلك يحمد الله على ان امرأته انسانة تزوجها بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، وحجزها لنفسه بقسيمة. وليست قطة كان عليه الفوز بها ان يصارع الذكور الآخرين ويموت قلبه من الرعب في كل مرة، وقد تناله صفعات الجيل الجديد.

ومع كر الأيام جاء اليوم الذي عاد فيه السلام الى البيت، فانقطعت أرجل الذكور وانقطع مواء أنيسة وانقطع الوجع الظهري والخلافات المزعومة، وكذلك انقطع المرض الشهري وحملت زوجته.

وابتسم الرجل والتاريخ يوقفه عند تلك الأيام، لعله اعتقد لحظتها أن أنيسة وداوودها كانا السبب في سمير أو على الأقل عجلا بقدومه. فبعدما انتفخ بطن انيسة، وبدأت زوجته تتوحم وتطلب النادر.. ثم وضعت أنيسة أربعة قطط جميلة احتكرت امرأته تفريقها على أقاربها، ثم بدأت أنيسة تعوي مرة أخرى، وانتفخ بطنها وها هي ذي تلد للمرة الثانية، وتجيء هذه المرة قبل ولادة سمير بأيام.

وفي النهاية كان لا بد أن يمد يده ويتناول القطط الصغار وينفذ المهمة.

وحدث فعلا أن مدها ، ولكنه جذبها بسرعة وقد أصابته لسعة

طويلة حادة فوق ظهر يده تفجر على أثرها الدم. وبهت الرجل كمن طعن. ونظر الى انيسة نظرة المروع المستنكر. كان هذا آخر ما يتوقعه منها بها اليفة أنيسة..

وما أن مرت الصدمة حتى امتلأ قلبه بغضب جامح، وكأنما استنكر على القطة ان تخدعه بذلك الهدوء المزيف ثم تنشب أظافرها فيه. وانشب عينيه فيها وكلها غضب.. وكان في عينيه خوف أيضا، فأنيسة كانت قد انتفضت واقفة ووقفت كل شعرة في فروتها، وانتصبت شواربها المتهدلة، واكتسى وجهها تعبيرا بشعا مخيفا.

وليس هذا كل شيء، فافظع ما في الأمر كانت عيونها.. أجل عيونها، فقد خيل اليه ان وجهها يحفل لا بزوج من العينين المتنمرتين الواسعتي الحدقات، وانما بعشرات من العيون كلها مفتوحة على آخرها وكلها تبرق وتلمع وتتملظ ولا تبشر بأي خير.

واسقط في يده.

كانت القطط الصغيرة قد اندست بطريقة ما تحت بطن أمها وكفت عن الرضاعة، وانكمشت على نفسها وكأنها استشعرت الخطر. وكان الوصول إليها دونه تلك الأم المخيفة ذات الآلاف فن المخالب والعيون والأسنان.

ولم ينشب الرجل عينيه فيها طويلا، لا عن فروغ بال وانما عن خوف. ان التحفز ولو كان من قطة يخيف. خوف حقيقي أصابه من العينين.. هاتان البليتان الصغيرتان الخضراوان كانتا قد التهبتا

وانـطلقت منهما شعـاعات لا تـرى وانما تـرسـل الـرعـدة في أشجـع الرجال.

دلدل الرجل ناظريه ولم يملك الا أن يبتسم، فقـد واتته ـ دون ان يدري ـ صورة أنيسة الحائرة على نفسها الـطرية كـالخرقـة المبتلة وهي تجأر في استغاثة خنفاء قـائلة.. داوويد.. داووويد.. أجل.. شتان بينها ساعتذاك وبينها الآن!

واستأنف الهجوم. ولكنه ما لبث ان تـراجع حـالا اذ ما كـادت تراه يقترب حتى قالت: نو! ولـم تـك ناواً عـادية ابـدا، خيل اليـه ان جسمهـا كله قد استحـال الى صفارة انـذار اطلقت ناواً حـادة راجفـة حـامية تقشعـر لهولهـا الأبدان. وفي نفس الـوقت اندفـع الى وجههـا سيال لافح من الانفعالات اخرج حمما من عينيها، وكهرب شواربها، وأبرز اسنانها فبدا فمها كفوهة حية ضخمة من نوع الكوبرا.

ودق قلب الرجل.

دق مرات من الخوف.

ومرات أخرى حين تذكر ان عليه الا يخاف.

وجمد قلبه.

واشمعنى هوه يعني؟

ان له حنجرة هو الآخر.

وأطلق من حنجرته صوتا عاليا.

امشي!

وزأرت أنيسة.

واختلطت ناو ناو وامشي. هو يشخط وهي تزأر وكلاهما ثـابت في مكانه لا يريم.

وأعمل الرجل عقله.

وهكذا جاءت المقشة.. ومدها على قدر ما استطاع ودفعها في وجه انيسة. وتراجعت القطة الى الوراء وهي تزأر زئيرا متصلا ترتعش له طبلة اذن الأصم.

ولكنها لم تغادر السبت أبدا.

وكـان لا بد ممـا ليس منه بـد.. ورفع الـرجل المقشـة وأهوى بها. وقفزت أنيسة جانبا فلم تصبها الضربة ولكنها انقضت على رأس المقشة وضبعت فيها بأظافرها. وما كاد يحاول إعادة الكرة حتى كانت اسبق منه، وحتى بادرته قافزة ناحيته صارخة صرخة متوحشـة لا تمت أبدا الى أنيسة ولا الى القطط أجمعين.

وبلا وعي قفز هو الآخر متراجعا، قفـز بشكل لا يمت اليـه ولا الى الجنس البشـري كله، اذ في قفزتين اثنتين كـان قد عبـر الصالـة وفتح باب الحجرة التي ترقد فيها زوجته واستقر بجوار فراشها يلهث.

ـ خير كفى الله الشر.

وكـان لها كـل الحق، فقميصه مفتـوح وعرقـه يسيـل ونـظراتـه

زائغة والشحوب قد غمر وجهه.

وحاول أن يرد، ولكنه كف عن المحاولة اذ ماذا يقول؟

كل ما قاله كان «ولا حاجة». . قالها وهو يعود خارجا باحتراس شديد ويتفقد الصالة ليطمئن، ويطمئن، فأنيسة كانت قد عادت إلى السبت وأمسكت بواحد من أولادها بين أنيابها.

أه.. تريد بلا ريب أن تحمل أولادها وتهاجر الى مخبأ آخر. ولكن حيلك يا ست أنيسة.

كانت المقشة في مكان بعيد عن خط النار، فتناولها من جديد ولجأ الى الحيلة فرفعها وأهوى بها، وحين قفزت أنيسة بعيدا عن السبت مد المقشة وظل يجذبه وهي واقفة في مكانها تصرخ حتى أصبح في متناول يده.. وحينئذ تناول القطط الثلاثة واحتواهم بين كفيه..

وكان يتوقع مثلا أن تقفز عليه وتشبعه خربشة وعضا، أو تنهش وجهه وتدمي عينيه، وكان قد جهز نفسه لكل ذلك.

ولكنها ظلت واقفة في مكانها بنفس تحفزها تصرخ وتنكمش على نفسها وتنقبض، وتكاد لا تدري ماذا تفعل.

ووقف الرجل أيضا لا يدري ماذا يفعل.

كان خائفا ان يتحرك فتتحرك وتنقض.

وتحرك ببطء أول الأمر.

ولم تغادر أنيسة مكانها حتى حين وصل الى الباب وخرج.

ماذا حدث؟

ألا تدري الغبية أنه قد أخذ أولادها؟

أم أنها خافت؟

أو هي تدافع عنهم فقط اذا كانوا في حوزتها تحسهم بشعراتها، وتلمسهم بلسانها، حتى اذا ما صاروا في حوزة الغير أصبحت المسألة اعقد من ان تستطيع حلها؟

وهل هي تستطيع الدفاع فقط ولكنها لا تستطيع الأخذ عنوة أو الاغتصاب؟

وهل الدفاع هو الغريزة الأصيلة، والاغتصاب هو التفكير الشاذ الذي يحتاج الى تدبير وتفكير وغدر؟

قد تكون اسئلة مثل تلك قد دارت في عقل الرجل وهو يغادر البيت، وقد لا تكون قد خطرت له بالمرة. في تلك الأثناء كان يستمتع بلذة الانتصار فقط.. وحين لاحت له مشكلة التخلص من القطط وهو سكران بخمرة النصر ومغرور، وجد حلها امرا سهلا فما عليه سوى القائهم في اية حارة.

وأسكت الانتصار غروره وحين هدأ قليلا وأذهب عنه خمر الغرور بعض الجوع للثقة في نفسه، جاءته الانسانية. وقرر أن يهبهم

لبعض جيرانه. قد تكون حلولا مثل تلك قد دارت في عقل الرجل وهو يغادر المنزل.

* * *

ـ خلاص يا ستي ولا تحملي هم.

ولم يفت الزوجة وهي تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو من الألم والوهن.

ولم يفته وهو يروي لها تفاصيل المعركة أن يبالغ.. قليلا أول الأمر، ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا ساق فيها وفتح باب المبالغة على مصراعيه..

وظنا ان المتاعب قد انتهت عند هذا الحد.

ولكنهما قضيا أتعس ليلة.

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع.. ناو.. ناو. ـ ناو..

كان الصوت غاضبا أول الأمر، قصيرا رفيعا كالسكين الحادة حين تقطع في الجسد.

وكلما امتد الظلام والسكون كان الصوت هو الآخر يمتد ويطول.. ناو.. ناو.. ناو.

ولم يعد الرجل يحتمل. اقتحم الصالة خارجا ورمى أنيسة التي كانت تروح وتجيء ولا تكف عن النونوة لحظة.. رماها بفردة

الحـذاء، ولـم تحاول هي ان تتجنب القـذيفـة فـأصـابتهـا وأوقعتهـا، وقامت واستأنفت غدوها ورواحها ولـم تسكت، بل أضيفت الى النـاو نغمة جعلتها تبدو أكثر حـزنا ووقعهـا يبدو أكثـر مرارة، كمـا لو كـانت السكين التي تقطع في الجسد قد تلمت حافتها فأصبح صوتهـا بطيئـا قاسيا له أزيز وأنين.

وبـدأ الصوت يتغيـر ويتبـدل. . ويصيـح آي. آي منفـردة وآي متصلة طويلة تكاد تنطق مخارجها وتتجسد حـروفها. . آهـات حقيقية كأنها متصاعدة من صدر آدمي ممزق.

ولـم يكن في استطاعة الـرجل ان يفعـل شيئا. الحـذاء ورماهـا بـه، وصوتـه قد بـح من الكش فيهـا ومطاردتهـا. كـان عليـه فقط ان يستلقي على الكنبـة ويستمع الى امتعـاضات امـرأته وتعليقـاتهـا على نباح القطة. .

وقالت له الزوجة بغتة في الظلام.

ـ أبو سمير.

ـ مالك؟!

ـ أنا خايفه.

ـ ليه يا ستي؟

ـ القطة. . دي بتبكي زي البني آدمين.

فقال ليفحمها:

ـ شورتك.

فأجابت:

ـ امال يعني عايز الولد يموت.. عايزني انكبس.. آه يا ميلة بختي!

وانطلقت تئن وتتوجع، ثم سكتت طويلا حتى خيل اليه انها نامت ولكنها قالت فجأة:

ـ أبو سمير.

ـ مالك؟

ـ تروح تجيب لها أولادها.

فأجاب الرجل في غيظ:

ـ انتي عايزه الولد يموت. ثم أجيبهم ازاي دلوقتي؟

وحل سكون آخر ختمته الزوجة بمفاجأة، اذ راحت تنهنه وتبكي. وأصبحت القطة تئن في الخارج وتعوي، وهي تبكي وتستجيب وتعدد.

* * *

وفي الصباح كان العواء قد خبا، ووجدوها ملفوفة على نفسها في الصالة نائمة على البلاط الرطب. وقدموا لها الطعام فلم تتحرك لها شعرة. واشتروا لها نصف رطل من اللبن لأول مرة فلم تعره أنيسة

أي التفات. بقيت مغلقة عينيها لا ترى ولا تحس، تزوم وتئز وتحيا في سكوت ذاهل آخر.

ومضت ايام . .

تحركت أنيسة وطلبت الطعام بنفسها، وعادت تصطاد الصراصير وتغتالهم. ثم بدأت صداقة غريبة بينها وبين الرضيع. لا يدري أحد كيف اكتشفته، فقط لاحظت الأم انها تفضل النوم بجواره في الليل، فاذا أصبح الصباح داعبته. . أحيانا تضع بوزها فوق قدمه، وأحيانا تفتح فمها وتكاد تقضم اصبعه الكبير(كده وكده). ثم تقوس ظهرها وتلعب ذيلها وتحك شعرها في وجهه. وكان الرضيع يصرخ أول الأمر ويستغيث، وكانت الأم تصرخ هي الأخرى مخافة ان يقتل هذا العبث(بطريقة ما) ابنها. ولكن الرضيع وأمه أدركا أخيرا ان الأمر لا يتعدى حدود المداعبات البريئة.

ولم يستمر الوضع هكذا فقد مرض الطفل. وحاولت الداية علاجه والداية لا تكتفي بتوليد الأطفال وانما هي تعالجهم بعد مولدهم وترعاهم، وتطاهرهم حين يكبرون، ثم تخطب لهم وتزوجهم اذا شبوا، وأحيانا هي التي(تلتمهم) وتغلق عيونهم اذا واتاهم الأجل المحتوم. حاولت الداية علاجه ولم ينفع علاجها، وزادت شدة المرض. وفي طابور الأمهات المنتظرات أمام شباك التذاكر في مستشفى(رعاية الطفل) مات الطفل.

وانقلبت الشقة الى مأتم، وجاء المعزون أقارب وأصدقاء

وعمات وخالات وأشكالا وألوانا. ولبست الأم السواد وتعصبت بمنديل.

وجلس الأب بعد ان فرت من عينيه بعض الدموع. . جلس في وقار يتلقى التعازي ويحكي قصة المرض والوفاة ألف مرة، ويستمع إلى الدنيا على دي الحال، وشد حيلك، وقالوا يا جحا عد موج البحر، قال الجيات أكثر من الرايحات، ويا اخي انت شباب شم نفسك، وهات لنا عشره.

وخرب المرض بيت الرجل، وجاء المعزون فقضوا على ما تبقى فيه من بن وسكر وملاليم.

وبعد ان انصرف الجميع جاء الزوج ليرقد بجوار زوجته على السرير وقد انتهى عهد الكنبة، وبكت الزوجة وشهقت من اجل هذا المجيء. وحين جاءت أنيسة كالعادة تتلصص لترقد بجوار الطفل تشبثت بها الأم وظلت تعوي وتبكي وتتساقط دموعها على أنيسة التي أخذت هي الأخرى تنونو نونوات خافتات.

وهدهد الزوج. . وغالت الأم. . ثم كفت. ودار حديث، الأم تقول ان ابنها مات من الكبسة. فقد مكث أولاد أنيسة يوما بطوله بعد الميلاد تمت اثنائه عملية الكبس وطار الولد. والأب يقول. . أبدا، السبب مستشفيات الحكومة والاهمال. لو كان عندنا فلوس كنا رحنا لحكيم متخصص في الأطفال، السبب الفقر، الله يلعن أبو الفقر.

وجادلت الزوجة وبكت. وحينئذ قال الزوج. . قسمة ونصيب

هو المكتوب. الأعمار بيد الله.

وغـالت الأم وجادلت، فقـال الأب وقـد تـروحن. . هـو الحي البـاقي، هـو المعـز المـذل القـادر، الأطفـال لهم الجنـة ونحن لنـا الجحيم. أجسامنا قد صنعت من المعاصي. لنا النار والعـذاب ولهم الجنات والخلد. ليتنا متنا ونحن أطفال! ليتنا متنا وكنا ترابا!

وفي الصباح كان الأب جوعان، ولو كان الود وده لأكل. ولكن الأم رفضت أن تلمس الطعام حين ألح عليها، ولم يتنـاول هو الآخـر الافطار اذ لا يصح أن يبدو أقل منها حزنا.

وحين عاد في الظهر كانت تبكي، وفي العصر تثاءبت ونـامت، وفي المغرب كان عندها صداع.

* * *

ومرت أيام وأكلت الأم، ولكن الحياة لم تعد كمـا كانت. ظـل البيت يسوده الوجوم وتهب عليه نوبات نواح ذكرى الولد في الحديث العابر.

وكان الشتاء قد مضى وبدأ الـدفء يحل. وفـوجيء الأب ذات ليلة بصوت أنيسة يلعلع في ظلام الشقة. . داووود. . داووود. .

واستمر العواء أياما.

وبعد وفاة الولد كانت الأم تشكو من الصـداع الذي ينتـابها بين الحين والحين.

ثم بدأ الصداع يزحف الى أسفل ويصيب الرقبة وفقرات الصدر، وما كادت الزوجة تمد يدها ذات ليلة وتجذب الغطاء من فوقه لتسند به الظهر الذي بدأ الوجع ينتابه، حتى تنبه الرجل تماما وصحا ولم ينم.

وهكذا لم تستمر مطالبات الزوجة بالفستان الحرير للصيف طويلا، ولا المناكفات أو المهاترات، اذ سرعان ما جاء اليوم الذي عاد فيه الهدوء الى البيت فانقطعت أرجل الذكور، وانقطع عواء أنيسة، وانقطع الوجع الظهري والمطالبات التي لا تنتهي.

وكذلك انقطع المرض الشهري . .

مارش الغروب

كـانت الصاجـات تخرج صـاخبة زاعقـة وعلى دفعات كهـديـر الـديك الـرومي، وكنت تستـطيـع أن تسمعهـا من بعيـد حتى اذا مـا وصلت الى كـوبرى شبـرا البلد عثرت على مصـدرهـا. . على بـائـع العرقسوس.

كـان الرجـل مسنا كمعـظم بـائعي العرقسوس ويـرتـدي زيهم التقليدي. . فوطة حمراء قديمة نظيفة لفها حول وسـطه، وفانلة بمبـة بأكمام، ولا شيء غير هذا يستر الجسد خـلا السروال الـطويل الـذي يترك الساقين عاريتين.

وكان للبائع لحية طـويلة ولكنه لم يكن سنيـا، كان واضحـا انه يطلق لحيته كنوع من عياقة الكبار، أو لإحاطة نفسه برهبة مصطنعـة، أو على أقل تقدير ليوفر ثمن حلاقتها كل يوم كل يوم.

كان واقفا في وسط الكوبري تماما وهو وإبريقـه يكادان يسـدان الطريق، فالابريق كان ضخما قديما وكأنه هو الآخر عجوز مقعد كتب على البائع أن يحمله فوق صدره مـدى الحياة، وكـانت له بـوز رفيعة

ممتدة وملتوية عند آخرها وكأنها يـد العجوز التي عـوجها الشلل حين تمتد لتستجدي .

وكانت يدا الرجل مـدلاتين خلفه ويـده اليمنى لا تكف عن دق الصاجات، ويخرج صوتها له ضجة وصراخ. وكان يدق على دفعـات كل دفعة دقتين متتاليتين ثم يصمت برهة، ويعود الى الـدق ويقول«يـا منعنش» وكان ينطق منعنش بلهجة لا نعنشة فيها ولا حماس، فالدنيـا كـانت شتاء، والشمس غـابت من هنيهة، والكـون يعبق بذلـك الجو المـريض الـذي يتبـع مغـرب الشمس ويسبق حلول الـظلام. وكـان الناس يمضون فوق الكوبرى صامتين مسـرعين. . في اسراعهم كـآبة يوم يموت، وبرودة شتاء.

كـان الناس يمضـون ولا أحـد يلتفت الى البـائـع أو تستـرعيـه دقاته، فالدنيا شتاء، ومن يشرب عرقسوسا في الشتـاء؟!. . من يفكر حتى في فتح فمه أو التلكؤ لأخذ شفطة؟!

ورغم هذا استمرت الصاجات تعمل وتهدر بزعيقها المتـوالي، وكلما حدق البائع في الكون ورأى الناس يختفون من حوله ويتسربون وكـأنما تبتلعهم مخـابىء سريـة. . وكلما رأى الجـرح المدمم الـذي أحدثته الشمس الغائبة في السماء حين اخترقتها الى عالم الـظلام. . كلما رأى هذا قصرت المسافة بين الدقات وأصبح صوتها أعلى وأكثر حـدة، وانطلقت حنجـرته تعضـد الدقـات وتقول يـا منعنش، تقولهـا حنجرتها متقلصة مثنية على نفسها وكأنما انحنت تستخلص «منعنش»

وهي عاصية في قاع حنجرته لا تريد أن تخرج، فالابريق كان لا يزال راقداً فوق صدره كالمصيبة الثقيلة، ولا يزال ممتلئاً وكل ما باعه منذ الصباح كان لم يتعد بضعة قراريط لا توقد مصباحاً ولا تغمس لقمة.

والدقائق تمضي بسرعة، والوقت يتسرب تسرب الناس كأنما أصابه البرد هو الآخر.

وتدق الصاجات عالية صاخبة هستيرية تريد أن تتحدى وتستوقف الأسماع، والظلام يتكاثر وتصبح له دنيا كبيرة، وبرد السماء يطبق على الأرض، والناس يصغرون ويصغرون، وكل شيء تصبغه رمادية زرقاء ويبرد ويصبح لا حياة فيه. وتزأر الحنجرة يا منعنش، وتخرج منعنش حادة تكمل صخب الدقات، وبين كل آن وآن يقول: يا كريم سترك. ويمد الكاف وكأنه يصنع منها حبلا رفيعا يمده فوق الكوبرى ليوقف الناس، ويتبعها بسترك مقتضبة خارجة من الصدر وكأنما يسترضي الناس بعد هديره ويصالحهم بها.

والناس رائحة غادية، ميتانة، سقعانة، ناشفة، وجوههم شاحبة فيها غضون، وعيونهم ذابلة فيها شتاء، ولا يريد أحد ـ رغم وجوده في وسط الكوبرى ـ أن يلقي عليه نظرة.

وأطلق الرجل يا منعنش وأتبعها بيا كريم سترك، أطلقهما عاليتين صاخبتين مدويتين كاستغاثات أخيرة لسفينة تغرق.

وأيضا لم يلتفت أحد.

والوقت يمضي، والمارة يقلون، والسماء تزداد إطباقاً على الأرض، وعالم الظلام يكبر ويكبر، والجرح الذي في السماء يلتئم وتذهب حمرته وشفقه، والناس يتحولون من كائنات الى أشباح.

وبدأت دقات الصاجات تنخفض، ولم يعد الرجل يقول يا منعنش، كان فقط يردد يا كريم سترك. وكان يقول يا كريم متضرعا، يقولها لكل شيء حوله، للأرض والسماء وعربات النقل والكارو، وحتى لصاحب الغرزة الجالس هو الآخر يرتعش ويستعد للرحيل.

وكان ما في صوته من ضراعة ينتقل الى نحاس الصاجات فتخرج الدقات متتابعة نغم، وعلى دفعات، ولكن فيها بحة، وكأنه يريد أن يرجو الناس فقط أن ينظروا اليه.. فقط ينظرون اليه ولا يشترون. لماذا يزورون عنه ويشيحون بوجوههم يتهربون وكأنهم يفرون من واجب ثقيل؟ ماذا عليهم لو فقط يلتفتون؟

ولم تفلح الدقات ولا أفلح النداء في جلب نظرة.

وهنا كست وجه العجوز تكشيرة طيبة فيها يأس، وتهدل حاجباه فوق عينيه في عتاب صامت. وكانت يداه لا تزالان مدلاتين خلفه ولكن الدقات همدت حدتها وتباعدت وأصبحت كدقات قلب المشرف على الموت، تسكت طويلا ثم تبرق فجأة وكأنها تقاوم الفناء. وبين الحين والحين يلقي الرجل نظرة على القراريط التي باعها وآلاف القراريط التي لم يبعها، ثم يتمتم من بين شفتين ترتجفان بالبرد: يا كريم سترك.

وظل الرجل واقفا هكذا وكأنما ينتظر شيئا ما، معجزة تحدث وتفرغ الابريق وتملأ جيبه. ثم خفت القدم، وخطا الكوبرى عله يرزق. ولم يرزق، ووقف على جانب يحدق في الأرض والسماء والأضواء البعيدة والقريبة. . ولا شيء يحدث ولا معجزة تهبط.

وهبط عليه يأس كامل فارتفع حاجباه المتهدلان، ومضت التكشيرة الى غير رجعة، وانبسطت ملامحه، وبدأت الدقات المتباعدة تتقارب وتتآلف، ولكنها اتخذت طابعا غريبا. . فلم يكن لها ضجة الهدير المتتالي الذي يشبه صراخ الأوزة المذعورة. تآلفت الدقات وصنعت نغمة أخرى. . نغمة خافتة راقصة حزينة. ظل الرجل يدق بيديه دون وعي، وتخرج النغمة دون وعي أيضا، وتخرج هامسة تتستر بالظلام ولا أحد يسمعها، حتى فطن الرجل إلى ما تحدثه أصابعه فأنصت برهة وابتسم، ورفع حاجبيه وكأنما أعجبته النغمة وجاءته على الوجع فأوغل فيها، ومضى يضبطها ويحسنها وهو الخبير بدق الصاجات حتى استحالت الى همسات فيها بحة تخلع القلب وترهف الأنفاس. وأطربته النغمة الى الدرجة التي راح يهز رأسه هزات خفيفة وقورة على وقعها، ثم ما لبثت الاهتزاز أن وصل الى شعيرات ذقنه فأخذت تتأود وتتراقص.

وقف طويلا يرمق الناس والدنيا بلا مبالاة تامة، ويده اليمنى تهمس بالنحاس الى النحاس، والطرب قد وصل الى الابريق وبوزه فأخذ يرتعش هو الآخر ويتمايل، ولا أحد يسمع سواه، وهو منتش

لأن أحدا لا يسمع سواه ولا أحد يلتفت اليه، والنغم يخرج حنونا دامعا حلوا في سكون المساء.

ظل واقفاً إلى أن أحاله الظلام المتكاثر إلى شبح من الأشباح.

ثم بدأ الرجل يتحرك مروحا في اتجاه شبرا البلد.

تحرك بطيئا يائسا مثنيا الى الوراء، ويداه خلفه. والصاجات تدق وهو يتحرك على وقع نغمتها الهامسة، كل خطوة بهمسة.. همسة موجوعة ثكلى، وكل خطوة بدقة.. دقة ناعمة فيها شجن. ويذوب شبحه في الليل حتى يختفي تماما، ولا تعود الأذن تسمع سوى همس النحاس الى النحاس وهو ينخفض ويشف وينخفض.

والدنيا كبيرة كبيرة، والظلام كثير كثير.

ليلة صيف

العشـاء ولى، والتبن بارد وكـومته عـالية، والـدنيا ليـل. . ليـل مفضض، فهناك قمر عليه سحابـات كمناديـل الحبايب البيض تعـافيه بالعافية، وتمضي وبلدتنا راقدة، قريبة منا، كقنفـذ له أشـواك وأحزان وأشجار. وكنا نحن جالسين نتحدث ـ لا نفعـل كالكبـار ونخوض في متاعب النهار ـ كنـا نتحدث عن أنفسنـا. . كنا قـد بدأنـا نحس بشيء جارف عارم يتدفق في أجسامنا ويغيرها، ونحس بالتغييـر يحدث كـل يوم وكان ذلك يسعدنا ويدهشنا، ونردد ونحن فرحانين: احنا بلغنا. .

كنا لا نخوض في حديث المتاعب مع كثرة متاعبنا في النهـار، كنا نشقى كالرجال تمـاما، بـل في العادة أكثـر من الرجـال، فالكبـار دائمـا كسالى يعشقـون الظل ويتـركون لنـا الشمس، يرجـوننا أحيـانـا وأحيـانا أخـرى يأمـرون، ونحن في كلتا الحـالتين سعداء، فـالعمـل رجولة ونحنٍ ظامئون الى الرجولة، وأن نكلف به معناه أننا قد أصبحنا كبـارا يعتمد علينـا وأننا شبـاب، وأن لنا غـدا لا بد قـريبا نتـزوج فيه ونخش ويكـون لنا زفـة وليلة حنة. كنـا نعمل طـوال اليـوم كـالنحـل النشيط، ونـأكل كثيـرا. . نأكـل كـل مـا نعثـر عليـه في الغيط أو في

البيت، وأمهاتنا سعيدات يدركن بغريزتهن أننـا نكبر وأننـا في الطريق الى النضج، فيدسسن لنا قطع الجبن والبيض واللحم من وراء آبـائنا واخوتنا وكـأننا بط يزغطنه أو أوز. وكـانت أجسامنـا تستجيب وتشتعل وتنفض عنها صفرة طفولة طالت، وشحوب السنين العجـاف وما فيهـا من قصر، وتنمو. . تنمو بسرعة وكأنما تعوض في أيام كل ما فاتها من سنين. وكـانت وجوهنـا هي الأخرى تتغيـر، وتستديـر، وتـأخـذ لـون الأرض الخصبـة ذات الطمي، وتمتلىء سيقـاننا، وتبـرز حنـاجـرنـا، وتغلظ منا الأصوات.

كنا جالسين فوق كومـة التبن نغمغم ونحكي ونتحدث، والليـل يقشعر بأصواتنا وبما فيها من رجولة وافدة جديـدة، وأجسامنـا تنتفض بقوى لا تجعلنا نستقر، ولا تجعلنا نحلم كما يفعل الصغار، أو نكبتها في حكمة كما يكبت الكبار.

كنا نجلس، وفي الحقيقة لم نكن نجلس، كنا ندفن أنفسنا في كومة التبن وكأنما نود أن تلمسنا الدنيا ونلمسهـا، ويضغط التبن علينا فنستعذب ضغطاته. .

وكنا نتحدث. . كنـا نفرغ تلك الحمى المتـأججة في كـلامنا، وكنا نختار مجلسنا بعيدا عن البلدة وبعيـدا عن الناس، وكـأننا نحس بما يدور في خلدنا ونعتبره شيئاً قبيحاً لا يصـح، فنختار للخـوض فيه مكاناً بعيداً. .

ولم يكن حديثنا مـرتبا ولا منمقـا. . كان يبـدأ دون أن نعرف،

ونستمر فيه ساعات ونحن لا ندري عن أي شيء نحكي. كنا نتكلم والليل وحده يسمعنا، بل لولاه ما تكلمنا. كنا نحب أن يشهد الليل حديثنا، بل نكاد ونحن نتكلم نوجه إليه حديثنا. ونحب الليل.. نحبه وكأننا نرى في سواده وهدوئه وحنانه امرأة جميلة ذات نسمات ودم خفيف وسمرة أبنوسية تهيج كامن أعماقنا. ونكره النهار.. نكرهه وكأنه رجل خشن غليظ القلب والقول لا يرحمنا ولا يسمح لألسنتنا أن تدور.

كان الحديث يبدأ بالطول، كل منا يحاول أن يثبت للآخر أنه أطول منه. وتقوم بيننا المراهنات، ويدعي الخاسر ان في أعلى فخده ورما وألما ويريه للباقين، فيطمنه الباقون فالورم معناه طول جديد وعليه ألا يحزن. ثم ندلف الى الأحلام ونتفنن في رواية كيف حدثت، ثم نقارن بين الأصوات، ويمد كل منا يده ويتحسس حنجرته ويرى مقدار ما حدث فيها من بروز.

ثم يحوم الحديث حول النساء. وكانت نساء بلدنا كبيوتها سودا لا أرداف لهن ولا صدور أو شرفات. كن كالرجال أو هن أقرب.. كانت نساء البيوت البيضاء هن من يملأن علينا الحديث. وفي القرى بيوت سوداء كثيرة، وقليل من البيوت لها طلاء أبيض. ولا بد في كل بيت أبيض امرأة حلوة سهلة، والا لماذا خلقت دون النساء حلوة؟

وكان التبن يضج بحديثنا، ونهيج أحيانا ونقذف بعضنا بأحفنته ونثير العواصف، وينطلق منا من يعوي كالذئاب ويقول:

ـ روحوا يا ولاد!

ويخرسه الباقون لئلا يعثر علينا أحد ونحن لا نريد أن يطردنا من مجلسنا خفير أو كبير، اذ إننا نتفرق بعدها الى بيوتنا ويرقد الواحد منا فوق ظهر فرن، أو في(بحراية)، ويكظم وحدته وحيرته وضيقه بالعفاريت التي تكهرب جسده وتحرمه النوم. هنا فقط ـ ونحن جماعة ـ يخيل الينا أن العفاريت تسكن، وأننا حين نتحدث نرتاح، والحديث عذب حلو يا هوه، نريده ونطلبه وليس لنا سواه. .

وما كان لجماعتنا قيمة بغير محمد. كان أكبر منا وحائرا مثلنا، ولكنه كان أكثر منا خبرة. كان قد خرج من بلدنا وذهب الى البندر ويعمل فيه وله قصص ومغامرات. وكانت له بالنساء معرفة، وما من أحد فينا كان قد اطلع على النساء. كنا نراهن من بعيد ونخشاهن، ونتمناهن ويتملكنا خجل قاتل اذا انفرنا بهن. وكان محمد عزاءنا يقص علينا مغامراته بالتفاصيل ونرتشف ما يقوله رشفا. وكنا نحبه. . ونحب شاربه الخفيف الحديث، وكان في استطاعته أن يربي شعره فآباؤنا كانت تجتث شعورنا أولا بأول ولا حق لنا بعد نمرة تلاته. وكان لمحمد(قصة) صفراء يطليها أحيانا بالفازلين الذي يشحته من ناظر المحطة، وان لم يجد فبالزبدة، وكانت بقية رأسه قصيرة الشعر وكان يحلو له أن يلبس الطاقية الصوف ويرجعها الى الخلف فتظهر(قصته) ناعمة لامعة مسبسبة، ويحسب الرائي ان شعره كله لا بد ناعما لامعا مسبسبا. وكان بشفته العليا شق يجعل الانسان يعتقد أنه شرس ويكرهه، ولكنه لم يكن شرسا. كان يضحك كثيرا، ولا يغضب منا، ويطير وراءنا اذا ضحكنا عليه. وكان قمحيا لم تسوده

شمس الغيطان. كان يزرع، وذهب الى البندر مرة، وما أن تذوق عيشه وطعميته حتى أقسم الا يعود الى المحراث أبدا. وكان يخيل الينا ونحن جالسون معه أنه ليس من بلدنا، وأنه واحد من سكان المدينة المتنورين اللئام الناصحين الذين نرهبنم ونخشى أذاهم

وكان جريئا.. كنا نخاف الحرام جدا ولكنه طمأننا، وعلمنا كيف نملأ حجورنا بالتراب وندخل به منازلنا، ثم نرمي التراب ونملأ حجورنا بالغلة أو الأذرة أو القطن ونخرج فلا يشك فينا أحد.

وكان هو الذي يتولى بيع ما نجلبه، ويختصر من الثمن برضانا، ونشتري بالباقي حلاوة طحينية ويوسف أفندي وعصي خيزران نتقمع بها في الأسواق.

في تلك الليلة جلسنا، حفنة من أولاد بلدنا أرجلهم خشنة مشققة لا يزال يطمسها طين جاف، وملابسهم مهرأة، ووجوههم لا تكاد تعرف فيها الشعر الأصفر من الشعر الأسود من سمرة الجلد، وروائح العشاء تتصاعد من أفواههم.. بصل ومش وفلفل مخلل وسردين وكرات، والهدوء تام من حولنا، والقمح يغمرنا من كل جانب.. قمح واقف تموج به الغيطان ويتلون بحركة الريح وشعاعات القمر كما يتلون حرام من القطيفة البنية، وقمح محصود ومكوم في أكوام صغيرة متباعدة لها صفوف كصفوف مصلين راكعين في العراء يطلبون الرحمة، وقمح يدرس، وقمح مدروس ومدرى، وأكوام تبن وقصلية، ونورج واقف كجمل بارك وعليه (شبرية) عروس، ورائحة المحصول الجديد تملأ الجو وتختلط برائحة التراب بلله الندى،

ورائحة عشائنا وعرقنا الذي كان قد أصابه التحول هو الآخر وأصبحت له نكهة ذكرية خاصة.

وفي مثل تلك الليالي يحلو حديث محمد. كان صوته لا يتأرجح مثل أصواتنا، كانت رنة الرجولة فيه قد استقرت، وكانت طريقته في الرواية توقف الشعر، وبلاد كثيرة يحدثنا عنها.. بلاد قريبة رآها بعضنا وبلاد بعيدة ما رأيناها ولا نعتقد أن محمد هو الآخر رآها، بلاد لها أسماء غريبة ترن في آذاننا رنينا ولها في خواطرنا ألوان وأشكال وأفندية وسكك حديد.

كنا نبقي حديث محمد للآخر. نستهلك أولا كل ما يمكننا قوله عن بلدنا ونسائها، ونعيد ما قلناه، ويقص كل منا كيف نظرت له فلانة وكيف وقف يتبصص على علانة.

ثم نحلى بحديث محمد.

وعرفنا في تلك الليلة من بدايات حديثه أنه يود أن يحكي قصة المرأة العرباوية التي عرفها في السوق. فقاطعناه وصنعنا ضجة، كان قد بدأ يغالطنا ويحكي لنا أشياء رواها من قبل. وكنا نريد شيئا لم نسمعه اذ لم تعد تنطلي علينا مراوغاته. وكان محمد أحيانا يروغ ويحرن ونتذلل اليه ونستحلفه ونعده بالقمح والذرة والبيض، ولكنه في ليال كان يحرن تماما ولا ندري لسكوته سببا.

وقال لنا محمد وعيونه تبرق:

ـ اسمعوا يا ولاد؟

قلنا:

ـ ايه؟

قال:

ـ أقـول لكم على حاجـة حصلت لي بس أوعـوا تجيبـوا سيـرة لحد.

قلنا:

ـ مش ح نجيب سيرة لحد.

قال:

ـ تحلفوا على الربعة الشريفة؟

قلنا:

ـ وحياة الربعة الشريفة.

قال:

ـ والبخاري؟

ولم نكن نعـرف ما هـو البخاري، كـان لا ريب شيئا أعتى من المصحف.

فقلنا:

ـ وحياة البخاري.

قال:

ـ واللي يرجع في كلامه؟

قلنا:

ـ يبقى مرة.

قال:

ـ مرة وبس؟

قلنا:

ـ وابن ستين في سبعين.

قال:

ـ وحياة الشمسة الحرة؟

قلنا:

ـ وحياة الشمسة الحرة.

قال:

ـ كنت مرة رايح المنصورة في طلب.

قلنا:

ـ انت كداب.. انت عمرك رحت المنصورة؟..

قال:

ـ وحياة المصحف الشريف رحت.

وصدقنا ولم نملك أنفسنا ووحوحنا. الحكاية ستحدث في المنصورة؟ والمنصورة كانت لا تبعد عن بلدنا كثيرا. كان القليل منا هو الذي رآها وهو صغير، وكلنا سمعنا عنها، وكلها أسماع محمومة براقة تغشي وتذهل.

وكانت في نظرنا لا بد شيئا كبيرا كالجنة، وفيها خواجات لا يحصى لهم عدد، وبنات كاللبن الحليب، ونساء أفرنج لهن ملايات لف حريرية تلمع وتلعلط، وقصب براقعهن لا بد صغير دقيق مثل عقلة الاصبع. وأنوفهن لا بد كحبة الفول، وأجسامهن لا بد مصنوعة من لحم طري وليس فيها عظام، وانما هي كالملبن تجذبه فينجذب معك وتلحسه فيسيل لعابك من حلاوته، والرجال هناك طريين لا يشبعون نساءهم، والنساء يمضغن اللبان فيطرقع في أفواههن الحلوة الضيقة، ويطلبن الرجال.. رجال مثلنا فلاحين خناشير كفحول الجاموس.

وقلنا لمحمد مبهورين:

ـ وبعدين؟

ومضى محمد يحكي.. قال انه نزل من القطار وقضى طلبه، وبقيت لديه ساعات على موعد القطار التالي فاشترى رغيفا خاصا وأكله ومضى يتفسح في شارع المحطة. وكان الشارع ممتلئا ببيوت كبيرة لها بلكونات، وكانت الدنيا في العصر الضيق وكانت البلكونات

ممتلئة بالستـات، ستات لـو وزعن على رجال بلدنـا لناب كـل واحد طورة وفردة خربة. ومر ببلكونة كانت واحدة واقفة فيهـا ترتـدي(روبا) أحمر.

واستخرجنا أنفسنا من التبن وسألناه ما هو الروب الأحمر؟ فقال انه شيء كالعباءة. وتشككنا في صحة كلامه فقد كنا نسمع له كالقضاة نتأرجح بين التصديق والتكذيب. كنا نخاف دائما أن يكون مـا يقولـه مجرد حكاية يخترعهـا ليضحك بهـا علينا، ولهـذا كان الشـك يغلبنا ونرجح في الغالب كفة الاتهام.

ومضى محمد يروي ويقول انه مر من تحت البلكونـة فابتسمت له المرأة.

وتلاصقنا حوله وارتجفنا.

وظن انهـا تبتسم لواحـد غيره، ولكن الشـارع كـان خـاليـا من الرجال وليس هناك أحد غيره. ونظر اليها فعادت تبتسم.

وأمسكنا بجلبابه وتشبثنا نستأنيه ولم نعد نصدق أو نكـذب، كنا نود أن نسمع، وقلنا له:

ـ حاسب. أوعى تسيب حاجة.

فقال:

ـ مش ح أسيب حاجة. هي ابتسمت تاني يا ولاد وأنا قلبي دق وجنوني طارت، وقلت في سري دي فرصة جتلك من السما يـا واد.

عملت اني مش واخـد بالي وبصيت لهـا تـاني فضحكت، فقلت في سري ما ينفعش الا واحد زبيب.

وسألناه:

ـ اشمعنى الزبيب يعني؟

قال:

ـ يعني كونياك يا ولاد.

قلنا:

ـ وايه الكونياك؟

قال:

ـ خمرة.

وخفنـا. محمد يشـرب الخمرة؟. . النسـوان معلهشي. . انمـا الخمرة. . أعوذ بالله! المقصود. تغتفر لمحمد.

ـ وبعدين يا محمد؟

ـ مشيت، لقيت واحد خواجه فاتح. قلت يا خواجة، قال نعم. قلت اديني زبيب زحلاوي والمزه خيار.

قلنا:

ـ ايه المزه دي يا محمد؟

قال:

ـ خيار.

وخفنـا أن نعيد السؤال. . كنـا نستعجل مـا بعد ذلـك ومـا هـو أهم.

ـ شـربت الزبيب يـا ولاد دمي غلي وطلعت الخمره على قلبي بقى زي الحـديد. قـول اجل الاطمئنـان رقعت واحد تـاني ورجعت على شارع المحطه.

وسألناه:

ـ وفت تاني؟

قال:

ـ فت.

قلنا:

ـ ضحكت لك؟

قال:

ـ ضحكت ضحكة ترد الروح يا ولاد. مـره حلوه زي الكمتري ولابسه. . كانت لابسه ايه يا محمد؟ لابسـه قبقاب مشغـول وجسمها بـاين كله من الـروب وبتضحــك. بصيت لهـا وضحكت. ضحكت تاني.

قلنا:

ـ اشمعنى ضحكت لك تاني يا محمد؟

قال:

ـ يا ولاد كنت لابس الحته الزفره وكان عندي طاقية وبر جمل وجزمه لميع وكوفية حرير على كتفي، وشباب في عز نعنعة شبابه. غمزت لها بعيني فراحت داخله جوه، وطلعت لابسه روب تاني.. روب سواكبيس أخضر.. رحت وجيت من قدام البيت فشاورت لي وقالت بإيدها اطلع. اطلع يا ولاد؟

فقلنا بعزم ما فينا:

ـ اطلع يا محمد..

فقال:

ـ طلعت والواحد متاخد. اني غريب وده بيت وداخل على حرمة. افرض حد مسكني والا حاجه أقول ايه؟ افرض لها أهل. المقصود لولا الاتنين الزبيب يا رجاله لما كانوا يقطعوا رقبتي ما كنت أعتب بيتها أبدا.

وسألنا:

ـ ودخلت؟..

فقال:

ـ صبركم عليّ شويه. ضربت الجرس يا ولاد؟

قلنا:

ـ ضربته ازاي؟

قال :

ـ الجرس كان له زر.

قلنا :

ـ والأجراس بأزرار؟

قال :

ـ أيوه يا فلاحين اتمدنوا الأجراس بأزرار. فتحت لي الباب وقالت اتفضل. وطلع صوتها يا ولاد زي السكر المعقود زي حب النعناع .

وقلنا :

ـ ودخلت . . ادخل .

قال :

ـ الله! ما تحكوا انتم أحسن . ح تسكتوا واللا لا . .

قلنا :

ـ ح نسكت .

قال :

ـ وقفت على الباب خايف. سندت على الباب وقالت لي ما تخافش جوزي مسافر. قلت يا واد هي موتة والا اتنين. قلت لروحي تدخل يا وله .

قلنا له:

ـ ادخل يا محمد يخرب بيتك.

قال:

ـ دخلت وقعدت في أوضة الجلوس. كـراسي مدهبه يا ولاد. ومرايات بنور الحيطان ولعاليب وشخاليـل في كل ركن من الأركـان. وبعد شويه بصيت لقيتها داخله عليّ بفستان كحلي بياكل من جسمها أكل. وكانت جـايبه معـاها ازازه وكـاسين. قالت لي: اسمـك ايه يـا شـاطر؟ قلت لهـا: خدامـك محمد. قـالت: دانت سيـدي.. تسلم لشبـابك. تحب تقعـد على الكرسي يـا سي محمد ولا تخليهـا على البساط أحمدي.

قلنا:

ـ أقعد على الكرسي يا عبيط.

قال:

ـ لا، قلت انـا مش واخـد على قعـدة الكـراسي يمكن أدوخ. وقلت لهـا: اسم الكريمـة ايه؟ قـالت لي: فيفي. قلت لهـا: وانت فيفي صحيح. قالت لي: انت بتشرب يا سي محمـد؟ قلت: اشرب تاني يا ولاد؟

قلنا:

ـ اشرب يا أخي.

"SS"

٦١٦

قال:

ـ وقعدنا نشرب يا ولاد. واحد في التاني في التالت أنا اتخدرت والأوضة لفت بي. قالت لي: انت اتاخدت؟ قلت أبدا. قالت أجبلك حاجه تفوقك؟ فانكسفت أقول هاتي.

قلنا:

ـ يا خايب تنكسف ليه؟ وجابت لك؟

قال:

ـ جابت لي؟ دانا بصيت لقيتها داخله عليّ بصينية أكل.

قلنا:

ـ فيها ايه؟

قال:

ـ ديك رومي يا ولاد محشي من جوه حمام، وبطاطس ولحمه ضاني.

قلنا:

ـ يخرب بيتك يا محمد. وأكلت؟

قال:

ـ أنا بقيت داري عن روحي. أهو فضلت تطعمني..

قلنا:

ـ مش عيب؟

قال:

ـ عيب ايه يا ولاد؟ مـا عيب الا العيب. أني كنت بقيت ألسطه قوي وعلى الآخر. فمديت ايدي عليها.

قلنا:

ـ من غير ما تغسل؟

قال:

ـ يا باي! غسلت. انتوح تطهقوني.

ورجوناه الا يطهق وما كان في حاجة الى رجاء، كـان يبدو هـو الآخر منسجما لا يستطيع أن يوقفه شيء. ومضى يقـول مديت ايـدي عليها يا ولاد تقولوش عجميه.

قلنا:

ـ وشها كان أبيض؟

قال:

ـ أبيض من القطن المندوف.

قلنا:

ـ وشعرها كان ازاي يا وله، كان أسود؟

قال:

ـ ومحصل لغاية ركبتها.

قلنا:

ـ قول والنبي قول بس أوعى تفوت حاجه.

قال:

ـ كان جسمها ناعم نعومية يا ولاد، أنعم من بذر الخروع. قلت لها أنا في عرضك.. أنا خلاص. قالت طيب تعالى. وخدتني على السرير ونزلت الناموسية.. ناموسية بمبى والنبي. ومدت ايدها طفت النور.

قلنا:

ـ حاسب على مهلك قوي.

قال:

ـ وبعدين لقيت الناموسية بتبرق يا ولاد. أنا قلت القيامه قامت: أتريها ولعت نور تاني في الناموسيه، واتبن كان في سقفها لمض صغيره حمرا وخضرا وزرقا وصفرا. وبصيت لقيتها قدامي يا ولاد حاجه تهبل.. حته منها لون والتانيه لون كأنها جنيه.

قلنا:

ـ وبعدين؟

قال:

ـ وبس يا ولاد، وشفت معاها ليله ولا ألف ليله. .

فعدنا نقول:

ـ أبدا ما ينفعشي. وبعدين في عرضك؟ وبعدين؟

قال:

ـ ولا قبلين.

قلنا:

ـ يا أخي ما تقول، يا أخي ارحم، وحياة رحمة أبوك وبعدين؟

وجاد علينا بالقليل ولم يشف غليلنا أبدا. وتركنا ولعة كالنار الموقدة. وبدلا من أن يهدئنا حديثه زادنا اشتعالا. وقال واحد منا:

ـ سيبوكو منه يا ولاد. ده مش كله فتش.

وقال آخر:

ـ طيب تحلف إن ده حصل

وأقسم محمد وازددنا ثورة ولم نصدق.

وأقسم بتربة أمه. وقلنا:

ـ كداب انت بتضحك علينا.

فقال:

ـ أبدا والله هذا ما حصل.

قلنا:

ـ كداب .

قال :

ـ يا ولاد أنا عمري ما كدبت عليكم .

قلنا :

ـ انت كداب .

قال :

ـ انتم أحرار.

فقلنا

ـ يعني لو رحنا المنصورة تودينا البيت؟

قال :

ـ أوديكم .

ـ تودينا؟

ـ أوديكم .

وانتفض واحد وقال :

ـ ما تيجي نروح المنصورة يا ولاد .

وهللنا . . قال كل واحد كلمة. وصدرت عنا أصوات وتعانق أكثرنا. كانت عقولنا كالقاعة الضخمة الفارغة أقل الأصوات يحدث فيها أعظم الرنين. وهجنا هياجا شديدا حتى اتنين منا أمسكا

بمحمـد، واحد من رأسـه والآخر من سـاقيه وظـلا يؤرجحانـه بينهما حتى ألقياه على التبن. وصرخ واحد وقال:

ـ يا رازق الفرخة وديكها.

ثم اندفع الى النورج يجره ويدور به فوق(رمية) القمـح المعدة للدراس. والنورج ثقيل جداً لا تكاد تستطيع البهيمة سحبه.

وقال واحد:

ـ ولاد. . ولاد. . اسمعوا يا ولاد. ولاد اسمعوا يا ولاد.

وظل يصرخ حتى سمعنا. فقال:

ـ تيجوا نروح المنصورة؟

وعـاد الهياج بحمـاس أكثر، وتعـالت سحب التبن فملأ عيـوننا وأجسامنا وعفرنا ترابه.

وكنـا قد غـادرنا الكـومة وأصبحنـا في وسط الجرن، وكـل منـا مشغول بشيء أو مشتبك مع الثاني في مصـارعة، والشـاطر من يـوقع الآخر.

وقال محمد:

ـ تيجوا نلعب يا ولاد ضربونا لما عمونا.

وهجنا من جديد ووجدنا أنفسنا نزعق ونقول:

ـ عايزين نروح المنصورة.

ووجدنا لها نغمة فعدنا نغنيها. . عايزين نروح المنصورة.

وتصاعد صوت يقول:

ـ الدنيا ليل يا ولاد.

ورددنا عليه جميعا:

ـ عايزين نروح المنصوره.

وهرش واحد وقال:

ـ حدانا عزيق بكره. . .

فقلنا:

ـ يا محني ديل العصفوره، عايزين نروح المنصورة.

* * *

وأفقنا لأنفسنا فوجدنا أننا قد قطعنا شوطا كبيرا. كنا قد غادرنا بلدنا وحدودها وغيطانها وأصبحنا نمشي في طريق زراعي يقطع زمامات بلدة أخرى. ولحظتها فقط بدأنا نعي أننا مقدمون على شيء، وأننا ذاهبون فعلا الى المنصورة. وكان سبب يقظتنا أننا شممنا رائحة الأرض الغريبة. في بلدنا كنا نحس بالألفة لكل شيء ونتصرف بحرية ولا نخاف. كل نخلة كنا نعرفها ولا بد طلعناها وأكلنا منها بلحا وجمعنا من تحتها رطبا. كل غيط طرقناه ورأيناه في طفولتنا وصبانا. كل بيت نعرفه ونعرف أهله كما نعرف أهلنا. والشجرة أي شجرة نعرف فروعها بالفرع الواحد. وكل منا يستطيع وهو مغمض

العينين أن يفـرق بين تـراب بلدنـا وأي تـراب آخـر. ولم نفق الا لإحساسنا أننا قد غادرنا أرضنا وأصبحنا في بلاد الناس.

وانتـابنا خـوف حقيقي حين أيقن كل منـا أن الدنيـا ظلام وأنـه يسلك طريقا لا يعرف له نهاية، وانه لم يعد في بلده ولا يستـطيع أي منا أن يصرح بما يدور في خاطره، كانت جماعتنا تتحرك وكـانت لها رهبـة وكـأنهـا أصبحت عمـلاقـا كبيـرا لـه عشـرات الأذرع والأيـدي والرءوس، حتى بدا ما يفكر كل منا فيه صغيرا تافها يخيفه هو وحده. وأصبح هم كل منا حينئذ أن يلتصق بالآخرين أكثر حتى يذوب خـوفه ويختفي في جسد ذلك العمـلاق الكبير. وبعـد أن كنا متنـاثرين على الطريق تقاربنا وتشابهت خطانا، بل وتشابكت أيـدينا، وتـولانا وجـوم وسكوت ونحن نستغرب من سيرنا المندفع الـذي لا يتحكم فيه عقـل ولا يتوقف. كان في صدورنا هدير لا يرحم والمنصورة تجذبنا، كلمة ولكنها أصبحت تعني بالنسبة الينا شيئـا كالحيـاة أو أغلى من الحياة، تيار عارم كان ينبع من صدورنا ويقودنا ويدفعنا رغما عنا.

ولم يعد يسمع سوى وقع خـطواتنا على الـطريق، وقع هـامس خافت كأننا قافلة جمال. فقد كنا حفاة ومن كان يرتدي في قدمه شيئا خلعه ووضعه تحت ابـطه، وكنا نلهث، ووجـوهنا تلمـع، وغبار قليل يثـور، والليل من حـولنا كبيـر أكبر من أي شيء في الـدنيـا، وأسـود ومخيف ومليء بـالهمهمات والأسـرار، والـزرع كثيـر محيط كـالبحـر المالح الذي ليس له بر، والنبات واقف ميت تحركه النسمات فيتحرك معهـا حركـة ميتة بـطيئة، وأصـوات سواقي تـأتي من بعيد كـأصـوات

النائحات النـادبات في الجنـائز حـزينة على الـزرع الميت، وطلقات بنادق متباعدة لا يعرف من ضـاربها وأين يضـربها والى من تصـوب، وديكة تصيح قبل الأوان، ونباح كلاب يأتي من بلاد مجهولـة، وهواء واسع يحف بأرض واسعة فتهمهم الأرض وتقشعر الرياح، وهمسـات الظلام تنبثق في أماكن غيـر مرئيـة. . همسات خفيـة لئيمة لا تنقـطع كأنها تصدر عن حيتان هائلة لا ترى تسبح في بحر الظلام وتتقلب.

ومد واحد يده وزغزغ الذي في جانبه، وانزعج الآخر انزعاجـا عظيما وقفز في الهواء وصرخ، وضحكنا. . لم نضحك ضحكا عـاديا متنا من الضحك. ورحنـا نزغـزغ بعضنا ونمـوت وتتقطع أنفـاسنا من الشهقات.

وقال واحد لمحمد وهو يلكزه:

ـ ورجليها يا محمد. . زي رجلينا كده؟

فقال محمد:

ـ هي رجليكو دي رجلين. . دي قحوفة نخل.

وعاد السائل يسأل:

ـ أمال رجليها ازاي؟

فقال محمد:

ـ زي الجمار.

ـ زي رجلين صفيه الغازيه يا وله؟

ـ صفية مين يا حمار؟ دي ولا تيجي في ضافر رجلها الصغير.

ـ وبطنها يا محمد. . داقه عليها سمكه؟

ـ سمكة ايه يا جدع؟ . . ايه شغل الفلح ده؟ . .

ـ أمال داقه ايه؟

ـ ولا حاجه. . هي دي بطن يندق عليها. . دي زي العجين يا وله.

ـ وكانت حاطة أحمر وأبيض يا محمد.

ـ والله ما خدتش بالي.

ـ ما خدتش بالك ازاي. ودي حاجة تتنسي؟

ـ كانت حاطة.

ـ وبتتكلم بندراوي ولا فلاحي يا محمد؟

ـ بندراوي مكشكش يا وله.

وهصنا، وطرنا وراء بعضنا، واختفينا من بعض في الاذرة الصيفي وقد أصبحت المرأة شديدة الوضوح في ذهن كل منا، حلوة، تماما كما يريدها الواحد منا، ملموسة، وكأنها أمامه وكأنه قضى معها ليالي كثيرة.

ومضينا ونحن نتدافع ونتجاذب ونسرع، وضحكنا، وتحدثنا، وقهقهنا ونحن نستمع الى تخميناتنا عن المسافة الباقية على المنصورة

واحد يقول ألف ألف متر وآخر يقول أربع محطات. وتشعبت بنا التخمينات.

وتنبهنا فجأة فلم نجد محمد بيننا.

وكأنما اندكت سكين في قلب كل منا. ودون أن نتعقل أو نتشاور انطلقنا نجري في كل اتجاه لنمسك به. كان قد زال عنا كل شك في صدقه وتأصل ما قاله في مخيلة كل منا وحفرت تفاصيله في عقولنا حفرا، وأصبحت المرأة ذات الروب الأحمر والازازة ليست مجرد امرأة أخرى من اللاتي تعود محمد أن يحكي عنهن، أصبحت امرأة كل منا، يكفي أن يصل الى المنصورة ويريه محمد بيتها ذي البلكونة الحديدية، ونطلع واحدا وراء الآخر حتى تموت من السعادة وتسر، ويمكن تعطي كل منا جنيها، فالواحد منا ولد، ولد عترة لا يعادله أولاد المنصورة كلها وشربين، واذا بالخنزير يساهينا ويهرب.

كنا ونحن نجري نصدر الأوامر لبعضنا.. روح انت ناحية التابوت، دور تاني بر السكة الحديد، اطلع انت على الكوبري. وبهذا تفرقنا في شبكة واسعة لا يستطيع كائن من كان أن يهرب منها. وكان الواحد منا لا يملك منع نفسه من التفكير: ماذا لو لم نجد محمد؟ هل نعود الى بلدنا بأيدي وراء - وأيدي من أمام؟ وكانت إجابتنا جميعا: ان لا.. لا.. لن نعود. يكفي أن نصل فقط الى المنصورة اذ لا بد ان نعثر هناك على بغيتنا، لا بد أننا واجدون عشرات من نساء افرنج بملايات لف، نساء كاللبن يؤكلن أكلا. نساء

حلوين يا وله، أحلى من العسل النحل والقشطة. وسمعنا صرخة تأتي من بعيد:

ـ أهه يا ولاد.. محمد أهه يا ولاد.. لقيته.

وكالريح المندفعة العاتية اتجهنا الى الصرخة، ووجدنا محمد قد دفع صاحب الصوت دفعة وجرى، وجرينا وراءه وتبلور كل ما نطلبه من الله في الامساك به، ولم يكن عسيرا أن نقبض عليه. ولم يسكت.. مضى يتفلفص ويضربنا وكانت ضرباته غريبة جامدة قوية كضربات الرجال، وتفادينا الضربات وتحملنا الى ان كتفناه وأحطناه كما تحيط جماعة نمل صغيرة بكسرة خبز، وحاول المقاومة وفشل، وحاول وفشل، وأحس أننا أقوى منه فاستسلم. وخلع واحد جلبابه وربطنا به ذراعيه. وقال بلهجة وقحة جافة:

ـ انتم عايزين ايه دلوقت؟

قلنا:

ـ عايزين تورينا بيت المره.

فقال:

ـ مش موريكم.

قلنا:

ـ غصب عنك ح تورينا.

قال:

ـ بالعافية؟

قلنا:

ـ بالعافيه

قال:

ـ ح اوريكم يا نسوان.

قلنا:

ـ ابقى ورينا.

قال:

ـ بالعافيه يعني.

قلنا:

ـ بالعافيه . . ياللا.

وعترس في الأرض فجررناه بالقوة، ومشى معنا والغيظ يخنقه. ثم تمتم وقال:

ـ المنصوره بعيدة يا ولاد وح نتوه.

قلنا:

ـ ملكشي دعوة.

قال:

ـ ذنبكم على جنبكم.

قلنا:

ـ على جنبنا.

ومشينا صامتين وقد تكهرب الجو. ولكن الصمت لم يدم طويلا. تكلمنا وقلنا نغني. ولم نكن نحفظ أية أغنيات، البنات وحدهن هن من يحفظن الأغاني ولهن في هذا باع ومقدرة، كنا لا نحفظ الا مطلع موال: أقوم من النوم أقول يا رب عدلها. غناه واحد فخرج صوته قبيحا فأسكتناه، ومضى كل منا يغنيه كما يحلو له.

وهللنا مرة هللولة كبيرة، وتضارينا وتعانقا وعفرنا بعضنا بعضا بالتراب، وخلع واحد جلبابه ورماه، ثم عاد وارتداه، وتبادلنا حدف الطوب فقد بدت في الأفق أضواء صغيرة منتشرة كعيون الجراد حين تلمع في النور.

كانت اضواء المنصورة.

كانت المسافة بيننا وبين الأضواء تبدو قصيرة جدا، مشوار صغير ونصبح في قلب المنصورة. ولكنا ظللنا نجري ونرغم محمد على الجري حتى لهثنا.. وبدأنا نمشي، ومشينا حتى لم يعد في استطاعتنا المشي، ومع هذا لم تقترب الأضواء الا مسافة قليلة وكأننا كلما اقتربنا غارت في الظلام وابتعدت.

وقال محمد:

ـ يا ولاد نرجع .

فانفجر فيه :

ـ اخرس .

وقلنا :

ـ مدوا يا جماعة الوقت اتأخر .

واستجمعنا كل ما تبقى لنا من عافية وواصلنا المسير .

وفجأة لعلعت في الظلام قهقهة عالية ، والتفتنا فوجدنا محمد هو الذي يضحك . ولما رآنا قد استدرنا اليه مضى يفتعل الضحك افتعالا وينثني ويقوم ويضحك وهو يقول الجملة التي نقولها في بلدنا كثيراً حين يفلح واحد في خداع الآخرين وسبك الكذب عليهم ، ويتطوع آخر الأمر بكشف نفسه :

ـ هيه . . ضحكت عليكم . . هيه . . يا هبل ضحكت عليكم .

فسألناه :

ـ ضحكت علينا ازاي؟

قال :

ـ وأنتوا صدقتوا؟

قلنا :

ـ ايه . .

قال :

ـ داني كنت بضحك عليكم.

ـ تضحك علينا ازاي؟

ـ علشان أنتو هبل.

ـ يعني مش شفت المرة في المنصورة

ـ ولا عمري رحت المنصورة.

ـ أنت كداب.

ـ والنبي يا ولاد عمري ما شفت المنصورة بعيني.

ـ أنت ابن(. . . .).

ـ أنتو اللي عبطا.

وهلّ علينا صمت ثقيل، رحنا في أثنائه نتلفت الى أضواء المنصورة وقد أصبحت قريبة نكاد نمد أيدينا فنقطفها، والحق اننا ما كنا نرى فيها أضواء ومدينة.. كانت المنصورة كلها قد استحالت في نظرنا الى امرأة مثل العجمية، تطل من بلكونة، ولها روب ولها ابتسامة، وتدعونا. ومضينا نتلفت الى الأضواء ونعود الى محمد لنجده واقفا مائعا يصطنع الضحك ويسخر منا.

وقال واحد:

ـ دا بيضحك علينا يا ولاد.. هو مش عايز يورينا المره.. دا بيضحك علينا يا ولاد.. هو مش عايزنا نروح.

وتنبهنا. صحيح أنه يضحك علينا. وشخط محمد وقال:

ـ بضحك عليكو ايه يا حلاليف؟

فصرخنا فيه نلعنه ونقسم أننا لن نتركه حتى يرينا بيت المرأة. فعاد يقهقه ويتهمنا بالعبط وانا مهابيل. وعدنا نقسم أننا لن ندعه يخدعنا ويحتفظ لنفسه بالمرأة من دوننا. وأمرناه أن يواصل المسير. ورفض أن يسير. فجررناه. فرفع ساقه ورفص واحداً منا في بطنه وهاج فينا. وانفجرنا وجمعنا كل ما فينا من غيظ وانقضضنا عليه وأوقعناه واندفعنا نكيل له الصفعات واللكمات، وراح يضرب بالروسية وينطحنا ويدفعنا بسيقانه، وتكاثرنا عليه حتى ربطنا ساقيه معاً بقميص، وجرى واحد إلى الخليج وأحضر ملء يديه طيناً وطلى به وجه محمد وملأ فمه وبصق عليه. وحاول محمد أن يصرخ فكتمنا أنفاسه وسكت، وخفنا أن يموت، فرخرخنا أيدينا وتنفس، وقال واحد:

ـ نجره الى الغيط ونكويه بالنار.

فقلنا كلنا:

ـ نكويه.

وجررناه الى الغيط وبحثنا عن كبريت ولم نجد. فقلنا:

ـ نصنع شرارة بزناد من الزلط.

وبحثنا عن الزلط وعثرنا عليه فوق السكة الحديد وقلنا:

ـ يلزمنا مسمار أو حديدة.

وهمنا نبحث عن حديده ولم نجد الا صفيحة. وبرك واحد

على صدره وأجرى الصفيحة على ساقه وقال:

ـ ح تقول على بيت المره فين والا نموتك؟

ولم يعترف فأخذنا ننشب أظافرنا في جسده ونقرضه ونعضه ونطلب منه أن يدلنا على البيت

وأدركنا آخر الأمر ان لا فائدة، وأنه كذاب.

فجننا أكثر. وانهلنا عليه ضربا من جديد، وحز ماسك الصفيحة في ساقه وقال له:

ـ طب قول أنا مره.

ولعن محمد آباءنا جميعا ورفسنا.

وقال واحد:

ـ لا ينفع الا الكي.

ورحنا نتبادل الزناد والزلط ونحاول أن نحدث الشرر، وفي كل منا جزء صغير معجب بمحمد لأنه لم يقل انه امرأة وجزء كبير حانق على اللئيم الذي خدعنا.

وحدثت الشرارة واحمرت قطعة القطن وهللنا، ونفخنا فيها واشتعلت النار وملأتنا دهشة فقد كان لونها شاحبا جدا. ونفخنا فيها وشحب لونها أكثر وأكثر. وعدنا ننفخ بلا فائدة.

وتبينا ان النار ليست وحدها الشاحبة كان كل شيء يشحب

أليس كذلك

ويصفر، ثم بدأت النار والأشياء من حولنا تبيض، ثم صفـر شيء في آذاننا كالاستغاثة وأدركنا مروعين أن حادثا جللا قد وقع ـ ومضى كـل منا ينظر في وجـوه الآخرين ويستعجب ويفيق. كـانت وجوهنـا معفرة كلها خدوش، وأجسادنا يكسوها التراب، وذباب، ذباب كثير لـزج لا يهدأ ولا يكف عن الطنين.

ومن أين جاءنا ذلـك الألم؟ وماذا يقـول أهلنـا؟ سيضـربـوننـا بـالتأكيـد ويشنقوننـا، وآه من شتائمهم. كلهـا ألفاظ حـامية تجـرحنـا وتصيب رجولتنا الصغيرة الحساسة في الصميم. كان على بعضنـا أن يقوم في الفجر وكان لا بد من تعليق توابيت وتتريب زرائب. وكنا لم ننم. . لم ننم أبدا وعيوننـا حمر، هـل مرضت؟ وهـه طلعت الشمس أيضـا في بلدنا؟ وأشكـالنا مـالها فيهـا ذهول واجـرام وتـوبـة؟ مـالهـا فيها(قشف) و(قوب)، وحفر غائـرة وحب شباب ونقـاط سود؟ لمـاذا نحس الآن فقط أننا غلابة فقراء، وان بيوتنا ليس فيها سوى صيحـات كلاب وجعير آباء وأمهات ودخان المواقد الخانق؟

وروعنـا، ونسينا كـل شيء ومضينا نتحسس أجسـامنا ومـلابسنا ونرى مدى ما أصابها من تمزيق، ونرى أنفسنا في وضوح بشع شديد نخاف معه أن نرى أنفسنا.

وكان محمد راقدا جلبابه ممزق وجسده ممدد كـالخرقـة الباليـة والذباب يعف عليه بكثرة، والجروح تشوه جلده ودمـاء متجمدة فـوق أنفه وعلى جانب فمـه وتملأ الشق الـذي في شفته، نـائما مستسلمـا

كالذبيحة الفاطسة، كالمرأة بعد ليلة حافلة.

وفككنا عنه الأربطة بلا حماس، وتألم وأحسسنا بألمه يحز في قلوبنا ويجرحها.

ووجدنا أنفسنا بعد حين هائمين على وجوهنا ـ عائدين إلى بلدنا من نفس الطريق ـ تدفعنا قوة قاهرة، عائدين نعرج ونتساند ونئن ونفكر في النهار. النهار الذي داهمنا بغتة وخلق أمامنا الأرض وحملنا بهموم الدنيا. النهار الحار الجاف الخشن الذي كنا نراه رؤى العين منتصباً أمامنا كرجل عملاق قامته أعلى من قامة الشمس، ولا رحمة في قلبه ولا خرقة فوق جسده وفي يده هراوة ضخمة، منتصباً هكذا ينتظرنا ويتوعدنا وتقدح عيناه بالشرر، ونحن متجهون إليه خائفون خاشعون عالمون تماماً أننا لن ننفد من يده.

أليس كذلك

لن يضيرك أن تعرف اسمي. حقاً اسمي هـ. ك. تيموشلاي!

هندي أي نعم، من الهند. أرجو عفوك! أسمي متعب لكنه هندي مائة في المائة. متعب؟! تيمو يعني شيء كالجوهرة.. نعم شيء كالجوهرة. هذا الترام ذاهب إلى الأهرام؟؟! حسن، حسن جداً، نفس الطريق؟ وتجيد الانجليزية؟! حسن. حسن جداً جداً. أستطيع أن أعبر عن نفسي الآن. لا، لست ذاهباً لمشاهدة الأهرام. أنا لم أشاهدها لا هي ولا المتحف وليس لديّ وقت لمشاهدتها.

غريب هذا الكلام؟ كل الأجانب يأتون فقط من أجل رؤية الأشياء القديمة هذه؟ أتظن أن مصر القديمة هي التي أغرتني بالمجيء الى مصر؟؟ أبداً! أتعلم شيئا؟ أنا جئت لأرى مصر الموجودة.. مصر التي في الشارع وليست تلك الموضوعة خلف ألواح الزجاج.

أنا أعرف مصر، نحن في الهند نسمع عنها كثيرا، ولكنكم اليوم حديث العالم. ألا تعرف هذا؟ كل العالم ايجيبت ايجيبت. أتعلم أين أنا ذاهب الآن؟ أنا ذاهب لوداع صديق. أتدري من؟

فتاة. . فتاة كباريه! أرجوك لا تسيء فهمي. نحن أصدقاء جدا. وأنا سأرحل غدا. جئت لأقول لها وداعا. فقط لأقول لها وداعا. أتعلم أين رأيتها؟ في نفس الكباريه الذي أنا ذاهب اليه الآن. أرجو عفوك. . أنا رجل صريح، وأحب الناس أن يتحدثوا معي بصراحة، بصراحة. لقد حدث فيّ شيء ما منذ أن وضعت قدمي في بلدكم. أتعلم ما اسمها، اسم الفتاة؟ باهيا. اسم جميل؟ أليس كذلك؟ يا له من اسم! باهيا! مجرد نطقه يملأ صدرك بالراحة. عرفتها من ثلاثة أيام. أنا هنا من اسبوع. تصور سوء حظي. . فقط من اسبوع. كنت داخلا الكباريه لأتفرج. كنت أريد أن أرى كل مكان فيه ناس في مصر. وأنا غادرت بلدي لأتفرج على الناس. في الهند أنا عضو في البرلمان. . أجل عضو في البرلمان. ولكني هنا لست الا متفرجا فقط. أيدهشك أني عضو في البرلمان وأنا صغير السن هكذا؟ ولكني لست صغير السن. هل أبدو حقا في العشرين؟ كما ترى. . أنا قصير ولا لحية لي ولا شارب، ولكن أتعلم أني في السابعة والثلاثين؟ سأبلغها في أكتوبر ١٩ أكتوبر، ولي ولد - ابني - يبدو إذا مشيت بجواره أكبر مني سنا. اسمه لال. . لال تيمو شلاي. لال يعني صغير. ابني هو تيمو شلاي الصغير، وأنا شلاي الكبير. أفهمت؟ ومع ذلك فتيمو شلاي الكبير أصغر من تيمو شلاي الصغير. نهرو؟

ومن في الهند لا يحب نهرو؟ بيني وبينك بعضهم لا يحبه ولكني أحبه. أنا مثله اشتراكي. . اشتراكي على طريقتنا.

أنا مثلا علمت نفسي. ان أبي لم يعلمني، وأنا أعلم لال تيمو شلاي ابني، ومع هـذا يقول عني أحيـانا اني يميني متـطرف. . أكثر يمينيـة من أتلي، وأحتفظ بها سرا. أحيـانـا يكـون على حق. أرجـو عفـوك. أنا أتكلم كثيـرا؟ أأنا ثـرثار؟ ولكن أتعلم شيئـا؟ أنا أحب أن أتكلم كثيـرا، وأحب أن يكلمني النـاس كثيـرا، اذ بـالكــلام نصبـح أصدقاء، وبهذه الطريقـة نجحت في مصادقـة عدد كبيـر منكم. هذه الفتاة. . ذهبت الى الكباريه وجلست على مائدة. الكباريـه قريب من الهرم. وأنت تعرف فتيات الكباريهات.

انهن مثل الكباريهات متشابهات في كل أنحاء العالم. وجـدت فتـاة قريبـة من مائـدتي. وطبعا تعـرف فتيات الكباريهات. عملهن أن يجلسن مـع الرواد مقـابل مشـروب. . مشـروب دائمـا بـاهظ الثمن. دائمـا أنت مضطر للدفـع، وثمن مشروب كهـذا كثير عليّ. فـأنا وان كنت عضوا في البرلمان الهندي وهو مركز مهما كان ذا صبغة رسميـة الا أني لست غنيا. أنا رجل فقير، ومع هذا فالناس يحبونني جدا في حيدر اباد. حيدر اباد هي ولايتي. لا بـد أن تأتي يـوما وتـلقي نـظرة على الهند وترى حيدر اباد. ولا بـد ان تتصل بي حين تـأتي. لا بد! أنا كما ترى عضو في البرلمان. . يعني أشغل مركـزا رسميا وأستـطيع أن أريك أشياء لن تراها وحدك. أنا متأكد أنـك ستحب بلدي. هناك نحن نحاول أن نبني، ولهذا فليست لدينا خلافات كثيرة. اذا اختلف الناس قل لهم ابنوا شيئاً وحينئـذ لا بد أن يتفقـوا. أتعلم شيئاً؟ يجب أن يتزاور الناس لا ليعـرفوا بـلاد غيرهـم فقط، ولكن ليعـرفوا بـلادهـم

هم. هنا أحس بالهند أكثر، وحين تأتي أنت ستحس بمصر أكثر، ترامكم بطيء مثل ترامنا، ولكنه سيسرع، سنسرع به أكثر؟ اليس كذلك؟ وحتى هذا الجو الحار يجعلني أحس كأني في بيتي. أتعلم ما حدث؟ أنا سعيد جدا بالقدوم الى هنا. أتعرف لماذا؟ لقد وجدت كل شيء هنا يستيقظ وينمو. . حتى نيلكم يفيق ويحاول أن يختزن ماءه المبعثر. أتعلم لماذا نحن فقراء؟ لأننا نائمون. ابني يقول هذا عن هذا يمينية ولكنها حقيقة. في بلدي حيث عملت فلاحاً لفترة طويلة كنت أحب جدا أن أرى الزرع. . الزرع الصغير الأخضر وسيقانه النامية تدفع عن نفسها التربة وتبدو فوق سطح الأرض. أحب جدا أن أرى العجل الصغير وهو لا يستطيع الوقوف على سيقانه ساعة ولادته، ثم حين يستطيع بعد هذا الوقوف والجري، ثم وهو يكبر ويكثر شحمه. وأنا أحب أن أرى الشمس وهي تشرق. . لا بد أن منظر الشمس وهي تشرق في مصر رائع. أتعلم ما هو أجمل شيء في الدنيا؟ الحياة. أتعلم ما هي الحياة؟ النمو.

أرجو عفوك! لقد استرسلت. كنت أود جدا كما أخبرتك أن أتحدث مع الفتاة، ولم يكن معي من النقود ما يكفي الا للضروريات. أحيانا تحس بحاجتك لمحادثة انسان ما. ألا تحس ذلك أحيانا؟ ولم يكن معي من النقود. . فأشرت لها وابتسمت فجاءت وهي تبتسم. أتعلم شيئا؟ انكم شعب الوف. منذ أربعة أيام كنت ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة، ولم يكن معي كبريت وأنا أدخن كثيرا كما ترى. وكلما قالت لي زوجتي هذا أدخن أكثر.

انت تعرف. . عناد. زوجتي بنت عمي، تزوجنا ونحن لم نبلغ العشرين، وكنت أيامها لا أدخن. وبالمناسبة لم تعجبني سجائركم المصريةرغم شهرتها العالمية. مسألة مزاج. أليس كذلك؟ هل تعتقد ان التدخين يسبب السرطان حقيقة؟ من ناحيتي لا أعتقد هذا. أتعلم شيئا؟ يبدو أن كلامي أكثر من اللازم حقا. كنت أقول اني كنت فجأة ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة.

وفجأة، أتعلم ما حدث؟ وجدت شخصا يتوقف أمامي ويخرج من جيبه علبة كبريت ويشعل السيجارة. تصور! دون ان أسأله! ان هذا لا يحدث في أي بلد من بلاد العالم. أتعلم شيئا؟ انكم أول شعب أراه يحب أن يعطي حتى ولو لم يأخذ. كل الناس تعطي وتأخذ. انتم دائما على استعداد للعطاء. . هذه هي قمة الانسانية. هذا هو ما كنت أبحث عنه طول عمري. ما ديني؟ أتعلم شيئا؟ في كل مكان يسألونني ما ديني. حين كنت صغيرا كنت أعبد البقرة. ولكنني الآن أعبد الصداقة. أتعلم شيئا؟ ولي صلواتي أيضا. أنا أحس وأنا أتحدث معك أن بذور صداقتنا تنبت. ذاك ما أعنيه. عبادتي أن أزرع بذور الصداقة وأنميها.

أنا أحس الآن أني أصلي! اكسب صديقا تخسر عدوا! أليس كذلك؟ تعلم شيئا؟ لقد أعجبني الرجل الذي أشعل سيجارتي وتكلمت معه. كان يعرف فقط نعم ولا بالانجليزية. (ييس) و(نو) فقط. . وكان رائعاً. رائعاً أن تراه وهو يحاول أن يرحب بي ويبثني عواطفه بجمل انجليزية مكونة فقط من نعم ولا، ولكنه ينطقها بطريقة

تجعل للكلمتين آلاف المعاني، وتناولت معه الغداء. دعاني.

أتريد نصيحة؟ . . لا ترفض الدعوة أبدا. كل دعوة تقبلها لا بد ستخرج منها بأصدقاء. أتعلم شيئاً؟ إن سكان العالم أكثر من العداوات التي فيه. هذه حقيقة أقسم لك. أكلت يومها طعاما مصريا حقيقيا. أجل طماطيه. أوه! نعم نعم طاميه. لا لا. طعمية. نعم نعم. لقد قضوا معي وقتا طويلا يلقنونني كيف أنطقها. وكان غداء جميلا، تصورا! . . أحببت جدا بيت الرجل وأولاده، مصريون سمر صغار لا تملك إلا أن تحبهم. وزوجته وشبحها يظهر ويختفي من بعيد، وخجلها الشرقي يمنعها من الجلوس معنا، وهي تنادي على زوجها بصوت خافت حتى لا أنتبه أنها تطلب شيئاً أو أنهم ينقصهم شيء. وضحكات الرجل، أتعرف؟ ضحككم عجيب يغري بالضحك كرائحة الشواء التي تغري بالتهام الطعام. وتصورا! رأيت الرجل وهو يعمل. وهو يعمل رفا، ابرته صغيرة هكذا ولكنه يعمل بها في حذق شديد، كم كان هذا كله رائعا. أتعلم شيئا؟ لقد جئت مصر لأتفرج على شعبها وأراه حين أصبح حديث العالم، ولكني اكتشفت شيئا آخر. انظر ما حدث. تأتي لترى شيئا واذا بك تجد شيئا آخر. جئت أتفرج عليه فاذا بي أحبه. كم كنت غبيا! قضيت أربعة أسابيع بعد انتهاء المؤتمر في كلام فارغ. . كنت أتفرج على بلاد لا تهمني في شيء. كان يجب أن آتي الى هنا مباشرة، هنا قلب العالم. هل أبالغ؟ أنا لا أبالغ. هنا قلب العالم. أتعلم ما سوف أقوله حين أعود الى الهند؟ سأقول الحقيقة. أتعرف ما هي الحقيقة؟

انني غبي. كان يجب أن آتي الى هنا مباشرة، وليس هذا كل شيء.. قابلت كونستابل ـ أنت تعرف؟ ـ كونستابل الذي اذا رقى يصبح ضابطا. من اللحظة الأولى صرنا أصدقاء عظاما.. أعطاني صورته انظر! أين ذهبت؟ ها هي ذي، يبدو كالهنود؟ آه! كنت أقول هذا.. أتعلم شيئا؟ كان ينطق الانجليزية مثلي. هل لاحظت أني أنطق أل(ال) وال (دي) في فرقعة مكتومة؟.. كل الهنود ينطقون الانجليزية هكذا، ينطقونها بلكنة أردية، كانوا يقولون لي هذا في وارسو. أجل! وارسو في بولندا.. أجل بولندا. كنت هناك في مؤتمر لدراسة مشاكل الشباب. أنا وان كنت لا أعتبر نفسي شاباً إلا أنني مهتم جدا بدراسة مشاكل الشباب. أتعلم لماذا؟ لأني أهتم دائما باليوم الذي سيجيء. والشباب. هم الأيام الآتية. تعرف شيئا آخر؟ لقد وجدت أن مشاكل الشباب في وارسو هي نفس مشاكلهم في دلهي!! قابلني هناك شاب صغير يناقشني في الموقف العالمي تماما كما يناقشني لال تيمو شلاي ابني.. نفس المنطق ونفس الحجج، ولكنه طبعا لم يقل اني يميني متطرف. سأكتب كتابا عن انطباعاتي حين أعود.. أجل! كتابا من حوالي ٣٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وغلافه بالألوان. عفوك! صديقي الكونستابل لقد أعجبت به جدا. أتعرف انه دعاني لزيارة قريته؟ انها قريبة جدا من القاهرة، تأخذ الأتوبيس الأصفر وبعد ١٥ دقيقة تكون هناك. لقد ذهلت.. أتعلم شيئا؟ لم أكن أتوقع هذا فتصورا لكأنني عدت الى قريتي تاتورا في حيدر اباد. أعجب شيء أني اكتشفت أن فقركم يشبه فقرنا

تمام، تصور الوقت الذي أضعته أتفرج على بلاد لا أعرفها.

أنا هنا لا أتفرج.. أنا أتغير. أتغير كل دقيقة. أنتم تستيقظون والحوادث تجري بسرعة.. كل دقيقة يحدث شيء. أن تصبح بلادنا بلادنا ليس بالأمر السهل يا صديقي، ليس بالأمر السهل. تصور تأميم القناة. كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لا يحتملها الموقف في العالم، ولا يحتملها شعبكم نفسه. ولكن انظر ما حدث.. حين أصبحت هنا بينكم تغير رأيي. وتصورا فتاة كباريه التي حدثتك عنها تكلمت معها في تأميم القناة، نعم تكلمت معها. أعجب شيء وجدتها متتبعة كل ما يحدث. أنتم شعب رائع! تصور اسمها باهيا، قلت هذا من قبل. يبدو أني أكرر نفسي.. هذه كارثة. فتاة سمراء طويلة واسعة العيون حواجبها مزججة كما تفعل نساؤنا في الهند. تكلمت معها كثيراً.. أنت تعرف أني أحب أن أتكلم مع الناس كثيراً. وتصورا لقد حسبتني أيضاً في العشرين. كل من يراني يحسبني في العشرين ولست أدري لماذا؟ كانت تتكلم معي بالانجليزية ولكنها كانت تخطىء باستمرار. سألتها كيف تعلمتها؟ أنا لا أخجل من توجيه الأسئلة، أنت تعلم. أن تدعي الجهل خير من أن تدعي العلم.. أليس كذلك؟ سألتها كيف تعلمتها؟ أتعرف شيئا؟ لقد اكتشفت أننا تعلمنا الانجليزية من نفس المصدر. تصور أين أنا وأين هي وتعلمناها من نفس المصدر. هي من البحارة والضباط الانجليز في الاسكندرية، وأنا من عملي في الجيش الانجليزي في الهند. اشتغلت معهم طوال الحرب. كانوا يدفعون جيدا ولكن

العمل كان شاقا. تصور هذا. الانجليز علموا المصريين والهنود الانجليزية، أرادوا هزيمتنا بتعليمنا لغتهم فاستعملنا لغتهم في التفاهم بيننا. أليس هذا أروع؟ أو تعرف شيئا آخر؟ لقد تحدثت معها في مشاكلها فأنا كما ترى مهتم بمشاكل الشباب، وهي لا تزال شابة. ومن ليلتها أصبحنا أصدقاء كبارا. وبيني وبينك باهيا هذه جريئة جدا.. سألتني أسئلة كثيرة حتى خجلت أنا الرجل. تصور أنا خجلت. كانت تبدو شريرة جدا.. أي انسان يراها لا بد يخاف. أنا خفت، ولكن أتعلم شيئا؟ قلبها كان من الداخل أبيض مثل الساري الأبيض. أخ، يا لي من ثرثار. تصور أنا بدأت أتكلم معك لأقول لك أغرب ما حدث لي مع باهيا، ولكني طول الوقت كنت أتحدث في أشياء أخرى.. انه أغرب ما حدث لي في مصر كلها، واذا بي أشط وأنسى. انه شيء مذهل يا صديقي لن تصدقه ولكنه حدث.. حدث لي مع باهيا. أتعلم لماذا قبلت الجلوس معي دون أن أطلب لها المشروب الباهظ؟ حدث الأمر هكذا.. حين اقتربت مني قلت لها يا فتاتي الطيبة أنا لست سائحا. أنا رجل فقير وأود أن أتحدث معك قليلا. هل أستطيع أن أفعل هذا دون أن أطلب لك شيئا؟ قالت مستحيل، أنت تعرف أن هذا ضروري. قلت لها اني أحب أن أتكلم معك. أنا هندي من الهند وجئت أزور مصر، وأحب جدا أن أعرف الناس وأتحدث معهم ولكن ليس معي الا ما يكفي السفر. صحيح أنا عضو في البرلمان ولكني رجل فقير. هل هذه جريمة؟

وانظر ما حدث.. قالت:

ـ انت هندي؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ كيف حالك؟

وسلمت عليّ فسألتها:

ـ لم هذا الترحيب المفاجىء؟

فقالت:

ـ لأني أحب الهنود. أتعلم لماذا؟ لأنهم يقفون بجوارنا ضد الانجليز. أرأيت هذا؟

سألتني:

ـ اذا حاربنا الانجليز هل تحارب معنا؟

قلت لها يا فتاتي الطيبة. أنا مستعد أن أفقد رأسي من أجلك. ليس من أجلك أنت بالذات ولكن من أجل شعبك.

طبعا ليس من أجلها بالذات فأنت تعرف أني رجل متزوج ولي ابن يبدو أكبر مني سنا.

قالت:

ـ صحيح تحارب معنا؟ قل الحقيقة تحارب معنا؟

قلت:

ـ انني وشعبي كله مستعـدون أن نفنى ونحن نـدافـع عنـك. أقصد ليس عنك أنت بالذات وانما عن شعبك.

وكنت أقولها وأنا مؤمن بما أقـول ايمانـا عميقا. ولكن انـظر ما حدث؟ هللت فرحا وتحمست جدا. وأنـا أحب الناس اذا تحمسـوا، انهم لا يكذبون حينئـذ هكذا كـان يقول أبي. تحمست جـدا وشدت على يـدي بقوة جعلتني أهتـز كلي. أنت تـرى أنـا صغيـر جـدا ومن السهل أن أهتز. شدت على يدي وقالت:

ـ أجبشيان هند سوا سوا.

أتعـرف شيئا؟ لـم أكن أعـرف معنى سوا سـوا ولكني أحسستها لأن قلبي ارتعش وهي تنطقها. أجل بشرفي دق قلبي هكـذا دب دب كـاللحظة التي يـرى فيها العـريس عروسـه. انفعلت جدا.. تصـورا الشرق شرقنا، الأرض الواسعة ذات الشمس والفقراء الطيبين الأقوياء بلادنا العـزيزة. الصيحـة وصلت الكباريـه، وباهيـا الطويلة السمـراء الواسعة العيون ذات الأسئلة الجريئـة والوجـه الشريـر، باهيـا تأثـرت جدا، ايد سمـراء من الخارج ومن الـداخل بيضـاء بيضاء. وتصـورا أتدرك هذا؟ حين فقط تصافحنا بأيدينا صار لنـا عشرون اصبعـاً. نعم عشرون أصبعاً متزاحمة.. أصبع أسمر بجـوار أصبع أسمـر. الطويلة ذات الـوجه الشـرير بـاهيا، أتعلم شيئـاً؟ لقـد كـدت أفقـد وعيي من الفرحة. وقلت لها:

ـ انظري هنا يا فتاتي الطيبة، أنـا لست من رواد الكباريهـات، أنـا رجـل متـزوج ولي ابن يبـدو اذا مشيت بجـواره أكبـر مني سنـا، وأشغـل مركـزا رسميا في بلادي ولكن سوف أتشـرف حقيقة اذا قبلت صداقتي.

وكنت أعنيهـا أجل تشـرفني. أتعلم شيئا؟ من لحـظتهـا صـرنـا أصـدقاء. أتعلم شيئـا آخر؟ لقـد ظللت أردد لها اسمي خمس دقـائق دون أن تلتقط منه حرفا. نعم اسمي أرجو ألا تكـون نسيته. لا، ليس كيمـورانجو. . لا، تيمـو. . تيمو شـلاي. هـ. ك تيمو شـلاي، أنت تعلم؟ لقد أخبرتك تيمو يعني شيء كالجوهـرة. اسم متعب. . أليس كذلك، ولكنه هندي مائة في المائة.

المستحيل

حدثت الضجة المعهودة خارج الحجرة، وتعالت أصوات وضحكات وتشنجت حنجرة ثم دخل المجنون ومعه مرافقوه.

وإن يرى الانسان مجنونا في الشارع مرة شيئا قد يكون مثيرا، أما أن يكون عمله هو الكشف على المجانين وإدخالهم مستشفى الأمراض العقلية فشيءيجعله يفقد حب استطلاعه، ويصبح الأمر بالنسبة اليه مسرحية مكررة لا جديد فيها ولا طريف.

ولهذا فحين دخل المجنون الجديد لم ألق اليه بالاً كثيرا. كنت قد تعودت رؤيتهم ومعاملتهم، ولم يعد جنونهم أو شذوذهم يزعجني أو يثير عجبي. وكان المريض الجديد هو الآخر داخلا مواصلا كلاما لا يعلم سوى الله متى بدأ:

ـ اسمك ايه؟

ودون أن يغير طريقة كلامه أو النغمة التي يتكلم، مضى يقول:

ـ يسرقوني ليه؟ أنا عملت فيهم ايه؟ اسمي محمد شحاته علي، والمجرم صالح الشهاوي نتش مني أربع صفايح سمنة.

ورحت أجيب الايجار من السكان فزعوا عليه بالسكاكين عايزين يدوني نكلة في الشهر ايجار الشقة. هو انا شحات؟ أنا راجل صاحب عمارات ثلاثة في شبرا السمك وأربعة في أبو الريش و. .

ونظرت إليه. .

السحنة واحدة لا تكاد تتغير. . سحنة ضامرة وأشداق مشفوطة وذقن لا بد نابتة وشعرها نام بجنون هو الآخر، تكاد الشعرة تلتوي عند نهايتها وتنقض على جارتها وتعضها، وملابس مهما اختلف لونها مهرأة وممزقة ومربوطة أحيانا بحبال.

لم يكن أكثر ولا أقل من مجرد مجنون فقير آخر.

وكل من كنت أراهم كانوا مجانين فقراء. . وكم هو عسير على النفس أن ترى غيرك مجنونا، أن ترى الانسان ذلك الكائن الحي الذكي الذي تشير له فيفهمك، وتقول النكتة فيضحك، وتصادقه فيحبك، ويؤمن فيضحي بحياته في سبيل ايمانه، وتريه الشيء فيتعلم. . أن ترى ذلك الانسان وقد تحول الى كتلة بشعة من اللحم والملابس الممزقة والتصرفات الشاذة والصرخات، كتلة لا تعي ولا تحس ولا تستجيب ولا تملك حتى أن تسقي نفسها الماء.

كان العسكري الذي يصاحبه قد وقف على يمينه وقريبه الذي جاء معه بجانبه وعلى يساره، والمجنون بينهما قصير أقصر منهما، وشعره أسود وأكرت ومهوش، والمجنون وملامحه شائخة، ولكن ليس في رأسه شعرة بيضاء واحدة. وكان حافيا ومع هذا يرتدي طربوشا قديما لا زر له ولا هيكل.

ومنذ أن دخل ووقف لم يغير وضعه أبدا، فيداه مضمومتان أمامه أحداهما قابضة على الأخرى تكاد تخنقها، ورأسه ينظر الى الأرض بزاوية، وعيناه مصوبتان الى قدميه، وكان باديا أنه لا يرى حتى قدميه وانما يخترق ببصره الأرض الواقف عليها وما وراء الأرض، ويهيم في شيء بعيد مجهول. وكذلك لم يتوقف عن الكلام وكان يبدو انه لا ينوي التوقف أبدا، وصوته يخرج لا حماس فيه ولا حرارة، ولا يرفعهولا يخفضه مهما تغير ما يقول كأنه شريط مسجل لا يتوقف دورانه، واذا سئل لا ينتظر ليعرف السؤال ولكنه يواصل كلامه ويخرج عن الموضوع الذي يتكلم فيه قليلا ليجيب، ثم يعود بسرعة الى شريطه المسجل الذي لا يتوقف، وحين عدت أستمع اليه كان يقول:

ـ يمضوني على عقد البيع أونطه؟ كنت اتهبلت أنا عشان أبيع تلات عمارات بتلاتة صاغ ونص فرنك شركة؟ أطلب منهم الأجرة يضربوني ويدوني نكلة، والبواب عايز ألف جنيه في الشهر وشركة الميه ليها عداد..

مرة أخرى حديث عن العمارات والثروات الموهومة التي كون الناس أجمعين عصابات لاغتصابها.

وأعدت السؤال:

ـ بتقول اسمك ايه؟

ومرة أخرى سكت. ونظر إليّ نظرة لامعة فيها بريق مخيف،

ثم غاد يكمل حديثه ذا النغمة الواحدة وكأنما كان سكوته خللا أصاب الشريط للحظة ثم عاد إلى الدوران.

وكانت نظرات الجنون في عيون المرضى تخيفني أول الأمر، اذ فيها ذلك الوميض المفاجىء المريع وكأن عقولهم تحترق داخل رءوسهم، وعيونهم تنفث شرر الحريق. نظرات تجعل الانسان يخاف من الجنون. ونادرا ما يخاف الانسان من انسان ولكن نظرة واحدة من تلك النظرات كفيلة بأن تجعله يخاف. . وأفظع خوف هو خوف الإنسان من الإنسان. وأول الأمر أعاملهم مثل غيري من الناس باحتراس الخائف، ولهذا كانوا دائما يرتكبون حماقات فيحاول أحدهم أن يعضني مثلا، أو يبصق على وجوه الواقفين حوله، أوتنتابه لوثة ويهم بإلقاء نفسه من الشرفة. وكان هذا يزيد من احتراسي وخوفي فقد كنت أحس على الدوام أني أمام آلة خطرة لا ضابط لها ولا رابط، كالبندقية المعبأة التي قد تنطلق من نفسها في أية لحظة وتقتل وبمضي الوقت رأيت منهم مئات، وبمضي الوقت ألفت تلك النظرات والألفة تزيل الخوف، وحارس الأسد لا يخاف من الأسد، وهكذا فقدت حيطتي وأصبحت أعاملهم وكأني لا أعامل مجانين، فأفك عنهم القيود وأعطي الواحد سيجارة وأدعه يشعلها بنفسه ويدخنها، ولا أضحك من غرابة ما يقول، وأعجب شيء أنه ما من أحد منهم عاملته بألفة وحاول ايذائي. وأيقنت آخر الأمر أن النظرات النارية التي يطلقها المجنون من عينيه وتخيف ليست في الحقيقة سوى نظرات خائف، نظرات رعب من العالم والناس يبلغ حد

الجنون. انه يؤذي غيره لخوفه من أن يؤذيه غيره، ويتوحش لاعتقاده أن الناس قد تحولوا الى وحوش.. والواقع اننا كثيرا ما نتحول الى وحوش. اننا اذا رأينا شذوذا في تصرفات انسان لا نغفر له ونعامله بقسوة وكأنا نعاقبه على شذوذه، وبهذا تصبح تصرفاتنا شاذة في نظره ويزيد حينئذ شذوذه، وقد يكون الأمر في مبدئه حبة فنصنع منها قبة، ويكون التصرف الشاذ بسيطا فنقلبه الى جنون مطبق، ونصف المجانين مجانين لأنهم مرضى، والنصف الآخر لأننا أرغمناهم على الجنون.

ولم أكن في حاجة الى فحص كثير لكي أدرك أن الرجل الواقف أمامي تنطبق عليه كما تقول اللائحة، أحكام المادة كذا من قانون الأمراض العقلية.

ولكن كان لا بد من بضعة أسئلة أخرى تعذبني وأنا ألقيها وأسمع الاجابة عنها، فالانسان منا اذا وقع نظره على عين أعور أو أعمى أو ساق مبتورة اقشعر وأحس بألم ممزوج بالخجل وكف عن النظر، فما بالك حين يحادث الانسان شخصا ذا عاهات متعددة ليس باستطاعته أن يرى أو يسمع أو يفكر، وإذا كان من المؤلم أن تقول للمشلول إجرِ، فمن المؤلم أكثر أن تسأل فاقد العقل وتطلب منه أن يجيبك ويفكر، ومع هذا كان لا بد أن أسأله، فقلت له كالعادة:

ـ عارف النهارده ايه؟

وبنفس الهمهمة المستمرة التي لا تنقطع مضى يقول:

ـ شافوني داخل مسكوا في خنـاقي، النهارده أول الشهـر وبقى لهم ثـلاثة أشهـر مـا دفعـوش الإيجـار، والمحضـر سـاكن في البيت والثلاث عمارات يتباعوا والبيع لازم يحصل النهاردة.

وهـززت رأسي لا أدري مـا أقـولـه، والـرجـل ذو الـطـربـوش المزعزع فوق رأسه واللحم الجاف الشاحب الظاهر من خرقه يتحدث عن العمارات وبيعها، وقريبه واقف ينظر بمرارة وقلق وتحت ابطه لفة لا بد فيها طعـام رفض المريض أكله، ووراء وجـودهما أمـامي لا بد قصة. قصة طويلة حافلة، فـأن يجن واحد في العـائلة مأسـاة، واذا كانت العائلة فقيرة فالمـأساة أفـظع اذ لا بد قبـل أن تعترف السلطات بصحـة الخلل الـذي طـرأ على قـوى الشخص العقليـة، أن يـرتكب حــادثـة أو أكثــر ويحـاول قتـل نفسـه على الأقــل مـرة، ويصبــح وجوده(خطرا على أرواح الأهالي وممتلكاتهم). بعـد هذا وليس بـأي حـال قبله، يصبح في استـطاعـة أهله أن يقـدمـوا بـلاغـا الى القسم والقسم يتحرى، وبعد أن يتم التحري يرسل عسكري، ويعـود الأهل اذا كانوا محظوظين آخر النهار الى الحارة أو الـزقاق ومعهم عسكـري ويؤخذ المريض الى القسم عنـوة ويضرب زفـة، وهناك يفتـح محضر وسين وجيم، ثم يـرسـل المـريض بخــطاب وفضيحــة الى مفتش الصحـة. واذا كان حظ المـريض من نـار ظهـر الخلل واضحـا أمـام مفتش الصحة، فاذا اقتنع بمرضه أحاله الى القسم مرة أخـرى، والى أن تـأتي عربـة المستشفى يـوضـع المـريض في السجن على انفـراد ومكتفا لا يستطيع حراكـا، ولا تأتي العـربة في العـادة الا بعد يـوم أو يومين أو اذا آن الأوان، واذا جاءت ظلت ترفعه وتهبده، ، والتومرجية

في المستشفى يرفعونـه ويهبدونـه حتى تصعد البقيـة الباقيـة من عقله الى بارئها.

لا بد أن يحدث كل هذا قبل أن يصبح من حق المريض بعقله ان يستلقي فوق سرير المستشفى الكالح.

ولا بد أن كل هذا قد جـرى ويجري لمحمـد شحاتـة. . على الواقف يتحدث أمامي حديث خالي البال عن العمارات وأصحابها.

وإذا كان الفقر في حد ذاته يهد كرامة الإنسان وآدميته فما بالك إذا جن الفقير؟

قلت له لأسهل الأمر عليه:

ـ لأ يا عم محمد النهارده الأربع، ويبقى بكره ايه؟

ودون ان يغير طريقته قال:

ـ ان شـاء الله بكـره السبت، بكـره سـوق السبت أبيعهم في السوق بالمزاد العلني، واللي ما يشتري يتفرج والفرجة بقـرش واللي حاضر.

وكنت أعتقد قبلا أن الجنون حالة كالموت يتساوى فيهـا الناس اذا فقدوا عقولهم ويصبح كل مجنون نسخة من الآخـر، واذا بي أجد أن الأمـر غيـر هـذا بـالمـرة. فهم ليسـوا قـطيعـا واحـدا من فـاقـدي العقـول. . كل منهم كـائن مستقـل بـذاتـه وقصتـه ومسلكـه الغـريب الخـاص به، حتى الكـلام لكل طـريقته المعينـة التي لا يحيـد عنهـا والدائرة التي يدور حولها كلامه لها نصف قـطرها الخـاص به والـذي قد يكون عمـارة، وقد يكـون عصابـة، وقد يكـون غضبه من أهـل أو

حبيب.

كانت حالة الرجل واضحة. . وكان ممكنا أن أكتفي بالأسئلة القليلة التي وجهتها وأملأ خانات الاستمارة وانتهي من(الحالة)، ولكننا أحيانا تخطر لنا خواطر فتقودنا الى اكتشاف آفاق لم نكن نستطيع الوصول اليها بالتدبير والتمعن والتفكير، والخاطر الذي خطر لي لم يكن من قبيل الصدفة اذ لم أكن أنظر الى المريض على أنه مجرد(حالة) أخرى، كانت مشكلة العقل البشري تحيرني وتجبرني على التفكير. هذا العقل. . هذا الجهاز المذهل الكامن في تجويف الرأس المزدحم بالأفكار والحوادث والغرائز والمشاعر والذكريات. . هذا الساحر الصغير القادر على أن يحيل الحجر إلى ماس والخاطر إلى اختراع والغريزة الدنيا إلى غريزة سامية عليا، تلك البوصلة الرائعة في دقتها التي تحدد الشرف وتقيس المعقول، وتربط ألف فكرة بألف فكرة، وتخرج بنتيجة وتصنع من النتائج أحكاماً وقوانين، هذه المعجزة التي تحل أعقد الطلاسم وتتذكر أدق التفاصيل وتحس وتفرق بين الأحاسيس، هذه المساحة المتناهية الصغر التي تخلق وتضع الخطط العميقة، وتبتكر ملايين الكلمات والتعبيرات وتحوي كل هذا وتحفظه، هذا العقل الذي يحتوي الدنيا كلها بما عليها ولا يضيق، ترى ماذا يحدث له حين يختل وتشب فيه النار؟ ما هو الأصيل الذي يبقى، وماذا فيه يستحيل إلى دخان؟ وعم محمد شحاتة علي الواقف أمامي لم يغير وقفته، ترى ماذا طار من عقله وماذا لا يزال كامناً مقدساً في أخاديد تفكيره؟!.

والمسألة نسبيـة لا ضابط لهـا ولا رابط، فقد لا يكـون بعضهم يعرف اليوم الذي هو فيه ولكنه يرفض أن تتعرى أجـزاء جسمه، وقـد لا يعرف اسمه ولكنه يخنقك اذا شتمته.

وكنت أحب ذلك الحوار الـذي يدور بيني وبين المريض، فاذا كان الانسان العادي له عقل بالـغ التعقيد فـالمجنون بسيط والمشكلة التي تحيره واحدة ويقول ما يريده على الفور وبصراحة، وتستطيـع أن تقرأ تفكيره بسهولة وتعرف ما احترق في عقله وما لا يزال سليما.

وسألته:

ـ ايه اللي مضايقك يا عم محمد؟..

وكان لا يزال على نفس وضعه، لم يرفع بصره مرة وينظر حوله وسيال حديثـه مستمر وكـأنه يتحـدث الى كائنـات أخرى لا نـراها ولا تتبرم بحديثـه، يتحدث وكـأن لا زمان هنـاك ولا مكان، ولا يهمـه إن كـان هناك زمـان أو انسان أو مكـان، والبقية البـاقية في رأسـه تطحن الكلمات والجمل فتخرج كالدقيق الناعم المستمر لا انفعال فيهـا ولا ادراك. وحين سألته كان لا يزال ماضياً في قوله:

ـ سلطوا عليّ نسـوانهم بالشبـاشب هانـوني.. تعبـوني قـوي. سكـان متعبين وبيـدفعـوا في الشقـة نكلة ايجـار قـديم، ولازم أبيـع العمارات حالا قبل ما يهدوهم.. الجدع ده سلط عليّ مـراته قلعتني الهدوم في الليل وسرقت المحفظة..

وتدخل قريبه الذي كان واقفاً:

ـ ما تصدقوش والله العظيم ما حد عمل فيه حاجة.

وتطلعت اليه.. سحنة ضامرة أخرى، ولحية نامية، وملابس مهلهلة لا تكاد تفترق عن ملابس المجنون حتى كدت أسأله هو الآخر عن اسمه واليوم الذي نحن فيه، وربما لو كنت سألته لما كان قد عرف. وتلك ظاهرة غريبة فلا بد أن يكون مع المجنون قريب، ولا بد بطريقة أو بأخرى أن يخرم المريض على أقربائه ويتهمهم أي اتهام، والأغرب من هذا أن القريب لا بد يدافع عن نفسه بحرارة، وكأن الاتهام صادر عن عاقل أو كأنه صحيح.

وأشرت للقريب أن يسكت ولكنه لم يفعل، بل مضى يدلل ويروي على مسامعي كل ما قام به المريض من أفعال خارقة وكأنما ليثبت لي أنه حقا مجنون وكلامه فارغ، وبينما هو يتكلم بحرارة كان المريض يقول:

ـ كلهم حرامية ما تصدقوش دول كدابين. بيقول كده عشان يوديني في داهيه وياخد هو حق العمارات.. قال لي امضي على بياض عايز ينهبني. دول على ذمتي تلات عمارات يسووا ١٥٠ قرش وأبيعهم بنص فرنك؟ حرام أنا يتيم.

وقاطعته وسألته:

ـ انت عارف ده مين؟

ودون أن ينظر اليه استمر:

ـ يتيم، أمي ماتت السنة اللي فاتت وده حرامي ابن حراميه.

وكادت تفر دمعة من عين قريبه وهو يقول:

ـ أنـا حرامي يـا محمـد؟ الله يسـامحـك يـا محمـد يـا بن أمي وأبويا، تقول عليّ حرامي يا محمد وأنا أخوك؟!

وسألت المريض:

ـ عارف بلدكو اسمها ايه يا عم محمد.

ـ عـايزين يـاكلونا بـالحيا.. بلدنـا بلد الفقر والعنـطزة هناك ع التـرعه وعنـدها محـطه وسبيـل. والعمـارات ٤ في بـاب الحـديـد و ٣ في ستنا نفيسة وعقـد البيع جـاهز على الامضـا، ومش ممكن أقل من خمسة صاغ الواحدة.

وسألته:

ـ انت متجوز يا عم؟

واستمر:

ـ ويجيني المشتري لحد عندي.. كتفوني امبارح وحطوني في شوال وقالوا تجوز أمك يا تتنازل عن العمارات.

وتدخل قريبه:

ـ عيب كله الا أمك يا محمد.

ثم التفت إليّ وأكمل:

ـ ده مجوز ومخلف رجاله وسيبينه كده، وأنا اللي بصرف عليه وحياة الحسين.

وعدت أسأله:

ـ لك أولاد صحيح يا عم محمد؟

واستمر يهمهم

ـ أتنازل ازاي؟ ما اتنازلش.. أنا مليش أولاد، أنا لي عمارات بس، ولازم ابيع النهارده واقبض التلاته صاغ كاش!..

وأخرجت الاستمارة من درج المكتب استعدادا لملئها.

وفي العادة كنت اذا وصلت الى هذا الحد وتأكدت من المرض، تنتابني موجة من اليأس فأهاود المريض على عقله وأمزح معه وأحدثه بأي كلام قد يخطر لي على بال، وكأني أعتذر له سرا لأني سأثبت في الاستمارة حالا انه مجنون.

ومع عم محمد أيضا قلت:

ـ انت عايز تبيع العمارات صحيح؟

فأجاب على طريقته:

ـ منهم لله عايز أبيعهم كلك على بعضك بيعه وشروه بالوقه، وأنا أصلي..

قلت:

ـ تبيعهم للعسكري ده؟

فاستمر:

ـ وأنا أصلي أبيع . .

ـ تبيعهم لأخوك أحسن؟

ـ وأنا أصلي أبيع . .

ـ والا تبيعهم لي وتكرمني؟

ـ وأنا أصلي أبيع .

ـ أقول لك يا شيخ . . بيعهم للانجليز واخلص .

ـ وأنا أصلي أبيع ، لا الانجليز . . لا انجليز . . ما انجليز من رابع المستحيل . .

وفوجئت برفضه فسألته وأنا أستغرب:

ـ ليه اشمعنى الانجليز لأ؟

وعاد الشريط يدور:

ـ لا لأ كده الله الله ع الجد أبيع لربنا حتى والكمبيالات جاهزة والمستندات تحت الطلب واللي ما يشتري يتفرج ، والانجليز لأ .

٦٦١

التمرين الأول

كان عجيبا هذا الاحساس المفـاجىء الذي أصـاب طلبة(ثـالثة رابع) وجعلهم يستمرون في أداء التمرينات الرياضية بعد انتهاء الحصة، وأيضـا أثنـاء الفسحـة التي بين الحصتين ثم يـأخـذون خمس دقـائق أخـرى من الحصة التـاليـة.

كـان هـذا عجيبـا، اذ طـوال أيـام الدراسة كانت أمنية كل منهم أن يصحو من نـومه فيجـد المدرسـة قد نسفها طوربيد أو ابتلعها بركان.

كانوا، كغيرهم من الطلبة، يكرهون المدرسة كرهـا لا يعرفـون له سببا، ويبدأ ذلك الكره مع بدء كل يـوم، بل قبـل أن يبدأ اليـوم. فـالطالب لا يستيقظ من نـومه الا مقـروصا أو معضـوضا أو مـطروحـا أرضا، ثم يدفع الى المدرسة دفعا، ودائمـا في وداعه شيء.. دعـوة عليـه، شتمة، أو فـردة شبشب. وينسـل الى الشـارع ويـظل يجـري ويجـري ملتصقا بعـامود تـرام أو مهرولا فـوق رصيف، والشتـاء بـارد والصبـح أبرد.. أبـرد من الحصص الاضافيـة، والـرعب يمـلأ قلبـه مخافة أن يصل متأخرا ويجد باب المدرسة مغلقا ويضيع اليوم، ويقيد غائبا ويروح في داهية.

وما يكاد يصل الى المدرسة ويجدها قد امتلأت بالأشباح المقرورة من أمثاله التي تبحث عن الشمس، فالشمس ليست مثلهم تلميذة في مدرسة. انها لا تصحو ولا تضيء صباح الشتاء الا في العاشرة أو ما بعدها. ما يكاد يصل وما تكاد المدرسة تفتح ذراعيها وتضم تلك المجموعة الضخمة من الفتيان، وما تكاد جدرانها تهب من رفادها الطويل الوحيد وتشارك الطلبة مرحهم وتردد لهم أصوات زعيقهم وضحكاتهم، ويتلمظ حصى الفناء منتشيا وهو يستقبل الأقدام الصغيرة الشابة ويلثمها وقد طال شوقه اليها.. وما تكاد الأشجار تهفهف بأوراقها وتشقشق سعيدة بجري الطلبة حولها وجذب شعورها وأغصانها.. ولا تتألم حتى حين يحفرون أسمائهم عليها، ما يكاد الطلبة يحسون انهم كائنات حية لها أماني ورغبات وأحلام وأحاديث، ما يكاد هذا يحدث حتى يدق الجرس.. تتم. تتم. تتم.

وفي الحال تهمد الحركة وتخرس الألسنة وتتجمد الرغبات، اذ ما يكاد الجرس يدق حتى يغلق الباب.. باب لا بد ضخم متين كأبواب السجون. وما يكاد الباب يغلق حتى يفطن الطلبة الى وجود السور.. سور لا بد عال هو الآخر ومزود بالأسلاك الشائكة ان أمكن..

ومع دقة أخرى من الجرس يزحفون صوب مكان الطابور مطاطئي الرؤوس وقد تضاءلت أمانيهم وانكمشت، وأصبح الواحد منهم مجرد تختة أو دواية أو قلم بسط رخيص عليه أن يكتب ويكتب ولا ينقصف سنه أبدا.

تلك التمتمات الثلاث تعني أن اليوم الدراسي قد ابتدأ، وويلهم من اليوم الدراسي حين يبتدىء! حتى الجرس الذي يبدأ به اليوم جرس كالح قديم عليه صدأ أزرق، وله بلبلة أضخم من حجمه واقفة في وسطه كما تقف اللقمة في الزور. حتى صوت الدقات يخرج وفيه من الأنين أضعاف ما فيه من رنين، أنين يعلوه الصدأ هو الآخر. . صدأ أزرق كالح كئيب.

حتى الفراش الذي يدق الجرس لا بد أن يكون عجوزا خطير الملامح، ولا بد أن يكون له شارب كث يخيف، ولا بد أنه يحس أنه نابليون زمانه أو اسرافيل عصره وأوانه، ولا بد له ساعة. . أخطر من أية ساعة في الدنيا هي التي تحرك عقاربها المدرسة كلها، ولهذا لا بد لها من مخلاة سوداء صغيرة يضعها فيها مبالغة في الحرص عليها، ولا بد أن تجده واقفا تحت الجرس ينتظر ممسكا بالساعة محدقا فيها، حريصا عليها في يده كل الحرص وكأنها قنبلة زمنية اذا حركها ستنفجر. وقبل أن يحين الحين يقبض على سلسلة الجرس. . سلسلة لا بد قديمة أو موصولة بدوبارة، ثم تأتي اللحظة فيجذب السلسلة، يجذبها بتؤدة وتقل وكأنه يفرغ الحكمة العليا في تمتماته الثلاث. .

وأول ما يسمع بعد الجرس من الأصوات هو:

ـ اخرس. . بطل كلام.

وبهذا الأمر تقطع كل صلة للطلبة بأنفسهم ويخرسون، ويبدأ

المدرسون الذين يفتشون على الطابور في الكلام، ويخرج كلامهم طازجا على الصبح ومنتقيا بعناية بحيث لا تندس بينه أبدا كلمة حلوة، يفرغون فيه كل ضيقهم باليوم الذي أصبحوا فيه مدرسين، وبالمهنة الصعبة التي اختاروها لأكل العيش، وينتقمون من مشاكل الكادر والأمس وشتائم الحماة ومرض الطفل وارتفاع أسعار الصوف. .

ثم يظهر الناظر. .

يطل على الطابور الصامت بوجه لا صباح فيه ولا خير. . يحدق في الطلبة فيموت الطلبة، وفي المدرسين فينكمش المدرسون، وفي الصمت فيقشعر الصمت. .

ولا بد أن تكون لدى الناظر مفاجأة لا بد لها من مقدمة شتائم طويلة، ثم حديث عن النظام مثلا، وكيف أنك لكي تدخل الجنة. . اذا أردت دخول الجنة فعليك أن تبدأ السير في الطابور بالساق اليمنى، وأن تسير اثنين اثنين، وكيف أنه.لكي تحل مسألة الجبر لا بد أن ترتب ملابسك بنفسك في دولابك الخاص، وكأن لدى كل طالب ملابسه الخاصة بل دولابه الخاص.

أو يتحدث عن الطالب الذي ضبط وهو يسرق البيض من المطعم، وأحيانا لا يكتفي بالحديث فيخرج الطالب نفسه ليريه للجميع، ويجعل منه أمثولة وعبرة.

أو ينبه تنبيهاً صارماً قاطعاً أن كل من لم يدفع المصاريف عليه بمغادرة الطابور، ومن ثم المدرسة كلها في الحال.

ووجهه طوال حديث الصباح جامدا عابس. والطلبة واقفون الدقائق الطوال كالخشب الخائفة المسندة لا يعرفون سببا لذلك الرعب المفاجىء، ولا سرا للعبوس الشديد في وجه الناظر، هل مات له قريب؟ غير معقول هذا، فهو كل يوم عابس وليس معقولا أن يموت له كل يوم قريب، عسى أن يموت له كل يوم قريب!

ثم يدور الطابور الى اليمين أخيرا والى اليسار، وكل يبتلع ريقه ويتحسس رقبته ويتنفس الصعداء.. فقد نفذ هذه المرة ولم يكن الطالب الذي سرق البيض، ولم يخطىء ويبدأ المشي بالساق اليسرى، ولكن تراه كيف ينفذ في المرات القادمة؟.

ومن خلال ممرات كثيبة طويلة متشابهة يدلفون الى الفصول.. فصول مكررة حيطانها طويلة هيفاء عالية، ولونها تصر الوزارة على اختياره حشمة لينظر الناظر اليه ويرسي في قلبه الوقار.

وما تكاد الحياة تدب في الفصل وتتحرك التخت والمقاعد ويذهب عنها الروماتيزم الذي يصيب مفاصلها كل ليل، حتى يقبل المدرس فجأة، لا بد أن يقبل المدرس فجأة ـ وكأنه ضابط مباحث في طريقه الى ضبط واقعة ـ لعله يسعد ويحس بالسلطة حين يحدث ظهوره المفاجىء سكوتا مفاجئا، يقبل ولا ينفرج وجهه مخافة أن تضيع الهيبة.

ـ قيام!

واذا بالفصل كله يتلكأ ويقوم، ولا يدري لماذا يقوم.

ويحدق المدرس طويلا في تلاميذه وكأنهم يحرزون مواد ممنوعة وهو يفتشهم بعينيه تفتيشا دقيقا. فاذا عثر على الهفوة كان بها، والا فإنه يقول:

ـ جلوس!

يقولها قرفانا وكأنه يمن عليهم بفضل من عنده.

وتتوالى الحصص ويتوالى المدرسون وكل منهم كالجهاز المعبأ الذي يفرغ شحنته بمقدار، اذ هو الآخر ليس أكثر من موظف حكومة له عمل يؤديه ثم يمضي. وكل ما يسمعه الطلبة أوامر تترى، وأشياء غريبة تخرق أسماعهم وتتفجر كالصواريخ في عقولهم. سمّع يا ولد ما قاله الكميت في وصف ناقته. اذكر ثلاثين شرطاً من شروط الصلح في معاهدة واق الواق، وإذا نسيت شرطاً فبعصاية ما اسم البلاد التي تزرع الشوفان؟ (والمدرس نفسه لا يعرف ما هو الشوفان). تخيل انك على خط عرض ٢٣ وتريد أن تسافر إلى خط طول ٨٥ بطريق البر فأي الطرق تسلك؟ أعرب أبيت اللعن، ما هي حالة الطوارىء التي يصح فيها رفع المستثني بإلا؟ تكلم على لسان طائرة تريد أن تفاخر السيارة وتتيه عليها فماذا تقول؟.

ومع توالي الحصص وتنوع الدروس تتنوع الشتائم وتتنوع كذلك لغتها، فهناك شتائم فرنسية رقيقة، وشتائم نحوية فصحى، وشتائم كيميائية مركبة ومخلوطة، وأقل ما فيها؛ نزل ايدك يا ولد. وشك في الحيط يا أحمق. اطلع بره يا صعلوك. التفت يا لوح. حل المسألة يا أغبى مخاليق الله. وأحيانا يفيض الكيل ولا يعود ثمة بد

من المواجهة السافرة فتنطلق الكلمات: مـا تنحرق انت وهـوه. اتنيل يــا شيـخ. اتلهي. انتم تنفعـوا انتم؟ انتم بـلاوي. انتم رمم. انتم جايين هنا ليه. انتم مالكم ومال المدارس؟ روحوا لموا سبارس.

حتى الكراريس، كانت هي الأخرى تشاطر الناظـر والمدرسين وجلدتهـا مملوءة بالأوامـر والنواهي. لا تبلع الـطعام. لا تمضـغ. لا تستنشق الهـواء. لا تمش. لا تجلس. لا تتحدث. عليـك بـالحلم. عليك بالطاعة. عليك بإمساك نفسك ساعة الغضب.

ورغم هذا النظام الصارم، ورغم أن المدرسـة كانت على حـد قول الناظر تمشي كالسـاعة، ونسبـة الحضور أعلى النسب، وأحـذية الطلبة كلها تلمع، والحوش الواسع خال تماما من الأوراق.

ورغم أن الأولاد ـ على حـد قول قـول أولياء الأمـور ـ كانـوا لا يلعبون، ويذاكرون، اذ هم واقفون لهم بالمرصاد. ما تكاد المدرسـة تتـركهم حتى يتسلمهم الأولياء، والـويل للتلميـذ اذا تأخـر بـره أو لم يقض الساعات منكبا على كتبه يتلو ويذاكر. رغم هـذا الا ان الطلبـة كانوا لا ينجحون، ويفشلون بالمئات والعشرات، ويقـابلون الدراسـة باستهتار، وينـامون في الحصص، وإن واتـاهم الأرق أقامـوا حفلات تـرفيه، وتبـادلوا القـرصات والـزغدات والضـرب على القفا، وكتـابـة الخـطابات المملوءة بـالشتائم، وتكـوين العصابـات وشرب السجـائر وسب المدرسين، ومزاولة العادات في السر والعلن.

وكان الطلبة أيضا ورغم كل شيء يتساءلون هم الآخرون لمـاذا

يـرسبون؟ ولمـاذا يكرهـون المدرسـة؟ ولماذا يعـاكسون المـدرسين؟ ولماذا يقضون أتعس الأوقات مع انهم يسمعون الناس تقول إن أحلى أيام العمر هي الدراسة؟

كان الناظر والمدرسـون يحاولـون تفسير الأمـر ويقولـون: إنهـم طلبة هذه الأيام ومساخرهم وتفاهتم.

وكان أولياء الأمور يقولون: هي حكمة الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب. وكان الطلبة يقولون: بل هو الحظ، بضربة حظ تنجح، وبضـربـة أخـرى تفشـل، يـا رب كثيـر من الحظ يـا رب. . كثـر من الحظ.

وذات يوم أتيح لطلبة ثالثة رابع أن يمروا بتجربة.

كان مدرس الرياضـة البدنيـة عملاقـا ضخما رهيبـا، كتفه تهـد الجبل وزنده في حجم الفخـد وقبضته تحيـل الرءوس الى جمـاجـم، ولـم يكن في حصته مكان للترفيه أو العبث. فقد كان طلبة ثالثـة رابع كغيرهم من الفصول يخافونه، ويخافون اذا عنّ لواحد منهم أن يعبث في حصته ألا يرسله كالعادة الى المشرف أو يخرجه من الفصل مثلا، وانمـا يتولى العقـاب بنفسـه وقـد يتـولاه بقبضتـه، والكف عن العبث بالتأكيد أسلم نتيجة من عقاب يتولاه مدرس الألعاب بقبضته.

كان يأتي، وقبـل أن يدخـل الفصل يكـون الفصل واقفـا كله، وبـإشارة منـه يخرج الـطلبة عن الأدراج، وبإشارة أخرى يصـطفـون ويهبـطون السلالم دون أن ينبس أحـد ببنت شفـة، وفي سكـون تـام

يخلعون الجاكتات، ثم يتسلمهم العملاق بتمريناته. ثني مد. رفـع. ضم. افتـح سدرك. شـد وسطك. اخبط الأرض بـدماغـك. وشـك فدق. عايز الجزمه تطلع شرار.

وهكـذا الى نهـايـة الحصـة، حتى تتـدلى الألسنـة من الأفـواه وتتجمـع الرغـاوي.. وتتشقق الحلوق وتتقـطع الأنفـاس، ولا يجـرؤ واحد أن يقول آه أو لا.

عقـل سليم جسم سليم، هكـذا كـان يقـول. ريـاضـة يعني رياضة. عايزين رجالة مش حريم. دلع مش عايز دلـع. كلمة واحـدة أقـطم رقبتك. بص قـدامـك. لم نفسـك. تخشب. التمـرين الأول ابتدى.

وكـان الطلبـة حين تنتهي الحصة يقضـون بقية اليـوم في ترميم أنفسهم والتماس النقاهـة. ويقضون بقيـة الأسبوع في تمن أن ينسف الطوربيد مدرستهم على الأقل قبل حلول حصة الألعاب التالية..

وفـوجىء الطلبـة ذات يوم بخبـر نقل مـدرس الألعـاب ومجيء مدرس جديد. ولم يتحمس الطلبة للخبر فكل المدرسين كانوا لديهم سواء.. كلهم رجال كبار حكماء معصـومون من الخـطأ وأذكياء جـدا ومتعلمون بغزارة، وبعيدون عنهم تماما هم الصغار الحمقى الجهـلاء الـذين تكمن فيهم كـل العيـوب والـذين لا يفعلون سـوى ارتكـاب الأخطاء تلو الأخطاء..

وجاءت حصة الرياضة البدنية..

ودخل الحصة شاب لا لحية لـه ولا شارب، ولا يـرتدي ربـاط عنق وانمـا وضع يـاقة القميص فـوق الجاكتـة وفتـح صـدره. وعـادة المدرسين أن تكون الياقة منـطبقة على العنق وعلى ربـاط العنق تمام الانطباق.

وغادروا الفصل وهبطوا السلالم وخلعوا الجاكتات، ووقفوا كما كـانوا يقفـون وراحـوا يؤدون التمـرين الأول كمـا كـانـوا يؤدونـه أيـام المدرس السابق.

غير أنه لم تكد تمضي دقيقة واحـدة حتى طلب منهم المدرس أن يتوقفوا. وفعلوا هذا مستغربين وقال المدرس:

ـ اسمعـوا يا جمـاعة. . أنـا أحب الصـراحـة وانتم واضـح من حـركاتكم ان مـا عندكـوش أي حماس للعب. فبصـراحـة مين فيكم يحب يلعب؟ اللي عايز يلعب يرفع ايده.

لم يكن المدرس نفسه يعلم ماذا دعاه لإلقاء هذا السؤال، لعله خاطر عنّ له. . لعله لم يقصد. .

ورفع الطلبة كلهم أيديهم مخافة أن تكـون خدعـة مقصود بهـا كشف الـذين لا يـريـدون، فمـدرس الفـرنسـاوي عـودهـم أن يبتسم للواحد منهم ويعطيه الزيرو.

وفوجئوا بالمدرس ينقبض وجهه ويقول:

ـ أنـا لا أحب الكذب أبـدا، وغيـر معقـول أن كلكم عـايـزين تلعبوا. أنا أحب العلاقة بيننا يكون أساسها الصدق. اللي عايز يلعب

من فضلكم يرفع ايده.

بدا الأمر جدا لا هزل فيه.. ان المدرس يريد حقيقة أن يعرف رأيهم وكان هذا غريبا.. فهم لم يعتادوا أبدا أن يؤخذ رأيهم في شيء. انهم منذ ولدوا وثمة قوى تدفعهم دفعا لا يعرفون الى أين، ولا يسألهم أحدا ماذا يحبون أو ماذا يكرهون. كل الناس تقول: هذا لمصلحتهم، ولا أحد يخطر له أن يسألهم عن رأيهم في مصلحتهم.

ونظر الطلبة بعضهم الى بعض وتولاهم شيء غير قليل من الاستهتار، ماذا يحدث؟ لقد سألهم رأيهم فلماذا لا يقولون الحقيقة؟

وأنزل الطلبة كلهم أيديهم، كلهم ما عدا واحد أو اثنين من هؤلاء الطلبة الذين يقضون العمر خائفين من العقاب ومن احتمالاته. ولكنهم وجدوا الكل لا يريدون أنزلوا أيديهم هم الآخرون خوفاً من العقاب الطلبة لهم هذه المرة.

وعادت الابتسامة الى وجه المدرس وقال:

ـ برافو! أهو كده.. أنا أحب الصراحة.

برافو! لا بد أن ذلك المدرس مجنون أو به هفة، قال الطلبة هذا لأنفسهم وهم يحسون بفرحة غامرة وعيونهم تكاد تدمع. والحقيقة أن فرحتهم كان لها سبب آخر، كانوا وهم يتبادلون النظرات وينزلون أيديهم يرتعشون من الخوف، فقد كان كل منهم يعبر عن رغبته وكان يحس أنه يرتكب اثما عظيما، فاذا بالمسألة لا جريمة فيها واذا بالارتباك يزول واذا بالفرح يعصف بهم، فقد استطاعوا آخر الأمر أن يقولوا شيئا، يقولوا لا ولا يشنقون، فلا بد أن المدرس مجنون ولا

بد أن به لوثة .

وسكت المدرس قليلا ثم عاد يقول:

ـ غـريبه! اجمـاع رهيب على كره الـرياضـة. ليـه؟ أمـال بقيـة العلوم بتكرهوها ازاي؟

وتـطوع أكثر من طـالب بالاجـابة والتفسيـر. وكانـوا يتحـدثـون بنبرات لا اضطراب فيها ولا وجل. كانت ثمة ثقة قد ملأت صدورهم وأحسوا ربما لأول مرة أنهم آدميون لهم الحق في الكلام .

واندفع ثلاثة طلبة أو أربعة يطلبون اللعب، كان ما يـدفعهم في الحقيقة هو حماسهم للمدرس الشاب ذي الابتسامـة، وليس رغبة في مزاولة اللعب.

وقال المدرس لبقية الطلبة وهو يضحك:

ـ افرنقعوا . .

وهلل الطلبة وكـأنهم أفرج عنهم بعـد طول سجن. ودون وعي راحوا يضحكون ويتعـانقون ويتضـاربون، وانسحبت أقليـة ضئيلة الى المظلة ورقدت على الدكك قائلة وآدي نومه! . .

وجرى طالب وراء آخر وشنكله .

ووقفت الأغلبية وقد ارتدت ستراتها تتبادل اللكمـات الخفيفة، وتتفـرج على المـدرس وهـو يؤدي التمـرين الأول مــع المجمـوعــة الصغيرة التي أرادت اللعب.

وقفوا يتفرجون بكل استهتار، يضحكون على المدرس وعلى الأخطاء التي يقع فيها زملاؤهم ويدردشون.

كانوا يحسون بانتعاش وكأنهم يشمون أيدروكسيد أمونيوم حديث التحضير.. أن يحس الانسان أنه ليس مرغما.. أن يكون في وسعه ألا يفعل، أن يصبح في استطاعته أن يختار.. أشياء ما كانت تخطر لهم على بال.

وحين كانوا يصعدون السلالم بعد انتهاء الحصة كانوا لا يزالون غير مصدقين أن ما حدث كان حقيقة، وأنهم استطاعوا ولو لمرة واحدة في العمر أن ينفذوا من حصة الألعاب.

ومضى اليوم ولا حديث لهم الا عن المدرس الظريف الشاب الذي أصابته لوثة أنقذتهم من الرياضة والأشغال الشاقة.

وطوال الأسبوع ظل كل منهم في شغف حلول حصة الألعاب التالية ليعفى من الألعاب.

وجاءت الحصة.. وجاء المدرس حليقا مبتسما وياقته مفتوحة أيضا. وقبل بدء التمرين الأول أكثر من ابتساماته وقال؛

ـ هيه يا جماعة.. اللي عاوز يلعب يرفع صباعه.

ورفعت أقلية ضئيلة أصابعها. بينما وقفت الأغلبية في أماكنها لا ترفع أيديها ولا تتحرك، وكل منهم يريد أن يعرف ما سوف يفعله الآخرون.

ولما طال الوقوف قال طالب لآخر وهو يـدفع عنـه يده التي قـد امتدت تهوشه:

ـ أنا ح العب يا عم.

وسرت همهمة. تعالت ثم تبلورت في رأى:

ـ وايه يعني؟ نلعب وإذا ما عجبناش نبطل لعب. هـو مش قال كده؟

وهكذا ارتفعت أصابع الأغلبية.

وما كادت تمضي دقيقة حتى تثاءب واحد وقال:

ـ أنا تعبت. . كفايه بأه.

وانسحب، ولكنه لم يذهب بعيدا بل وقف يتفـرج، وحين وجد أن أحدا لم يتبعه تردد برهة، وتثاءب مرة أخرى ثم عاد الى مكانه.

ولم ينسحب بعـده أحـد. بـل كلمـا أحس أحـدهم أن في استـطاعته أن يتـوقف إذا أراد، كلما أحس بهـذا ازداد حماسـة وشعر بطاقات هائلة تنفجر من جسده.

وبلغ التنافس أشده.

وتعالت أصوات تهيب بالمدرس أن ينتقل الى تمرين أعنف.

وانتهت الحصة ودق الجرس والحماس لا يفتر.

SS

٦٧٥

وتأخرت ثالثة رابع عشر دقائق في الحوش بعد الحصة.

وقف الناظر في ذلك اليوم يلعن ويزمجر ويوبخ، ويتساءل مغيظا عن سر ذلك الحماس المفاجىء للرياضة البدنية.



أرخص ليالى

أرخص ليالي

بعد صلاة العشاء كانت خراطيم من الشتائم تتدفق بغزارة من فم عبد الكريم فتصيب آباء القرية وأمهاتها، وتأخذ في طريقها الطنطاوي وأجداده.

والحكاية أن عبد الكريم ما كاد يخطف الأربع ركعات حتى تسلل من الجامع ومضى في الزقاق الضيق وقد لف يده وراء ظهره وجعلها تطبق على شقيقتها في ضيق وتبرم، وأحنى صدره في تزمت شديد وكأن أكتافه تنوء بحمل (البشت) الثقيل الذي غزله بيده من صوف النعجة.

ولم يكتف بهذا بل طوى رقبته في عناد وراح يشمشم بأنفه المقوس الطويل الذي كله حفر سوداء صغيرة، ويزوم، وقد أطبق فمه فانكمش جلد وجهه النحاسي الأصفر، ووازت أطراف شاربه قمم حواجبه التي كانت ما تزال مبللة بماء الوضوء.

والذي بلبل كيانه، أنه ما ان دخل إلى الزقاق حتى ضاعت منه ساقاه الغليظتان المنفوختان، ولم يعد يعرف موضع قدميه

الكبيرتين المفلطحتين اللتين تشقق أسفلهما حتى يكـاد الشق يبلع المسمار فلا يبين له رأس.

ارتبك الرجل رغم القسوة التي ضم بها نفسه لأن الزقاق كان يمتلئ بصغار كالفتافيت يلعبون ويصرخون، ويتسربون بين رجليه، ويسرح واحد من بعيد وينطحه، ويشد اخر (البشت) من ورائه، ويصيبه شقي بصفيحة في اصبع قدمه الكبيرة النافرة عن بقية أصابعه.

ولم يستطع إزاء هذا كله إلا أن يسلط عليهم لسانه، فيخرب البيوت فوق رؤوس آبائهم وأجدادهم، ويلعن الداية التي شدت رجل الواحد منهم، والبذرة الحرام التي أنبتته.

ويرتعش عبد الكريم بالحنق وهو يسب ويمخض ويبصق على البلد الخائب الذي أصبح كله صغار في صغار. ويتساءل، و(بشته) يهتز، عن معمل التفريخ الذي يأتي منه من هم أكثر من شعر رأسه. ويزدرد غيظه وهو يطمئن نفسه أن الغد كفيل بهم، وان الجوع لا محالة قاتلهم، و(الكوريره) سرعان ما تجيء فتطيح بنصفهم.

وتشهد عبد الكريم وهو يشعر براحة حقيقية حين خلف النحل وراءه في الزقاق وأصبح يشرف على الواسعة التي تحيط بالبركة في وسط البلد.

وانبسط الظلام الكثير أمامه حيث تعشش البيوت المنخفضة الداكنة، وترقد أمامها أكوام السباخ كالقبور التي طال عليها

الإهمال، ولا شيء بقي يدل على الأحياء المكدسين تحت السقوف إلا مصابيح متناثرة في الدائرة المظلمة الواسعة وكأنها عيون جنيات رابضات يقدح منها الشرر!، ويأتي نورها الأحمر الداكن متبختراً من بعيد ليغرق في سواد البركة.

وتشتت بصر عبد الكريم في الظلام الفاضي، ودار برأسه هنا وهناك، ورائحة الماء الصديء في المستنقع تتلوى مع تقوس خياشيمه. وفي الحال شعر بالضيق يكتم فتحات أنفه، فشدد من قبضة يده، وزاد انحناءه، وكاد يرمي (بالبشت) على حافة البركة.

وكان ما ضايقه وكتم أنفاسه شخير الأرانب أهل بلده، وهو يمتد مع انتشار الظلام، ولحظتها كان ما يلهلب سخطه أكثر هو طنطاوي الخفير، وكوب الشاي (الزردة) التي عزم عليه بها في حبكة المغرب، والتي لولا دناوته، وجريان ريقه عليها ،ما ذاقها.

وتمشى عبد الكريم في الواسعة وأذنه لا تسمع حسا ولا حركة، ولا حتى صيحة فرخة، وكأنه وسط جبانة وليس في رحاب بلدة فيها ما فيها من خلق الله.

وحين بلغ منتصف الواسعة توقف. وكانت لوقفته حكمة، فهو إذا أطاع ساقيه ومشى، أصبح بعد خطوات قليلة في قلب بيته. وإذا أغلق دونه باب الدار، كان عليه أن يخمد أنفاسه وينام. وهذه اللحظة لم تكن في عينيه قمحة واحدة من النوم، بل كان مخه أروق من ماء (الطرمبه)، وأصفى من العسل الأبيض، ولا يهمه السهر ولو

لهلال رمضان.

وكل هذا بسبب دناوته، وسواد الشاي في الكوب، وأفعوانية طنطاوي وبسمته الزرقاء، ودعوته التي لم يفكر في رفضها . .

ليس هناك نوم؟ . . طيب.

ورجال البلدة الخناشير قد انكفأوا يغطون من زمان، وتركوا الليل لصغارهم الملاعين! فماذا يفعل عبد الكريم؟ .

يسهر؟ وأين يسهر؟ . .

صحيح؟! . . أين يسهر؟ . .

هل يلعب (الاستغماية) مع الأولاد؟ . .

أو تزفه البنات وهن يقلن: يابو الريش . . إنشا الله تعيش؟

صحيح . . أين يسهر وهو أنظف من الصيني بعد غسيله، وليس معه قرش صاغ واحد حتى يذهب إلى (غرزة) أبو الإسعاد ويطلب القهوة على البيشة، ويتبعها بكرسي الدخان، ويجلس ما شاء بعد ذلك على ريحة القهوة والكرسي، يراقب حريفة (الكوتشينة) من صبيان المحامين، ويستمع إلى ما لا يفهمه في الراديو، ويضحك ملء قلبه مع السباعي، ويلكز أبو خليل وهو يقهقه، ثم ينتقل إلى مجلس المعلم عمارة مع تجار البهائم، وقد يشارك في الحديث عن سوقها التي ركدت ونامت . .

ليس معه قرش! . . جازاك الله يا طنطاوي! . .

وهو لا يستطيع أن يخطف رجله إلى الشيخ عبد المجيد،

حيث يجده متربعا والمدفأة أمامه، والكنكة النحاسية تغلي وتوشوش على مهل، والشيحي جالس بجواره، يقص بكل ما في صوته من رنين، ما حدث في الليالي التي شاب لها شعره، والأيام التي انقضت وأخذت معها بصاغته من عقول الناس القدامى الفارغة الطيبة، وجعلته يتوب عن النصب والسرقة وقلع الزرع على أيدي النماردة من سكان هذا الجيل.

لا يستطيع أن يتنحنح ويطرق باب الشيخ عبد المجيد لأنه، أول الأمس فقط، دفع الرجل من فوق مدار الساقية فأوقعه في الحوض، وأضحك عليه الشارد والوارد، لما دب الخلاف بينهما على مصاريف إصلاح الساقية. ومن ساعتها ولسان الشيخ لا يلافظ لسانه.

كان الشيطان ساعتها شاطرا.. ولكن طنطاوي بدعوته أشطر.. الله يخرب بيتك يا طنطاوي..

وماذا عليه لو سحب عصاته (المشمش) ذات الكعب الحديد ومر على سمعان، وانطلقا إلى عزبة البلابسة، فهناك سامر، وليلة حنة، وغوازي، وشخلعة، وعود، وهات إيدك..

وإنما.. من أين يا عبد الكرم (النقطة)؟ ثم.. المساء قد دخل ويجوز أن سمعان ذهب يصالح امرأته من خالها والطريق خائنة، والدنيا كحل..

يا ناس!.. لماذا هو الخائب الساهر وحده؟ وطنطاوي لا شك

قد استنظف مصطبة رقد عليها في (دركـه)، وراح في النوم. . نامت عليه البعيد أثقل حائط.

ومـاذا يحـدث لـو عاد إلى بيتـه هكذا كـالناس الـطيبين، ولكز امـرأته فـأيقظهـا، وجعلها تنيـر المصباح، وتمسـح زجاجتـه، وتشعل الموقد، وتسخن له رغيفا وتحضر الفلفل الباقي من الغداء، وحبذا لو كان قد بقي شيء من الفطيرة التي غمزتها بهـا أمها في الصبـاح، وآه لـو صنعت له بعـدها كـوزا من الحلبة، وجلس كسلطان زمـانه يـرقع الثـلاثة مقـاطف التي بـليت مقاعـدها ويصنـع لها آذانـا وقد تملصت آذانها؟. .

ماذا يحـدث بالله إذا كان هذا؟. .

هل تنتقل المحطة من مكانها؟!. .

هل يعمل العمدة ليلة لوجه الله؟. .

وهل تنطبق السماء على جرن القمح؟. .

أبدا. . لن يحدث شيء من هذا. .

ولكنه أعرف النـاس بامـرأته، وأعـرف من شمهورش بـرقدتهـا كزكيبة الـذرة المفـروطـة وقد تبعثـر حولهـا الصغار الستـة كالكـلاب الهافتة، ولن تصحو حتى لو نفخ إسرافيل في نفيره، وإذا تفتحت ليلة القدر وقامت فماذا تفعل؟. .

أهو يحاول الضحك على نفسه؟. .

وهل الذي يزمر يغطي ذقنه؟ . .

المصباح بالعربي ليس فيه (جاز) إلا ما يملأ نصفه، والمرأة في حاجة إليه كله لتعجن وتخبز طول الليلة الآتية إذا عاش أحد. ثم الأولاد لا ريب قد جاعوا ساعة المغرب، وأكلوا الفلفل وبآخر رغيف في (المشنة).

وهل تبقى فطيرة الصبح لتنتظر سهرته؟ . . وعليه أن يطمئن نفسه، فلك الحمد، ليس في داره حلبة ولا سكر، ولا يحزنون . .

ولن يستطيع طول عمره أن يحظى بكوب مثل التي لحسها لحسا عند طنطاوي . .

الله يجحم روحك يا طنطاوي يابن زبيدة! . .

* * *

ولو أن أحدا عنَّ له أن يقضي حاجته في الواسعة، رأى عبد الكريم في وقفته، مزروعا كزوال المقاتة أمام وجه البركة الداكن، لظن في التو، أن الرجل مسه شيطان أو لبسته شيخة!

وعبد الكريم معذور ،فالحيرة التي كان فيها أوسع منه، والمسألة أنه رجل على نياته، لا يقرأ الليل ولا يكتبه، والجيب خال، والليلة شتاء، والشاي يكوي رأسه، وجهلة السهر من أمثاله قد غيبهم النوم من سنة مضت في سابع أرض.

طالت من أجل ذلك حيرة الرجل، وطال وقوفه، وأخيرا فعلها وقر قراره.

وقطع الباقي من الواسعة في استسلام وقد رأى أن يقضي ليلته كما اعتاد قضاء البارد من لياليه . .

وأخيرا استقر في وسط داره، وقد أغلق الباب بالضبة وراءه. وتخطى أولاده وهو يزحف في الظلام على قبوة الفرن حيث يتناثرون. ومصمص بشفتيه وهو يئن منهم ومن الظلام، ويعتب بينه وبين نفسه على الذي رزقه بستة بطون تأكل الطوب.

وكان يعرف طريقه، فطالما علمته ليالي البرد الطريق. وعثر آخر الأمر على امرأته. ولم يزغدها، وإنما أخذ يطقطق لها أصابع يديها، ويدعك قدميها اللتين عليهما التراب بالقنطار ويزغزغها في خشونة بعثت اليقظة المقشعرة في جسدها.

وصحت المرأة على آخر لعنة أصابت طنطاوي في ليلته. وسألته في غير لهفة وفمها يملؤه التثاؤب عما جناه الرجل حتى يسبه في عز الليل.

فقال وهو ينضو ثيابه، ويستعد لما سيكون:

ـ هه . . الله يخرب بيت اللي كان السبب . .

* * *

بعد شهور كانت النساء كالعادة يبشرنه بولد جديد، وكان هو يعزي نفسه على السابع الذي جاء في آخر الزمان، والذي لن يملأ طوب الأرض بطنه هو الآخر . .

وبعد شهور وسنـوات كان عبـد الكريم لا يـزال يتعثر في جيش النمل من الصغار الذين يزحمون طريقه في ذهابه وأوبته وكان لا يزال يتسـاءل كل ليلة أيضا، ويداه خلف ظهره، وأنفه يشمشم حولـه، عن الفتحة التي في الأرض أو السماء، والتي منها يجيئون! . .

٦٩٠

نظــرة

كـان غريبـا أن تسأل طفلة صغيـرة مثلها إنسـانـا كبيـرا مثلي لا تعرفه في بساطة وبراءة أن يعدل من وضع ما تحمله، وكان ما تحمله معقدا حقا. ففوق رأسها تستقر «صينية بطاطس بالفـرن». وفوق هـذه الصينيـة الصغيرة يستـوي حوض واسـع من الصاج مفـروش بالفـطائر المخبوزة. وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التي استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددا بالسقوط.

ولم تـطل دهشتي وأنا أحـدق في الـطفلة الصغيـرة الحيـرى، وأسـرعت لإنقاذ الحمـل. وتلمست سبلا كثيـرة وأنـا أسـوي الصينيـة فيميـل الحـوض، وأعـدل من وضـع الصـاج فتميـل الصينيـة. ثم ضبطهمـا معا فيميل رأسـهـا هي. ولكنني نجحت أخيرا في تثبيت الحمل، وزيادة في الاطمئنـان، نصحتها أن تعـود إلى الفرن، وكـان قريبا، حيث تترك الصاج وتعود فتأخذه.

ولست أدري مـا دار في رأسها فمـا كنت أرى لهـا رأسـا وقـد حجبه الحمل. وكل ما حدث أنها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهي تغمغم بكلام كثير لم تلتقط أذني منه إلا كلمة (ستي). . .

ولم أحـول عيني عنها وهي تختـرق الشارع العـريض المزدحم بالسيارات، ولا عن ثوبها القديم الـواسع المهلهل الـذي يشبه قـطعة القمـاش التي ينظف بهـا الفـرن، أو حـتى عن رجليهـا اللتين كـانتـا تطلان من ذيله الممزق كمسمارين رفيعين.

وراقبتهـا في عجب وهي تنشب قـدميهـا العـاريتين كمخـالب الـكتـكـوت في الأرض، وتهتـز وهي تتحـرك ثم تنـظر هنـا وهنـاك بالفتحات الصغيرة الداكنة السوداء في وجهها ،وتخطو خـطوات ثابتـة قليلة وقد تتمايل بعض الشيء، ولكنها سرعان ما تستأنف المضي.

راقبتها طويلا حتى امتصتني كل دقيقة من حركاتها، فقد كنت أتوقع في كل ثانية أن تحدث الكارثة.

وأخيرا استطاعت الخادمة الطفلة أن تخترق الشـارع المـزدحم في بطء كحكمة الكبار.

واستـأنفت سيـرهـا على الجـانب الآخـر وقبـل أن تختفي، شاهدتها تتوقف ولا تتحرك.

وكادت عربة تدهمني وأنا أسرع لإنقـاذها. وحين وصلت كـان كـل شيء على ما يـرام، والحوض والصينيـة في أتم اعتدال أمـا هي فكانت واقفة في ثبات تتفرج، ووجهها المنكمش الأسمر يتـابـع كـرة من المطاط يتقاذفها أطفال في مثل حجمها، وأكبر منها، وهم يهللون ويصرخون ويضحكون.

SS

٦٩٢

ولم تلحظني، ولم تتوقف كثيرا، فمن جديد راحت مخالبها الدقيقة تمضي بها. وقبل أن تنحرف، استدارت على مهل، واستدار الحمل معها، وألقت على الكرة والأطفال نظرة طويلة.

ثم ابتلعتها الحارة.

الشــهادة

مـا كدت أضـع قدمي في قـطار حلوان حتى استـرعى انتبـاهي رجـل جالس في آخر العربـة، منهمك في مطالعة جريدة.

وتـوقفت لحظة، وفي ثـانية واحـدة كان كـل شيء أعـرفـه عن الـرجل قـد بدأ يبـرق في ذاكرتي كـالأنوار الخـافتة البعيـدة. وأمسك وعيي بخيـوط واهية تـربطني بجـزء قديم من حيـاتي، وراح يجذبهـا برفق. وفي كل جذبة كنت أستعيـد يوما، وأيامـا، وسنوات غيـر قليلة قضيتهـا في مدرسـة دمياط الثـانويـة وأستعيـد معهـا أحـلام صبـاي، وسحـرية دميـاط تتقاذفهـا وتلهو بهـا، وأماني مـراهقتي وهي تـدفعني وحيـدا، غريبـا، في عالم البلدة الـذي يكسوه ضبـاب شـاعـري يلف الناس والوحدة والسكون. .

وتـراجعت بي الأيـام إلى مبنى المـدرسـة الكبيـر، وحـوشهـا الـواسع، وأطفـال وشبان صغـار يلهـون فيـه بـطرابيشهم التي فقـدت معـظم خيوط أزرارهـا، وتثنت جـدرانهـا، وتعـود الأيـام إلى الفصـل الضيق، ومقعدي في أول الفصل، والحفني أفنـدي مصطفى مـدرس الكيميـاء يكـاد يحتـل كـل مـا بقي في الفصـل من فـراغ، بكـرشــه

الضخم، ورقبته الغامضة المختفية وراء شحم كثير ينسدل من تحت فكه، ووجهه السمين ذي التجاعيد الغليظة، وسترته التي حال لونها، والتي كانت أصغر بكثير من جسده، وسرواله الذي يحشو فيه ساقيه المنتفختين حشوا فيبدو كشراب طويل، وكلماته البطيئة التي تفصلها فترات حزق طويلة وهو يشرح، حتى إذا ما أخذه الحماس، واستطرد مسرعا في شرحه تتلاحق أنفاسه لاهثة، ويمد يده يخرج منديله المنكوش يمسح به العرق الذي يقطر من حواف تجاعيده.

ومع أن تلاميذ الفصل كان لهم هدوء أهل دمياط إلا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم في حضرة الحفني أفندي، وكان المخضرمون الجالسون في أواخر المقاعد هم أحسن من يقلدونه، وأول من يضحكون عليه إذا أدار ظهره، والبادئين برش الحبر من ريشهم على سرواله حين يمر بين التخت، وهم الذين يلصقون له ذيول الورق الملون في سترته إذا ما هم بمغادرة الفصل، وما كان يكتشف ما حدث له عادة إلا في الحصة الثانية حين يدخل، وفي وجهه صرامة عسكرية، وعلى خدوده احمرار فاقع، وفمه لا ينطق بحرف، وإنما يزغر لنا كلنا ونحن واجمون صامتون، ويختار أي تلميذ، وغالبا ما يكون من الجالسين في الصفوف الأمامية، ويلعن أباه، ثم يهدأ الحفني أفندي.

ومع ذلك كان يعاملنا كالرجال الكبار، وكثيرا ما كان يقطع الدرس ويحدثنا عن متاعبه، فقد كان يقيم وحيدا في لوكاندة وكانت عائلته في مصر، فيكلمنا عن الجزار الذي خدعه، وباع له رطل

اللحم ثلاثة أرباعه عظام ، وخادم اللوكاندة الذي أكل من الباقي قطعتين كبيرتين حين أرسله يشوي اللحمة، وكيف أصبح ذات مرة فوجد حافظته قد اختفت وفيها اثنان من الجنيهات. .

ويحدثنا عن ابنه الذي يغوي البنات في مصر، والذي رسب ثلاث مرات في السنة الواحدة من أجل هوايته، وعن امرأته التي تأبى أن تسكن دمياط، والتي يرسل لها في أول كل شهر معظم ماهيته.

كنا نسمع منه هذا، ونضحك في بعض الأحيان، ونتظاهر بالحزن في بعضها، وهو لا يشاركنا في كليهما، وإنما كان وجهه يحفل بالاشمئزاز والاشمئناط كمن يعاني من مغص دائم.

وما كان الرجل يلقى تقديرا من أحد، فتلاميذه يعبثون به، وزملاؤه يسخرون منه، والناظر يتجهم في وجهه ويلذعه كلما رآه بالنقد، والمفتشون يكتبون عنه أزفت التقارير بل لا يتورعون عن تجريحه أمامنا في الفصل.

وكنت من المجتهدين الجالسين في أول الصفوف، الذين تهدد اللعنة في أي وقت آباءهم.

وكنت أكره (الشرز) الواحد الذي يرتديه صيف شتاء حتى كان يخيل إليَّ أن زغبه الخشن ينغرز في جسدي أنا، وكنت أكره رباط عنقه الذي يلقيه على ناحية نائية من ياقته، وأكره أصابعه الملفوفة القصيرة، وهو يهرش بها كرشه المنبعج، وأكره أسنانه الصفراء بغير دخان، ومنديله المتكرمش المتسخ حين يخرجه من جيبه ويدعك به

أسنانه في وسط المعادلة التي يشـرحها ثم يعيـد المنديـل، ويستأنف الدرس، وكأن شيئا لم يحدث.

مـع أني كنت أكره كـل هـذا منـه إلا أنني كنت أحبـه ، فـوراء جسـده التخين القصير، ومشيتـه المتطـوحـة، وصـراحتـه، ونـظرتـه الـمغوصة، وطربوشه الملقى إلى الخلف في قلة اكتراث، كان وراء هذه طيبة كنـا نتحسسها بقلوبنـا الصغيرة، فنحبـه، ولكن حبي له مـا كـان يمنعني من المشاركـة في الضحك عليـه، ولا من سترتـه وقـد أغرتني ذات يوم فعلقت له فيها ذيلا.

ولا أنسى يـوم دخل علينـا الفصل، وتـرنحنـا ونحن نقف لـه، وتناول من تحت إبطـه أوراق إجاباتنـا في امتحان الفترة، وسكتنا فقد كـان كل مـا يمت إلى سيرة أي امتحـان كفيلا بـإشاعـة الرهبـة فينا. وأفسح له سكـوتنا واديـا مترامـيا راح يندد فيـه بخيبة تـلاميـذه، وقلة نفعهم.

وبعد أن التقط أنفاسه الكثيرة اللاهثة التي تعقب حماسه، أشار إليّ ،وأشاد بإجابتي، وأخرج ورقتي وتلاها كنموذج للإجـابة. وأقـول الحق سرت في بدني فرحة عظمى أعادت إليّ ذكـرى اليوم الجليـل في حيـاتي، يـوم رأيت نمـرتي بين الأرقـام النـاجحـة في امتحـان الابتدائية.

ولقبني بعـدهـا زعيم الكيميـاء، وسقت أنـا فيهـا رغبـة في

الاحتفاظ باللقب، مضيت أذاكر كالآلة حتى انتقل الحفني أفندي إلى مدرسة أخرى.

وكان وداعنا له حافلا . .

كان كل ما تذكرته مجرد قبضة واحدة سريعة من ذكرياتي، مرت بخاطري، فأشعلت النار في رماد حياة بأسرها، عشتها، ونسيتها، وأصبح بيني وبينها ما زيد على عشر سنين.

وما أن انتهى الوهج الذي خلفته القبضة حتى كنت قد عبرت ممر العربة، ووجدت نفسي أقف في آخرها أمام الرجل الذي في يده الجريدة.

وجلست على المقعد المقابل، وسألته في كثير من التهتهة إن كان يذكرني.

ونظر إليّ الرجل بنفس نظرته المشمئزة الممغوصة، ولم يقل شيئا، فاستطردت ألحم الكلام في الكلام، وأدخل الثالثة فصل أول في المعادلات وقانون الغازات، وأنبوبة الاختبار التي انفجرت ذات مرة، والرفاعي والدغيدي وأحمد مسلم من شطار الفصل.

وبعد كثير بان على الرجل أنه تذكرني، أو بالأحرى تذكر صبيا صغيرا يشبهني كان من تلاميذه. ولم يظهر عليه أنه سر لهذه الذكرى فلا ريب أنه استعاد أذيال الورق الملون، وتأنيب الناظر، وعبث الجميع به.

ولكني انطلقت أحدثه عن الأيام التي مضت، والسنين التي لم تغير في مظهره، ولم تضف إلى علامات العمر فيه علامات جديدة، وحدثته عن الكلمات الصغيرة السريعة التي كان يغمرني بها، والتي أصبحت علامات بيضاء دفعتني قويا في طريق الحياة وعن التقدير الذي أختزنه له من زمن. .

وتعجب قليلا، وبعد أن كان واضحا أنه يضن بالكلام، وبدأ يحدثني حديث الإنسان عن المدارس التي تنقل فيها، وعن الوزارة التي تضن عليه بالدرجة، وعن زملائه الذين أصبحوا نظارا وهو لا يزال مدرسا، وعن امرأته التي طلقها، ونفقتها التي تستغرق مرتبه، وابنه الذي ترك المدارس وذهب يمثل في السينما.

وسألته عن طلبة هذه الأيام وأنا أضحك، فلم يجبني، وإنما أخرج منديله العتيد من جيبه، ودعك أسنانه ثم بصق من النافذة.

وذكرته بحكاية زعيم الكيمياء فابتسم لأول مرة، وأخذ ينصت باهتمام حين قصصت عليه كيف دخلت مسابقة الكيمياء وكنت الأول، وكيف التحقت بكلية الطب وتخرجت، ولي سنين وأنا طبيب. .

وحين وصلت إلى هذا الحد، انفجر في ضحكة طويلة اهتز لها كل أرجاء جسده، وزغدني في كتفي وهو يقول:

- يا شيخ اتلهى!. . اتلهى!. .

وحتى حين أطلعته على بطاقتي الشخصية وأنا أقول له :

ـ كل ده بفضلك . .

بان عليه حرج كبير وضرب كفا بكف وهو يقول :

ـ في المدة القصيرة دي . . تبقى دكتورا . . دكتورا . .

فقلت مرة أخرى :

ـ كل ده . . بفضلك .

وكنت أقولها في حماس الصبي الذي كان في دمياط، وفي رهبة الفتى أمام أستاذه، وفي تلعثم المبتدئ حين يقابل الفنان الذي وصل .

وطول المدة التي أمضاها في مدرستنا ما رأيت الحفني أفندي سعيدا أبدا، ولذلك تفرست في ملامحه وقد بان فيها تعبير بدائي عن سعادة تطرق وجهه ربما لأول مرة .

وأخذ يفرك كفيه، ويطبطب على فخذه، ثم يروح بالجريدة عن وجهه الذي احتلته ابتسامة واسعة بانت لها أسنانه وقد أسود صفارها القديم .

وبين الفينة والأخرى يردد :

ـ والله عال . . أهو واحد من دمياط نفع . . والله عال . . واحد نفع . .

وأقول له اننا كلنا نفعنا، ولكنه لم يكن معي، وإنما كان يستغرقه شعور قوي يشيع فيه أحاسيس لا عهد له بها.

وجاءت المعادي، وكاد ينسى أنها محطته، وشد على يدي بحرارة وهو يشكرني بأنصاف كلمات. ولا أدري على أي شيء كان يشكرني، وودعته حتى باب العربة وابتعد القطار بي، وهو يلوح بيده، وفرحة كبيرة تقلقل خطواته، والابتسامة تتموج في وجهه، وسعادة غامرة تطفح من عينيه..

كان كالطفل الذي نجح لتوه في الشهادة الابتدائية.

٧٠١

على أسيوط

ـ يا سيدي.. والنبي يا سيدي.. يا ناس.. يا ناس حرام عليكم.. دانا جي من أسيوط.. جي ماشي يا ناس.. على رجلي.. وبقالي هنا أسبوع.. سبع ليالي بايت.. نايم على الرصيف قدام المستشفى.. دانا مريض.. مريض يا عالم.. غلبان يا هوه.. ورجلي ما عنت طايق ريحتها.. المدة ضربت في وركي.. دا محرام.. والنبي دا حرام.. واللي خلق النبي دا ما يخلصوش..

وقبل أن تمتد أذرع «التومرجية» القوية تنتزعه، وتعيده من حيث جاء، تململ الطبيب في كرسيه، وقطع الحديث الدائر بينه وبين الحكيمة، واستدار إلى المناكف الجديد..

وعبر الطبيب على الوجه الصدئ الذي أمامه، والذي كله شعرات وفجوات وغضون.. عبر في سرعة وفي ملل، فالمترددون على المستشفى كلهم ملبدو الوجوه بغيوم الحاجة والمرض. ولكن الطبيب توقف قليلا، متفرجا، عند ملاءة السرير القديمة التي أسود لونها الأصفر الباهت، وامتلأت بالبقع والخروق، والتي عمم الرجل

بها رأسه، وتـدلى طرفهـا بجانب وجهـه كذيـل ملطخ بالـوحل لكلب عجوز.

ورمق الطبيب في قليل جدا من الدهشة رجله الملفوفة في عدد كثيـر من الخرق والأشـرطة والجـوارب القـديمـة من مختلف الألـوان والأحجام، وقـد كست رجله من قمـة أظافـرها إلى مفـرق فخـذيـه، فضخمت الرجل وكبـرتها حتى أصبحت كصبي مستقـل صغير يـرتكز عليه الرجل في ناحية، ويستند في النـاحية الأخـرى إلى فرع شجـرة غليظ ملتو غير مشذب.

انتهى الطبيب من استعراضـه في لمح البصـر؛ واستقرت عينـه على الشيء الذي يهمه من كل هذا.. على ورقـة المستشفى الباليـة المتسخـة، وقد استمـاتت قبضة الـرجل عليهـا. وفي الحال شـد منه الـورقة، وقلبهـا في اشمئزاز، ثم انفـرجت أساريـره فجـأة، وزأر في الرجل:

ـ يا بني آدم.. أنا مش محولك من أسبـوع لعيادة الجـراحة.. ايـه اللي جابـك هنا تـاني؟.. هنا يـا مغفل حـاجة اسمهـا الاستقبال بس.. فاهم..

وقفز «التومرجي» يشاطر في الزئير ويقول:

ـ دا مكتـوب لـه.. يحـول في عـربـة كمـان.. أمـا نـاس مـا بتختشيش..

وكاد الرجل أن يبتسم لولا أن وجهه خانه فبدأ يغمغم:

ـ يا خيه يا سعادة البيه . . ما الجراحة حولت الباطنيـة . . وباطنية حـولت لسريـة . . وسريـة حولت لجلديـة . . وآديني رجعت تـاني . . وبقالي أسبوع يا سعادة البيه بارقد على الرصيف . . وآخـ . .

ورد الطبيب بسرعة وغضب:

ـ طـاب . . وحـاعملك إيــه؟ . . وانـا مـالي يـا أخي؟ . . أنــا ملزوم؟ . . أنا ملجأ؟ . . أنا لوكانده . . اسمـع . . مش عايـز دوشه . . أنا حاحـولك الجـراحة تـاني . . في عربيـة برضـه . . إنما وشـرفي لو شفت وشك بعد كده . .

ورفـع الرجـل يـده الفـارغـة، وأمـال جسـده حتى كـاد يلمس المنضدة التي يجلس إليها الطبيب، واندفع يقول ولا شيء يوقفه:

لا . . لا . . لا والنبي يـابيـه . . أنـا مش عـايـز عـلاج واصـــل . . والنبي يابيه دانا . .

وانفجر الطبيب كالبركان:

ـ أمال عايز ايه؟! . .

وكان انفجاره هو إشارة البـدء لأيدي «التـومرجيـة»، لكي تلتف في جبروت حول الرجل وتقتلعه من الغرفـة، فناضـل بكلٍ مـا يملك ضعفه من قوة يحاول تخليص نفسه. وقال في وهن ومسكنة:

والنبي يـــابيـــه . . والنبي . . وحيـــاة والـــدك . . مش عـــايـــز الجراحة . . حولني على بلدي . . حولني على أسيوط . .

أبو سـيد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذي يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون في ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلا زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يبتلع الماء ويصبه بعد ذلك في ضوضاء مكتومة. .

واستمر الوابور يون، والكوز يزحف ويبتلع وينصب ماؤه، وصفيحة الماء تقرقع، استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط في سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بآخر أنفاسه، وانطفأ، وعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذي ليس غريبا عليه يملأ الجو.

وظل «القبقاب» رائحا غاديا، وضوء المصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهمهمة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع

اقتراب الضوء وابتعاده. . ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما، ولم ينتفض ويفتحهما إلا على قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط الخشبي في يدها، تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل ما تستطيع ليحرث طريقه بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها السمين الخمري اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما في فروغ بال، بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى ثوبها الشيت النظيف ذي الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال في شيء من التحدي وهو يغلق عينيه:

ـ مش تحاسبي يا وليه. . قزازة اللمبة حطق من الميه. .

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد يتنفس بعمق، ويكن رجله ثم يفردها، ويشخر بمطلق إرادته، ثم قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى نظرة أخيرة على زوجته التي كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه، وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد أبيض حتى كادت

تختفي تجاعيده في تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التي احتلت وسطه..

وارتعش رمضان، وأسرع يصفق عينيه في عنف، فقد كان يعرف من زمان سر هذه الابتسامة.. فاليوم يوم الخميس.. والليلة ليلة الجمعة..

وأحس الرجل بالسرير ذي الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوي على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت في الدنيا التي يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذي دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لا يريد أن يكح. وطال سعاله وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى في صوت حنون ذليل:

ـ مالك ياسي رمضان..

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول في همس خافت مليء بالاثم:
ـ أوعى سيد يكون صاحي..

ولما لم يرد، تنهدت في حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهي تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهق، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً.. إلى حيث لا يراهما أحد، ثم يلوكها في نشوة ويدغدغ ضلوعها في حنان، ومدت يدها وملست على جبهته اللزجة بالعرق، ثم أرسلت

أصابها تتحسس رقبته الغليظة النافرة العروق، وقالت في صوت خنقته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

ـ اسم الله عليك يا خويا. . اسم النبي حارسك يا ضنايا.

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح ، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره. .

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس. وهو لا يذكر كم شهرا مضت، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر في الأمر أبدا ولا اعتبر ما حدث ـ يوم حدث ـ بداية لأية نهاية. . تماما كما لم يتبين جاره سي أحمد الكمساري في شركة الأوتوبيس أن السخونة التي أصابت ابنته يمكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك ورد ما أصابه في تلك الليلة إلى نوبة البرد التي ألمت به، ومرت أيام. وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح، ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها في نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد في انتعاش مطلع الموال الوحيد الذي يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية في قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، ويدلته بزرائرها الصفراء

اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه، وتضيق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقها الدهان الذي لا يفلح في إخفاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيل في يده يلتقط نمرة العربة في سرعة الواثق من يومه وأمسه وغده يدونها بخطه الواضح الذي كان يفخر بجماله.. كانت الدنيا هي الدنيا.. الدنيا التي هنا، والتي هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتربع على عرشها، ويحكمها بصفارته، ويعز من يشاء، ويذل من شاء فقط متى لوح بقفازه..

وحين كان يكتب أول مخالفة كان عقله سارحا في الليلة التي سينفض فيها عن نفسه خمول المرض الذي لازمه أسبوعا، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهناك تنقر المخالف من تحت حافة القبعة، هذه العيون ألهته عن الخاطر، ولم يتنبه له إلا هناك.. حين كان يجاهد في خلع حذائه الميري الثقيل وقد ألقى بجسده المنهوك على «الكنبة» وامرأته تلقي إليه بتحيتها الوادعة، ثم تتربع على الأرض وتقول في حماس أطفأت العادة جدته:

ـ عنك أنت.

وطوقت يدها اللينة قليلاً سمانة رجله بينما مقدمة حذائه أصبحت مدفونة بين أثدائها، وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه.

ولم يعتبر ما جاء في باله عملا صبيانيا، فراح يزغزغ المرأة بحذائه الثقيل العريض، وهي تضحك، وتنهره، وتدفعه، وتميل إلى

الوراء، ثم على جانبها حتى تكاد تلمس الأرض، وتشـدد من قبضتها على عضـلات رجله، وتـرخي القبضـة في بطء، وهـو قـد استمـرأ اللعبـة، وانتشى وهـو يعب من صـوت امـرأتــه التي كـانت تمـطه، وترفعه، ثم تحيله همسا، ونصفها يضحـك، ونصفها يتـدلل، وكلهـا تريد وترغب..

* * *

في ضبـاب البدايـة يذكـر رمضان هـذه الليلة ولا ينساهـا، فقد حاول في كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقـد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره.

وأزاحتـه المرأة مـرات ومـرات، ولعن أبـاهـا آلاف المـرات، والمعـركـة تـدور وتـدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبي حتى يكـاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيطه ويعـود اللعاب يسيـل من جانب فمه..

وهجعت المحـاولات قـرب الفجـر، ونـامت المـرأة، ولم ينم رمضان.

وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة رمضان في نفسه ورجولته تستميت وهي تـدافع عن نفسهـا، والواقـع وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيـرا سلم رمضان بعـد ليـال، وقـال لنفسـه في صبـاح يـوم بصوت لا يدري أكان مسموعا أم غير مسموع:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . واللا ضعت يا رمضان واللي كـان كان . .

ولم تكن أول مـرة يتحاشى فيهـا امرأتـه وهي تقدم لـه الفطار، وإنما كان يود أن يزيحهـا في هذا اليـوم من أمامـه، ثم يسرح ويخبط رأسـه في الحائط عله ينفلق. كـان شيء غريب يـدور فيـه، فبـالقـوة والعـافية والعـرق والليالي الـطويلة كان عليـه أن يصـدق أنـه لم يعـد رجـلاً. وكان هو يأبى أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهـو مكسوف خجل كما لو كانوا يزفـونه في البلد فـوق الحمارة وهـو عاري الجسـد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديـد يقول وكـأنه يتلو آيـة الكرسي ليـطرد جنية من الجان:

ـ واللا ضعت يا رمضان، والـلي كان كان.

ويصمت ثم يقـطع لقمـة كبيـرة مـن الـرغيف ولا يـأكلهـا. . ويقوم، وينظر من النـافذة ثم يكـح ويبصق بصقة كبيـرة على العشش التي فوق السطوح أمـامه ويعـود إلى جلسته أمـام الطبليـة ويسرح في صمت طويل آخر وهو يحـدق في الطعـام ويمضغ صمتـه حتى يشبع فيـرتدي البـدلة وكـأنـه يخلع مـلابسـه ثم يتسلل من البيت كحـرامي النحاس، وجسده هارب منه، وأطرافه لا يعثر عليها. .

وحين يقف وسط الميدان، والعربـات تزدحم حـوله، والأرض والسماء تتحرك، وهو وحده الـواقف الهامـد الضائـع . . حينئذ يشعـر

بتفاهة هذه المملكة التي له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بـالقبعة وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه. . ويومها لا يقيد محضرا واحـدا، وماله هـو والمحاضـر والمخالفـات، فليدع من يخـطئ يخطئ، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتـل يقتل. . وهـل هو الـذي ينظم الكـون. . لعن الله العربات وأصحاب العربات، والمرور وكل ما يمت إلى خلية النحل التي يلسعه ودويها وصرخاتها.

ولأول مرة في حياته كره بيته، ووجه امـرأته النحس، ولم يعـد توأ إليهما. .

وفي خـطوات لا يهمه وقعهـا، ولا أين تقـع راح يـدق الشارع بحذائه الثقيل، وقد كفأ القبعة فـوق جبهته، وامتـلات أخاديـد وجهه بالاشمئزاز واليأس، وفك حـزامه العـريض، وتمنى أن ترحمـه عربـة نـقـل وتـأكـله. ووصـل أخيـراً إلى بـاب الإنـسـان الـذي لا يصادق في المدينة إنسانا سواه. وطرق الباب ـ ونادرا ما كان يطرقـه ـ ولم يفاجأ طنطاوي، وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكـالمعتاد عن البلد والقرايب والنسايب والذي مات والـذي عاش ومن تزوج. ولكنه فوجئ فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال في جد:

ـ اسمع يا واد يا طنطاوي. . عايزين تعميره. .

ولم يكن رمضـان يشرب الحشيش كثيـرا، ولكنـه شـرب هـذه المرة حتى ان طنطاوي لم يأتمن الطريق عليـه فأصـر على مرافقتـه. ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السـر

الذي يكمن وراء سكوته.

وفي الطريق سرح رمضان بعيدا، وأوغل في الزمان والمكان، حتى وصل سكينة جارتهم في بيتهم القديم على الترعة، ثم السنوات القليلة التي أعقبت بلوغه.. وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدري لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوي فيمشي، ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله في انبهار:

- يكونشي ياولاد الحشيش ينفع!؟.

وانفجر ضاحكا وقد كف عن المشي، وغمغم الطنطاوي وهو يهز رأسه في رثاء:

- الجدع انسطل والنبي..

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره الطنطاوي من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى.

* * *

- ولم ينفع الحشيش... أبداً.

وعاش رمضان بعد لياليها صامتا.. لا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاما كالعصارة الفاسدة لا نكهة له ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرم يعكره سخط غامق بليد، وامرأته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك. وعمله في الميدان

أصبح علقما يشربه في بطء الساعات التي يقضيها نصف واقف، وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح ينتزعها من جسده كما ينتزع الناب الفاسد. وأصبح يتخبط في حبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها.

وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء، ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده.

وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها. وتندى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: إزيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد، تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكد تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تئز بآهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممددا بجانب ابنه وامرأته على الحصيرة تحت أقدام الفراش.

وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر. وحين كانت تخطئ كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذي جاء بها؟..

وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط

وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضـاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

ـ بقى يا بني ما خبيش عليك. .

والحق أنهـا أخفت عنه الخطاب الذي أرسلتـه لهـا ابنتهـا من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة في حنكة العجائز، وكـان صمته هو الذي شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

ـ وكل عقدة وليها يا بني حـلال. . ألف حلال. .

عقـدة ماذا؟ وحـلال ايه؟! ومـاذا جاء بـك ؟! ومالـك أنت وما أضناك يا ابنـة المركوب؟! وبدأت اللعنات التي تنهـال من داخله إلى داخله تصنع بصابيص النار التي ألهبـت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امـرأته في المسـألة، ولم يعتـرض وجودهـا وشعورهـا ورأيها طريقه وهو يترنح في الخـرابة وحـده، إنه ليس وحـده. . ومن يدري كم معه الآن؟.

وشبت الثـورة في حريق هـائل قلب الـطبلية وأطـفـأ المصبـاح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته في زئير مرتفع:

ـ عليَّ الطلاق ما انتي نايمة في بيتي. .

وباتت الحجة وابنتهـا عند الجيـران وقبل الشـروق كان القـطار يحمـل الأم وحدهـا إلى البلد، ولو كـان للبنت مكـان في دار أخيهـا لحملها هي الأخرى. .

٧١٩

كـان رمضان في نفس الـوقت يـتسرب من الحـارة وهـو يتلفت حـوله حتى لا يـراه أحد، وحين قـابله أبو سلطان وصبـح عليه غمغم بتحية قصيرة، ورأسـه منكس، وأقدامه تسـعى في عجلة حتى يتوارى عن الأنـظار. وكذلـك فعل مـع عبد الـرازق بائـع الجرائـد، والحاج محمد الفوال، وكل الوجوه التي يعرفها والتي لا يعرفهـا. كانت أقـل حركة فيها سـره، والكلمـة الواحـدة فيها إشـارة واضحة ، والضحكـة فيها سخرية منصبة عليه. . وكل الناس يعرفون حتى الواقف بجـانبه، المتعلق معه في عامود الترام، حين زغر له بعينه والترام يميـل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كـالريـح وهو يتمنى أن يشف ويشف حتى لا يراه أحد.

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف في الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محدق وناظر أن ينكش سره الباتع. وخيـل إليه وهـو يحاول ضم ضفتي نفسـه ليحكم إغلاقهـا أن النـــاس يضعون عيـونهم وأنـــوفهم بين ضفتيهـا حتى تبقى مكشـــوفـة مفتـوحة. ودعـاه فشله إلى صب جام غـضبـه على النـاس. وقضى اليـوم بطولـه يدون المخـالفات ويهـدر بأوقـح الألفاظ ويـزور مركـز البوليس جانيا ومجنيا عليه. وكان يومه حافلا. .

* * *

وتلقف الميدان من ساعتها رجلا كئيبا غريبا! ، لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا يتكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت يلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذي نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطاني .

وميدانه تحول ميدان رعب، وهو أصبح «بعبع» السائقين تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه ـ وما أقل ما يمرون ـ ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبي شوارب. وخشونته وسلاطة لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود عربة أو حتى تعبر الميدان .

ثم امرأته . .

آه من امرأته! . .

لقد أضناه التفكير فيها . . وماذا كانت تفعل يا ترى حين عاد مرة إلى البيت ولم يجدها . . قالت له يومها إنها كانت عند أم حميدة . . أم حميدة . . أم حميدة الصعيدية . . وأخوها مهني . . الولد الذي يلبس السكروته المكوية التي تظهر أفخاذه ويعقص الطاقية . . ماذا كانت تفعل عند أم حميدة؟ . .

ويوم أن ضبطها تطل من الشباك بلا منديل . . بنت الكلب . . وبلا منديل! . .

وهكذا اعتاد التأخر في العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوي وعاد مرة في شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته

الصوف فوق رأسه، وفـرش جسده المنهـك المخدر فـوق السريـر، وأصوات اليوم تطن في أذنه. . وحديث طنطاوي ينبثق في مخيلته ثم يختفي . .

وتبين بعد أن خف الطنين وغـاب طنطاوي أن امـرأته لا زالت مستيقظة. . ليس هذا فقط، بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان رمضان ليلتهـا قـد بلغ به الأمر منتهاه، ووصل إلـى حافة مقاومته، فظل بكاء المـرأة يتساقط على الحـاجز الجـامـد الـذي وضعـه بينهمـا فيلعقـه، والحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظـل ينـصت لبكـائها، وهـو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقـال وكل جـزء من جسده ينشج بغير دموع :

ـ بس قوليلي يا نعيمة. . أعمل ايه. .

ولم تـرد، وإنمـا كـانت تحملهـا شهقـة وتضعهـا شهقـة وقـد انخرطت في بكاء عال. .

وهزها رمضان في حنان ذليل وعاد يسألها. وما كان ينتـظر منها شيئا وإنما ألحف في سؤالها ليغلب عجزه ويشـرك إنسانـا على الأقل في حل لغزه.

* * *

وبـدأ البحث عما يفعله النـاس، وبدأ السؤال، وفتـح رمضـان الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، وزار أسيـاد البلد كلهم، وأطعمتـه نعيمة الحمـام والمنجـة من تـوفيـرهـا، ومص

زعازيع القصب، وترنح على دفة الطار في الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمي العمل في البحر، وسوت له امرأته الفطير مختلطا بدمائها، وتجرع من العطار كل ما عند العطار. .

وفي كل مرة كان يعود وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا. .

ثم عرف رمضان الطريق إلى المستشفى السري، وتعرف في طابور المرضى على رفاقه، وآنسته الصحبة بقدر ما امتلأ الكيس الذي خيطته له نعيمة بزجاجات الدواء، وفرغ الكيس وامتلأ، وانغرزت الإبر في عروقه وفي عضلاته، ودخل المستشفى وخرج. .

وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقود كما راحت غيرها، ولم تفرغ مشورات الحماة ونصائحها ولا آراء الأهل وأطراف الأهل. .

واستمر رمضان يفتش عن رجولته في كثير من اليأس، سائلا كل من يلقاه، جاريا وراء كل مشير، متتبعا كل اصبع، وحديثه أثناء ذلك لا يدور إلا عن البحث الذي وهب له نفسه. والحديث يدور في صلاة الجمعة، وعلى القهوة، وفي سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجي المستشفى، وحتى مع حضرة الضابط. كل هذا. . والحال مثل الحال. .

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمة فوق السطح والشمس تدفئهما في ذلك اليوم من أيام الشتاء. وكأحاديث الضحى الدافئ

كان الكلام يشرق ويغرب في كسل هادئ، والوقت يمضي ،ورمضان في يوم راحته لا يسأل ولا يسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين» الغداء من الصباح، وتمددت في استسلام فاتر. ودار الحديث ودار. وكانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيرا في امرأته. وأنب نفسه كثيرا حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره. . .

واقترب مما يريد، وطأطأ كلامه وكأن حديث الضحى لا يزال يدور وهو يقول:

ـ اسمعي يا نعيمة. .

ـ خير. .

وتردد رمضان ثم أسلمه تردده إلى سكون راح يخلص نفسه من حرجه ويتملص منه ليقول:

ـ مش. . مش أحسن أخلص ذمتي ومن الله و. .

وحين نظرت إليه في كسل وبشائر ضحكة تكاد تهب منها لحديثه المتعثر. . استمر هو يتهته:

ـ أحسن. . أحسن. . أطلقك يا نعيمة. .

واعتدلت المرأة حتى واجهته ودبت على صدرها وقد اربدت ملامحها وبان فيها عتب كثير:

ـ يا عيب الشوم يا رمضان. . ايه الكلام ده. . دانت أبويا

وخويا وتاج راسي . . دانت في عيني من جوه . . هو أنا أسوي الأرض اللي بتمشي عليها . . دانا خدامتك يا حبيبي . . بقى ده كلام . . مقصوصي شاب . . وشعرك أبيض . . ونعمل زي العيال . . دا . . دا . . يصح . . يابو سيد .

ولم يسكتها إلا موجة البكاء التي أوقفت لسانها، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمدت به دموعها حين قامت هالعة تهبط السلم وهي تتعثر َعلى درجاته .

وتركت وراءها رمضان يتحسس تجاعيد وجهه، ويملس على رأسه التي كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور ويشد شعر رجله الكث الذي ابيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد .

وتأمل الصبي وكأنه يراه الأول مرة منذ سنوات! . .

كان سيد يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب. وظل الرجل يلتهم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق . .

لا حول ولا قوة . .

أيكون قد نسي سيد في زحمة البحث عن رجولته؟ . .

أيكون قد نسي حتى ان له ابنا؟ . .

أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه ! . .

كيف حدث هذا؟! كيف؟ . .

سيد . . يا سيد . . تعال يا سيد . . اقعد هنا جنبي . . أيوه

كده.. يابني يا حبيبي.. باسم الله ما شاء الله.. وكبـرت يا سيـد..
بقيت طـولي.. خليني أبوسـك يا سيـد.. هـه.. وكمان مـرة.. يـا
بني.. أنت كنت فين.. وأنـا فين.. وكبـرت يـا سيـد.. وحتبقى
راجـل.. وأجوزك يـا سيد.. سيـد.. حجـوزك واحـدة.. حلوة..
لأ.. أربعـة.. أربعـةحلوين عشـان خـاطـرك.. وتبقى راجلهم..
فاهم.. فاهم يعني ايه راجلهم يا سيد.. معلهش.. بكره حتفهم..
وتخلف.. سامع يا سيد حتخلف.. وأشيل خلفتك يا سيد.. بإيدي
دي.. فاهم ياسيد..

ع الماشي

كان ما ضايق الأستاذ وهو عائد من الإسكندرية في الأوتوبيس الصحراوي أن جاره في العربة عرف أنه محام. وكان لا يخاف في الدنيا شيئا أو يعبس لشيء قدر خوفه وعبوسه إذا حدث في مكان ما وعرف الناس أنه محام فهو يعلم تماما أن الأسئلة حينئذ تنهال عليه، وتنهال معها الاستفسارات ولا يهم أن يكون هو متضايقا أم غير متضايق، مستريحا أم غير مستريح فهم لا يفرقون بينه كإنسان، وبينه كمحام، إنما يرونه دائما وفي كل وقت محاميا.

جلس الأستاذ في العربة وهو يستعيذ بالله خائفا أن يبدأ الجار حديثه، ولهذا راح ينظر من النافذة وقد ترك أفكاره ترعى على مهلها في الصحراء الجدبة الممتدةوتمرح فيها من أقصاها إلى أقصاها.

ولم ينفع هذا، إذ سرعان ما أحس بلكزة خفيفة أعادت أفكاره من انطلاقها وسمع جاره يقول:

ـ دي فرصة سعيدة يا أستاذ والله! . .

فقال الأستاذ وهو يزوم:

ـ مرسي . .

وأقبلت فتـرة صمت كان قلب الأستـاذ فيها كـالريشـة في مهب الريح ، فـقـد كان يعلم أن جـاره سوف يتحـوقل بفمـه ويتبسمل بعـد قليل ثم يفتح باب الكلام ويا ويله لو فتح الباب . .

ولم يخب ظن الأستاذ إذ ما أسرع ما قال الجار:

ـ ألا من فضلك يا أستاذ؟ ! . .

فقال المحامي في اشمئناط :

ـ نعم ! . .

ـ حضرتك بقى مدني والا جنائي . . والا مخدرات؟ . .

فرد المحامي على البديهة وكأنه محام :

ـ كل حاجة . . كله . . كله . .

ومن تجاربه السابقة مع أمثال ذلك الجار كان الأستاذ يعرف أن المتحدث يسكت هنا، وتبدأ فترة صمت أخرى .

وفعلا أغلق الرجل فمه المبتسم قليلا ثم فتحه قائلا :

ـ أهلا . . وسهلا . . تشرفنا . .

واستطرد بعد هنيهة :

ـ حضرتك لازم تعرف بقى الأستاذ (. . .) المحامي . .

وتردد الأستاذ قليلا ثم استخار الله وقال :

ـ لا والله . . متأسف . . معرفوش . .

واستنكر الجار:

ـ متعرفوش ازاي . . دا أشهر من نار على علم! . .

فقال الأستاذ بفروغ بال:

ـ أهـو اللي حصل . .قسمتي كـده! . . والله وديني وما أعبـد مـا أعرفه . .

ـ دا راجل جبار. ناصح تمام . . ياما دوخ قضاة ومحاكم .

ـ يا سلام؟! . . بقى كده؟! . .

وسكت الجار ولم يرد . . وخـاف الأستاذ من هـذه السكتة فقـد كان يعرف ما وراءها إذ بعد قليل قال الجار:

ـ يعني المدني حضرتك تفهم فيه برضه؟ . .

ـ طبعا . . طبعا . . أمال ايه!! . .

قال الأستاذ هذا ولم يسأل عن السبب مخـافة أن يحـدث ما لا تحمد عقباه . .

ولكن الجار تفوه بلهجة من لا يهمه الأمر:

ـ دا بس أصل فيه حكاية كده .

وأطبق الأستاذ فمه لا يود فتحه وكأنه ليس هنا . .

ولم يثبط هذا من همة الرجل فسرعان ما أردف:

ـ حكاية كده غلبوا فيها المحامين. . هو مش حضرتـك بتدافـع في المدني برضه. . أصل أنا خايف أضايق حضرتك! . .

وأصر المحامي على صمته ولم يرد. .

ومع هذا تنحنح الجار وقال:

ـ والحكاية غلبوا فيها كتير. . اوعى تكون حضرتك مضايق والا حاجة. . شوف يا سيـدي. . بقى أصل في سنـة ١٩٢٥ كان لي بيت وارثه عن أبويا، وكان فيه ورثة تانيين. .

وبدأ الجار يروي القصة بحذافيرها من يوم أن كانت إلى يومنـا هـذا، ويشرح مـا مـرت بـه، والجلسـات، والنقض، ونقض النقض والأستاذ قد انشـوى واستوى وهـو يصغي، ومضطر أن يصغي وكـانت العربة في هـذه الأثنـاء قـد وصلت «الرست هـاوس» فنزل المحـامي والرجل وراءه، وأكمل القصة وهما يتناولان القهوة وينفضان ما عليهما من أكـوام التـراب. . ودفـع المحـامي الحسـاب والجـار مستمـر في الرواية، وفي الطريق إلى العربة كان الرجل قـد انتهى أو كاد فـسـأل بلهجة لا تخلو من حداقة:

ـ وايه رأي سيادتك بقى؟! . .

ولا بد للأستاذ أن يكون له رأي . . أمال أستاذ ازاي؟! . .

وقـال المحامي رأيـه، وحينئذ مط الجـار ابتسامتـه على آخرهـا وقال:

ـ طيب لو سمحت بقى ولو فيها مضايقه بس تكتب لي مذكرة . . الكلمتين اللي قلتهم سيادتك دلوقتي كفاية قوي . . أصل الحكاية عقدة وصعبة . . دوخت المحامين . . والنبي أنا خايف أكون بضايقك . . طب بذمتك؟ وحياة والدك مانتاش مضايق؟! لا . . لا . . متتعبشي نفسك يا أستاذ . . القلم أهه وآدي الورقة يا سيدي . . متشكرين قوي . . متشكرين خالص . . عاجزين عن الشكر . . يا سلام . . دي فرصة سعيدة . . بيقولوا رب صدفة خير من ألف ميعاد . . بقى حضرتك ما تعرفش الأستاذ « . . . » . . ياه . . دنيا . . دا كان أعز أصحابي .

وكتب الأستاذ المذكرة وهو يفور ويمور وينفخ . .

واعتزم أن يترك المقعد الذي كان يجلس فيه، وأن يبحث له عن آخر بعيد كل البعد عن هذا الجار حتى لو اضطره الأمر أن يتخلف عن العربة . .

وأفلح الأستاذ في اغتصاب مكان . . وظل قلبه مع هذا في مهب الريح مخافة أن يكون الجار الجديد أحد المتحدثين الذين سواء عرفوه أم لم يعرفوه . فأسئلتهم لا تهدأ ولا تنتهي . . ولكن الجار كان رجلا طيبا صموتا ما فتح فمه، ولا حتى ألقى ناحيته بنظرة ولو على سبيل المجاز . .

ورغم أن الدنيا كانت قيظا، والعربة أصبحت كالفرن الذي ليس له مدخنة، والغبار من كثرته صار له لسع الناموس وأزيز

الذباب، والمقاعد عليها بحور عرق في وسطها ناس، ورغم هذا فقد استراح الأستاذ لصمت الجار الراحة كلها، وأحس بقلبه ينعنشه ثلج بارد.

وراحت العربة تئن وهي تقطع الطريق الملتوي الطويل.. وشعر الأستاذ بعد قليل أنه يود معرفة الساعة التي ستصل العربة فيها، وكان ممكنا أن يسأل جاره ببساطة ولكنه لم يشأ هذا حتى لا ينبش الجار فيفتح فمه ولا يقفله أبدا.

ولكن.. في مطب من المطبات الكثيرة مال الأستاذ على الجار فكاد يوقعه وكلمة من هنا واعتذارات من هناك تعرفا، واتضح للأستاذ أن جاره دكتور.. واكتفى الأستاذ بالذي كان فأغلق باب الحديث وأحكم الإغلاق..

وانتهت المطبات، وسارت العربة كالريح والأستاذ صامت وجاره صامت أيضا، ولكن بعد وقت تذكر المحامي شيئا ونسي قراره فابتسم وقال لجاره:

ـ إلا حضرتك بقى دكتور في الطب.. والا في..

وحين وصلت العربة إلى القاهرة وغادرها الركاب كان الأستاذ لا يزال يقول للطبيب:

ـ لا.. لا.. متتعبشي نفسك.. بلاش روشته.. آدي القلم والورقة.. اسند هنا على ضهر العربية.. بس والنبي عايز دوا يقضي

عليه.. دا مغلبني قوي الصداع ده.. زي ما قلت لحضـرتك.. من سنـة ٣٦.. والروشتـات أهيه.. أوعى أكـون ضايقتـك يـا دكتـور.. والنبي؟!.. متشكـرين.. متشكرين قـوي.. بقى حضرتـك بتشتغل في إسكندرية.. يا سلام عالصدف السعيدة..يا سلام!!..

الهجـــانة

قـال البعض إن السبب هو نصف فـدان القـطن الـذي اقتلعت شجيراته في الليل من أرض البرنس.

وقـال آخرون إنـه النقب الذي حـدث في إصـطبـل الابعـاديـة المجاورة.

ورد بعض ثالث وكاد يقسم أن السبب هو الحريق الـذي اجتاح الساقيتين القبليتين في وقت واحد.

يختلف النـاس دائما أبـدا على السبب ولكنهم يذكـرون تمامـا عصـر الجمعـة الـذي جـاءوا فيـه، وتمشت مـع مجيئهم الهمهمـات تزحف في القرية وتقول:

ـ الهجانة وصلوا..

كان الرجال يزومـون بها ثم تتشعب أصـواتهم مملوءة بالخـوف والتشاؤم تارة، وتارة تحفل بغبطة ساهمـة، فإن جـديدا سيحـدث في القرية، وما أقل ما يحدث في القرية من جديد.

وكـان الصغـار يتلقــون الكلمـة من أفــواه آبـائهم، وتــرتعش

أجسادهم وبالخوف من الغربـاء الذين لـم يسمعـوا عنهم أو يروهـم ثم تنبسط وجوههم بالفرح لأنهم سيرونهم. .

وأصبـح لا حديث للنسـاء إلا عن العبيد الـطوال السمـر ذوي الأرجل الرفيعة الجافة والكرابيج المسقية بالزيت. .

ولم يراهـم أحد حين دخلوا القـرية، ولا حين تسـربوا إلى دوار العمدة وكأنهم وصلوه من جـوف الأرض. ولكنهم ما ان استقـروا في الـدوار حتى حفـل الشـارع الـذي بجـواره بـأنــاس يتبصصـون على القادمين، ويتسمعون ما يجد من الأخبار، وحينئذ تميل الرؤوس على الرؤوس، وتخرج الإشاعات رائحة غاديـة مخترقـة البلدة من أقصاهـا إلى أقصاها.

ومن غير أن يلف مناد أو ينبه خفير، سرت الأوامر تحملها آذان إلى أفـواه، وأفواه إلى آذان.

وعرف الناس في غمضة عيـن أن الويـل لمن يخطي عتبـة داره بعـد المغرب، وعليهم إرجـاع المواشي قبـل حجة الشمس، وعليهـم بعد هذا ألا يوقدوا نارا أو يشعلوا مصابيح ثم ليتعشوا ويصلوا وينـاموا في الظلام، والويل لمن لا يعجبه الحال.

وكمـا يعم الصمت ساعـة الإفطار في رمضـان، سكتت الألسن فجـأة في الحلوق على أثر هـذه الأنـبـاء، واهتـزت الـرؤوس تجتـر الأوامر السريعة المتلاحقة على مهل وفي وجوم.

وشعر كل واحد أن الأمر أكثر من أن يفكر فيـه وحده، فتقـارب

الجيران مذهولين في حلقات، وامتلأت القهوة الوحيدة بالناس وقد أصبحت مصدر التخمينات.

وعلى قدر ما أذهلهم ما سمعوه فقد استنكروه وأبوا تصديقه.

* * *

ولم يستطع مخبول أن يتصور أن القرية كلها قد نامت من المغرب، والليل انقضى دون أن يسمع للعشاء أو للفجر أذان. لم يتصور مخبول حدوث هذا..

ولم ينتظر واحد منهم أن ينصت له آخر، فراحوا كلهم يتكلمون في انفعال واضح وقد علت الأصوات، واهتزت الأيدي وكلما ارتفع الجدال وازدحمت القهوة كثرت آذان النساء والبنات الملتصقة بالنوافذ، تلتقط ما استطاعت التقاطه ثم تطير به إلى المتحفظات القاعدات أمام الأبواب يتبادلن الآهات والحسرات.

وكان من المستحيل أن تستمر الحال على هذا المنوال، فشيئا شيئا كلت الأصوات، وهدأت المحاورات، ولف الحاضرون أيديهم حول كوبات الشاي والقرفة فقد كان هذا آخر عهدهم بالقهوة التي ستغلق أبوابها بعد اليوم ويبحث محمد أبو حسين صاحبها لنفسه عن عمل ثان. هكذا قالت الأوامر..

وسرعان ما بددت الجماعة الوجوم الذي أدى إليه النقاش، واستطاع جمعة أن يرفع صوته الأخنف حتى يسمع الموجودين ما كان يود قوله من زمن:

ـ والنبي لمـاشي في نص الليـل . . واللي يقـابلني حتف في وشه . .

ورد عليه حامد الصعيدي الذي يعمل الطعمية أيام السوق بصوته اللزج قائلا :

ـ يا شيخ اتلهى . . دانت لو دقت كرباج . .

وضحك الجمع ، واستمروا يضحكون وشعبان مقاول الأنفار يدق بيده على صدره ويقول :

ـ بذمة محمد أنا آكل عشرة من الكتربنت السود دول . .

وساهاه عبد الفتاح الخفير ، وهو في جموة كلامه ، ودلق بعض الماء في قفاه ، وانتفض شعبان ملسوعا خائفا . ولعلعت القهقهات .

وقال الخفير بعد أن شبع ضحكا :

ـ انتو عارفين ايه ياولاد . . دول بنادقهم هندي من أم حداشر طلقة ، مش زي الممغوصة بنادقنا الأرمنتوه . .

وأخذ بعد هذا يشرح ، في لهجة العالم ، الفرق بين الهندي والأرمنتوه ، وعدد قليل يسمع ، بينما الباقي قد تفرق يتهامس ويتحدث في شؤون العيش .

وساعتها كان نفر من الأعيان جالسين يستنشقون الهواء في الخلاء على مقاعد محطة القطار ومعهم العمدة . وتلقفوا الأنباء باهتمام قليل ، وأنصتوا إلى العمدة و أشداقه تضخم الكلمات ثم

تفرطها على دفعات وهو يقول ان البلد تلفت، والخلق باظت والذمم خربت، والناس تخاف ولا تخجل، ولا يصلحها إلا الكرابيج الغريبة . .

وكان الأعيان يموءون وهم يوافقونه على كل ما يقول، بل تمنى واحد منهم لو كان الود وده ليبقى الهجانة تسوق الناس أمامهم كالنعاج أعواما وأعواما .

* * *

واصفر العصر . .

وكانت البلد قد أفرغت ما لديها من كلام، وعرفت كل الأخبار والشائعات، ورويت من السخرية بنفسها ومن إخافة بعضها بعضاً .

وحين رأى الناس خيالاتهم تطول وتمتد، تذكروا المغرب وما ينتظرهم فيه .

وتحرك المصدقون والمكذبون والمتفكهون في كل اتجاه حتى أصبحت القرية كعش النمل. وأسرعت النسوة إلى الغيطان يستعجلن الأزواج ويروين ما حدث .

وازدحمت الأطباق والأذرع الملحة أمام الدكاكين، وتصاعدت أدخنة كثيرة من المواقد والأفران وقد تكهربت تنجز الطعام والخبز.

وفي النهاية قطعت الأرجل من الشوارع وتجمع الناس في

استغراب وسخرية حول الطبالي يحاولون ابتلاع العشاء، والشمس ما زالت طالعة.

وراح الآباء والأمهات يعدون الأولاد ويرون من الغائب، ويوصونهم ويخيفونهم من الشياطين السود من مغادرة الدور.

واختفت الشمس وراء نخيل الحوشة وحدها، ودون أن يراها أحد، فقبل المغرب كانت الأبواب قد أغلقت كلها، والناس رابضين في الدور وفوق السطوح.

ولم ينم الناس، وكيف ينامون، وانطلقوا يتحدثون داخل المنادر والقاعات، وغير مقتنعين بالذي حدث ولا مقيمين له أي اعتبار. .

وجاء قطار الثامنة يتهادى، وسمع الناس صفيره فانقطعت الأحاديث واستعدت الآذان كلها لسماع ما يجري للعائدين من البندر في القطار، الذين بلا شك لم يعلموا بما جد ولم يهيئوا أنفسهم له.

وارتجت قلوب كثيرة، وبكت نساء، ونهنهت عجائز، والآذان تشرخها الصرخات التي عمت القرية، ولسعها أصوات الاستجارة والهرولة والركض.

وأعقب الضجة سكون أغرق الليل والظلمة والناس، ما كان يقطعه إلا دبيب الأحذية الميري الثقيلة وهي تحف بالأرض بين الحين والحين، والصوت الرفيع ذو اللكنة البربرية الغريبة يقول وكأنه مطواة تقطع.

ـ مللي هناك . .

ولا يـرد عليـه أحـد، وقـد ينبـح كلب بعيـد، ثم يعـود الصمت الغامق .

وبات الناس ليلة طويلة أكثرها خوف ويقظة، والقريـة قد لفهـا جو خطير محير .

وأدرك الناس في حسرة حينئـذ أن المسألـة جد لا هـزال فيها . وأن الذي يقع ستزهق روحه وتسلخ الكرابيج جثته .

* * *

وطلع الصبح . .

وتفتحت الأبواب، وانطلق الخلق كالدجاج الذي ضايقته زحمة القفص . وكانوا حين يتبادلون تحية الصباح يقولونهـا بقلوب متورمـة، وأرواح حخجلة . كـانوا كـالذي فقـد شيئا، ولكنـه لا يـدري كنـه مـا فقد .

وتنـاقـل النـاس وهـم يتفـرقـون وراء رغيف الخبـز مـا حـدث للعائدين من البندر، وكـانوا يتنـاقلونه في فتـور خافت، وحين علمـوا أنهـم ربطوا بحبل، وقضوا الليلة في الدوار بعد علقة نصفهـا الموت، كانوا يهزون رؤوسهم ولا يقولـون شيئا، أو ينطـق الـواحد بكلمـة لا معنى لها ثم يسكت .

وبدأ يوم طويل كغيره من الأيام . . ومضى النهار في تلكؤ يخنق

الأنفاس وحين عاد الرجال في الظهر وما بعد الظهر منهكين مشتتين التقت الجماعات فوق المصاطب وأمام الدور وقد أغلقت القهوة. وكان كلامهم كثيرا لا روح فيه ولا فائدة كثرثرة النساء، وكل منهم يغرق في رواية تفاصيل ما سمعه من دبيب أثناء الليل، ويقص نفس الحكاية عما حدث بعد قطار الثامنة.

وحين مج الناس الكلام والعودة إليه، تحول الحديث الدائر على مصطبة المعلم عمر إلى ناحية أخرى لما عنَّ لعبد الغني الجمل أن يطيل لسانه. وعبد الغني هو المنقذ دائما من الحديث الممجوج فهو لا يعدم نكتة يرنها على الحاضرين فينسوا كل شيء وتستغرقهم فكاهات عبد الغني. وكان هو نفسه فكاهة، بقامته القصيرة التي تطاولها قامات الصغار، ورأسه التي مثل حبة البطاطس، وطاقيته الصوف المنطبقة بحذافيرها على جبهته، والتي حولها المنديل المحلاوي القديم ملفوفا ومربوطا بعقدة خبير حتى لا يبين شعره. وما كان له شعر. فتحت طاقيته كانت قرعته حمراء راشحة. وكان الناس إذا لم تسعف النكتة عبد الغني يجدون في رأسه المتنفس، ويجذب الجريء منهم طاقيته فتفج الحمرة من رأسه، وتنهال عليها البصقات.

غير أن ما حدث وجد فيه عبد الغني ثروة ما بعدها ثروة، فراح يقلد الأسطى عبد الخالق الحلاق السمين الطويل ذي الشوارب، وهو ممسك بحقيبته الخشبية التي فيها العدة في يده، ورافعا باليد الأخرى ذيله، والكرابيج تنهال عليه، ولا يستطيع الجري أو حتى التحرك وإنما يقول في تهتهة عاتبة مختنقة بالبكاء:

ـ ما يصحش يافندي . . يافندي مايصحش . .

وينفلت عبد الغني في براعة إلى عمك دعدور بائع السردين الذي نظره شيش بيش والذي يصر دائما على التحدث بالمنطق والحجج والقانون، وعلى فلسفة كل ما يدور في البلد من حادثات. وعبد الغني كان حين يغمز دعدور لا يخلو فؤاده من بعض الحقد، فقد كان الناس يضحكون لفلسفة دعدور الساذجة أكثر من ضحكهم لنكات عبد الغني المفتعلة التي يدافع بها عن نور رأسه.

وعلى غرة وجم الجالسون والواقفون وكفوا عما هم فيه حين همس الشحات في صوت آمر:

ـ هس يا جدع . . أهم جم . .

وما انتهى حتى كان الثلاثة يمرون من أمامهم. وكانت هذه أول مرة تقع عليهم الأبصار في وضح النهار. وسن كل واحد عينيه محاولا أن يلتهمهم بنظراته. كان فيهم واحد طويل رفيع ملفوف كعامود التليفون يبدو أبو عوف الجمال طفلاً إذا وقف بجواره، وكان الثاني أقصر منه إنما له شلاضيم أعوذ بالله منها يبرز بينها ضب من الأسنان اللامعة البياض وكأنها أصابع المذراة، وكان ثالثهم مبطظا مربعا وعيناه يقدح منهما الشرر، وكانت وجوههم في سواد الهباب وحلكة ليالي آخر الشهر، ويقطع سوادها تشريطات. وعلى كتف كل منهم بندقية، وفي يده كرباج طويل تلتف حوله أسلاك نحاسية صفراء تنتهي بعقد غليظة، العقدة منها تطلع بقطعة لحم.

ومروا بلا سلام أو كلام وكأنهم فائتون على جبانة، وما كاد دعدور يفتح فمه يعلق على الموقف بعدما ابتعدوا حتى أقفله ثانية وأحكم الإقفال. فقد عاد الثلاثة وفي عيونهم شر مستطير. ودون سابق إنذار ارتفعت الكرابيج مرة واحدة، ثم دوت، بينما لكنتهم تقول في حقد:

ـ على بيتك.. يا بنت الكلب..

وكان الشاطر هو الذي أخذ ثوبه في أسنانه، وقال اخلو لي الطريق.. وفي غمضة عين لم يكن في الشارع كله إنس واحد. وجرى الثلاثة وراء الناس كالنحل الفائع وكانت وقعة الذي يقابلهم أسود من شعر رأسه.

ويومها نامت البلد من العصر.

* * *

ومر يومان وثلاثة وخمسة، ولا حديث للناس خلال الساعات التي يستطيعون فيها الحديث إلا عن الهجانة وما فعلوه. فالليلة دخلوا على الحاج مصطفى وهو يتعشى، وقلبوا الطبلية وضربوه ثم تسلقوا السطح وراء الحاجة فألهبوها وهي تجأر بالصراخ.

وفي الغد تتناقل الألسن ما حدث لعبد الحميد وامرأته حين أشرفت على الوضع وخرج غصباً عنه يحضر أم مخيمر الداية، وكيف ظلوا يضربونه حتى قال: إني مره..

وليلتها بات في الدوار ووضعت امرأته وحدها واستمرت تنزف

إلى أن جاءتها الإسعاف في الصباح . .

والا يوم قابلوا شيخ البلد وجف ريقه ووقف لسانه وهو يردد:

ـ أنا الشيخ . . أنا الشيخ . . أنا الشيخ . .

يقولها ويرددها حتى والكرابيج تنهال عليه والهجانة تقول:

ـ شيكه ايه يا هراميه . . خش بيتك . .

وكل حديث من الأحاديث كان يزيد انكماش الواحد في جلده، فأصبح لا هم لكل إنسان إلا أن ينهي ما في يده حتى يلزم داره. أما الذين كانوا يعملوة في البندر ويجيئون في القطار فقد استغنى أكثرهم عن عمله، وداروا في القرية بلا عمل، والباقي فضل ألف مرة أن يبيت على أي وجه في البندر ولو على الرصيف.

وفي يوم السوق كانت قصة تحكي ويعقبها استنكار كثير. فقد ضربوا ليلتها مرسي أبو إسماعين. وصحيح أن مرسي لم يكن يملك قيراطا واحدا وليس في حوزته فدان إيجار، إنما كان ولدا ولا كل الأولاد، كان ابن ليل قتل وسرق ونهب، وفي صدره العريض الراسخ ترقد قصص تشيب لهولها الولدان ومع هذا ففي البلد كان يعيش في حاله، وأدبه في معاملة الناس مضرب الأمثال، كان يعود المريض ويعزي في الميت ويساعد الضعيف وينتقم للمظلوم ويقف لكل صغير وكبير وكانت البلد تفخر به إذا جاء مجال الفخر بين أبطال البلاد، ويروون عنه كيف لوى سسيخ الحديد وكسر المسمار ورفع كيس القطن وحده على الجمل. وعلى حسه كان الناس يتركون محاريثهم

ومواشيهم في الحقول. . وبعد هذا كله تضربه الهجانة؟ وتطلق عليه النار إرهابا حين حاول المقاومة؟ ثم تدك صدره بعد ذلك بدبشك البنادق وكعوب الأحذية؟.

واضطر الناس في النهاية أن يصدقوا حين كانوا يقاربون السوق، ويمرون بالمركز، ويشاهدون أبو إسماعين قابضا على حديد النافذة كالأسد الجريح.

وعادوا يومها من السوق وكل يقول لنفسه: ابعد عن الشر وغني له.

* * *

وكما تتهادى مياه الترعة لا يقلقها إلا موجات خانعة لا تكاد تشب حتى تموت، عاش الناس وقد رضوا بما كان وسلموا بما حدث، وما قد بقي في قلوبهم من استنكاف زال وانمحى، ولم يعد بها إلا تسليم ذليل، حتى العمدة الذي كانت كل بادرة تصل إليه، فيسمعها، ويجعل أذناً من طين وأخرى من عجين، قابلوه ذات ليلة فقال لهم أنه العمدة فردوا عليه:

ـ ولو. خش بيتك.

ودخل بيته، وأغلق الباب بالضبة والمفتاح دون أن يقول ثلث الثلاثة كام.

وبلغت الحكـاية النـاس، وضحكوا في سرهم على العمـدة، وتشفوا فيه!، وعرفوا أنـه غلبان مثلهم ولا حـول له ولا قـوة، وأنه لـم يعد الحاكم الناهي في البلد. .

وتـطلع النـاس إلى الحكـام السـود الجـدد وبـدأوا يتعـرفـون أسماءهم ويخلطون بين حسن الطويـل وجاسر القصير، وسلطان الذي لـه عيون الـذئب، ومضوا يتحسسـون أخبـارهم ويعـدون عليهم كـل ساكنة، وواردة، ويعرفون يـوما بيـوم من عند من سيـأكلون، ومن أي بيت من بيوت الأعيان سيحمل لهم عبد الفتاح الخفير الصينية الحافلة فوق رأسه. .

وكـان الصغار سبـاقين إلى تتبع مـا يدور في غـرفـة الهجـانـة، فكانوا يدسون أنظارهم خلال نوافذها ثم يزهقون من التطلع فيجـرون وراء بعضهم وهم يقلدون أصوات العساكر ومشيتهم ويستعيضون عن الاستغمايـة أثناء الليل بالجري بالأطواق أثنـاء النهار، ويلحـون على آبائهم حتى يشتروا لهم كرابيج مثل التي مع الهجانة وحين لا يجدون في إلحـاحهم أملا يصنعـونها هم من ذيـول البهائم التي يـذبحها أبـو أحمد الجزار وكذلك من أجزاء أخرى. . وبدلا من الزجر الذي كانوا يلقونه من الآباء في أول الأمر، تساهل الآباء، بل تعـدى الأمر حـدود التساهل، وتـدخلت سيرة الكـرابيج فيمـا كان يـدور بين الرجـال من أحـاديث لا تنتهي حول صنعهـا وحول البـلاد التي تصنعها وهـل هي مصر أم السودان.

وكان الطلبة والتلامذة الذين يقضـون إجازتهم بـالبلدة يسمعون

الأحاديث، ويسخرون من الجهل الذي يسودها، ويتفضل واحد منهم ويصلح ما أفسده الجهل. ويتطرق الكلام إلى الهجانة أنفسهم، ويصغي الناس في شيء من الإكبار إلى الأفندية وهم يسخرون بالحكام السود، ويتفكهون عليهم، ثم ينقلبون بجراءتهم على البلدة الجبانة التي تتمسح في أحذية عساكر ثلاثة، لا يساوي الواحد منهم مليما أحمر.

وكان الناس يعرفون سر سخط التلاميذ فقد منعت الأوامر الجديدة طوابيرهم التي كانت تجوب القرية رائحة غادية، وكذلك سهراتهم إلى نصف الليل على الميزانية الحجر، وجريهم وراء بعضهم في دروب البلدة النائمة، وتربصهم بالبنات.

وكان الناس يسمعون الكلام ويسكتون. فالمتاعب لا تنقصهم ولكن كان بعضهم لا يسكت، فالبدراوي محترف كتابة العرائض والبلاغات مضى عليه أسبوع ،وله كل يوم عريضة وكل صبح بلاغ، يفند فيها ما صنعه العساكر بالبلد. ولكنه حين عرف أن الهجانة قد علمت بأمره، نفض يده من الكتابة، واندفع يتقرب إليهم ويتلطف معهم، ويرجع بنسبه إلى دنقلة حيث جاءوا ،ويتطوع بإبلاغهم سرا ما يحدث وراء ظهورهم. ولم ينفعه كل هذا حين قابلته الهجانة التي لا تعرف عربي ذات ليلة وقد اطمأن إلى صداقتهم فجعلوه يعض الأرض وهو يستعرض تربة أجدادهم . .

وكانت البلد حين يسلمها يوم كئيب إلى آخر أشد منه كآبة

يزداد شعورها بأنها كانت في نعمـة، وزالت، وأن الخراب قـد حل، ويكاد محمد أبو حسين صاحب القهـوة يخبط رأسه في الحـائط على رزقه المقطوع، وتجار الكيف معه ساخطون، والخفـراء يصرون على أسنـانهم ويكتمون وهم في أعمـاقهم يتمنـون مصيبـة عـاجلة تـطيح بالهجانة وقد أصبحـوا هم وشيخهم وعمدتهم دلاديـل، وصار لـزاما عليهم أن يقضـوا الليل بـطوله سـاهرين، والـدكاكين وقفت حـالهـا، والعـاملون بالبنـدر لا يجدون الخبـز، ولا صلاة ولا عبـادة أو سهـر، وإنمـا ضرب وإهـانة ومسخـرة وكأنمـا البلد بـأنـاسهـا عـزبـة أبيهم، والحكايات تترى عن ركنتهم في زقاق مبروكة، ومبروكة تاجرة البيض العازبة كـانت الركنـة في زقاقهـا حدثـا تتلاعب لـه الحواجب وتغمـز العيون.

والنـاس في صبرهم كـالجمال، تشهـد وتسمـع وتقـاسي حتى تـحين اللحظة.

وقد حانت. .

* * *

كان مرسي أبو سماعين قد مضت أيام على خروجه من الحجز ولكنـه لم يمكث في البلد إلا يومـا واحدا، ثم غـادرهـا إلى حيث لا يعرف أحد. يـومها كـان الناس يتـدبرون في ملل مـاذا يطبخـون ليلة النصف من شعبان. وفوجئ الذين خلفهم النهار في البيوت بالهجـانة وهي تجري هنا وهناك هالعة. وما أثار جريانهم الخوف بقـدر ما أثـار

الاستغراب. فما كانوا يرتدون بدلهم أو أحذيتهم الثقيلة وليس في أيديهم كرابيج، وإنما حفاة عراة وقد نكشت شعورهم السوداء الغامقة.

وحسب الناس أن شيئا خطيرا قد حدث أو أن حريقا شب، فلم يتمالكوا أنفسهم وجرى البعض وراءهم. غير أن الخبر عرف في النهاية، واتضح أن عبد السلام النجار هو الذي وقف لهم على رأس الشارع، والورداني هو الذي أحضر السلمين وربطهما معا ثم صنع منهما قنطرة وصلت حائط الدوار بحائط بيت أبو حسين، وبقية الرجال كانوا على السطح وكان مع عبد المجيد سكينة طويلة بحدين، ومع الورداني بلطة، ومع صالح بندقية ميزر، وكان مع أبو حمد شمروخه الذي ما ورفعه مرة إلا وكسر به رأس.

والمهم أن مرسي أبو إسماعين الشارب من لبن أمه هو الذي تسلل وحده إلى الغرفة التي ينام فيها الهجانة في النهار وخرج حاملا بنادقهم.

وقص الرواة وشهود العيان ما جرى بعد هذا. وكيف تذلل الطغاة إلى العمدة وكادوا يقبلون مداسه، وكيف بكى جاسر وهو يستعطف الرجل ويرجوه أن يعثر لهم على البنادق حتى لا يروحوا في ألف داهية. واختلفت الروايات في رد العمدة ولكنها اتفقت على أن الرجل استعبط عليهم وأفهمهم أن الأمر قد خرج من يده، مع أنه يعرف، وكل الناس يعرفون من هم أولاد الحلال الذين فعلوها.

ويسكت الرواة، فالبقية قد شاهدها كل الناس، حين انقلب المركز، والنيابة، وجاء ضباط من المديرية، وارتبكت الدنيا، ولم يتوقف التليفون عن الرنين.

وانتهى اليوم وقد سيق الهجانة محروسين.

وحين أقبل الليل كان عشرة من أهل البلد قد غيبهم المركز، والمباحث تقص الأثر وراء أبو إسماعين، والقهوة لا تزال مغلقة، والناس تتساءل في قلق عما يحدث غدا، وهل يجيء هجانة آخرون، أم يكتفي الحكام بالذي مضى.

ورغم هذا فقد أوقد الناس المصابيح، ورأوا النور في الليل وقد اشتاقوا إلى النور، وأذن المغرب والعشاء وامتلأ الجامع بالمصلين، وانطلقت الضحكات لأتفه الأسباب، وبلا أسباب، ولعب الطلبة والتلاميذ الكرة في ضوء القمر، وانتشرت مواكب الصغار تجوب القرية مهللة فرحانة وأحدهم يهتف بأغنية خارجة عن الهجانة والباقون يردون، حتى الصبايا، لم يخجلن، فرحن يرددنها هن الأخريات، وتتوقف المواكب عند السامر الذي أحياه عبد الغني، وقد تحزم بمنديله، وكشف رأسه عن عمد فبانت حمرتها، وهو يرقص، وعمك دعدور يطبل له على طشت النحاس، والشاعر قد ازدحم بالضاحكين المصفقين وهم يردون على عبد الغني ويقولون:

أهي ليلة يا جميل..

أهي ليلة والسلام..

الحـــادث

ذات عام كان عبد النبي أفندي والست حرمه في مصر، وكانت الدنيا صيفا، وعبد النبي أفندي يمشي بجوار امرأته بجسده الذي هـو طويل حقـاً ولكنه ذلك النوع من الطول الذي لا يبدو له عـرض ، فلا سمنة تبرزه، ولا أكتاف ممشوقة تنسيك رفعه، وإنمـا شيئان هـاكعان مضمومان تتعلق عليهما سترتـه كأنهـا معلقة على شمـاعة. . ومـع أنه كان يرتـدي بدلـة، إلا أنك كنت تستـطيع أن تـدرك للتو أنـه لم يعتد ارتـداءهـا، فقـد كـان يخـطر فيهـا وكـأنـه لا يـزال يخـطر في الجبـة والقفـطان، ويمـد يـــده وكـأنهـــا لا زالت طليقـة في الكم الـــواسـع الهفاف. . وكنت تستطيع أن تقسم أن نار المكوى لم تلسع بدلته منذ أن وجـدت وكـذلـك لا تقـدر أن تخمن متى وجـدت، ومـــع ذلـك فالمحافظة على الملابس كانت في دم عبد النبي أفندي، ولهذا كان يضع منديله النص نص الأبيض بين رقبته وبين ياقة سترتـه حتى يمنع عنهـا العرق الـذي ينضحـه قفـاه الأسمـر، وكـذلـك كـان يفعـل في طربوشه. . والغريب بعد هذا أن ياقة السترة، وحافة الطربوش، كانتا دائمـــا من أمتـع الأمكنـــة التي يحلو للعـرق والتـــراب البقـاء فيهـــا واستعمارها. .

وبالقياس إلى وجه عبد النبي أفندي الذي قدمت سحنته حتى اسودت، وتناثرت تجاعيده في طيبة قبيحة ولكنها طيبة والسلام، بالقياس إلى وجهه، كان وجه امرأته الماشية بجواره حلوا أبيض فيه احمرار، ليس هذا فقط، بل إنها كانت ترتدي ثوبها الحرير الأحمر الذي دخلت به، وفوقه الفستان الشفاف الأسود، وكانت تضع فوق شعرها الطويل البري قبعة ذات ريشة، كان عبد النبي أفندي قد اشتراها لها أيام (مودة) القبعات.. ولم تنس الست تفاحة أن تسدل فوق وجهها البيشة الكحلية التي تثنت أطرافها ولمعت أجزاء منها، وتلاصقت من كثرة ما وضعتها على وجوه أطفالها حين كان يصيبهم الرمد.

وكان عبد النبي أفندي وهو يهم بخطوه ليلاحق امرأته، كان في لحظة من تلك اللحظات التي يحس الإنسان فيها أن الدنيا عال، وكل شيء جميل، ولم تكن هذه السعادة لأنه في مصر، فقد زارها مرات قبل هذه المرة ليسعى حتى لا تنقله الوزارة من المدرسة الالزامية التي هو مدرس فيها، زارها قبل الآن مرات، وعرف العتبة وكوبري عباس والمعرض وشارع المبتديان الذي فيه بيت حافظ أفندي وترام ٤ الذي يروح السيدة.

لم يكن سعيدا إذن لأنه في مصر، ولكنه كان عامرا بالنشوة لأن تفاحة معه هذه المرة، هادئة بجواره كالحمل الرضيع، لا تعايره كعادتها بكبره وصغرها ولا تركب رأسها وتمتطي لسانها وتسخر منه ومن علمه ومن (حتة) المدرس الذي لا طلع ولا نزل، وإنما هي

صامتة مدهوشة ذاهلة وهو يفرجها على مصر، ويريها ولو مرة واحدة في حياته، أنه يعرف أكثر منها وله نفع أكثر من نفعها في بعض الأحيان.

وكان هذا ثاني يوم لهما في القاهرة وكذلك آخر يوم، وكان عبد النبي أفندي قد أتى بها في طراوة العصر ليريها البحر، وكانت هي في ذهولها لاهية عن كل شيء إلا عن نساء مصر، ولحمهن المكشوف، وعيونهن التي تحدق في قحة وفجور ناحية الرجال دون أدنى خجل أو كشوف. . وكانت إذا مرت بها واحدة لا تستطيع أن تكتم ما في نفسها، فتبعث وراءها بسلسلة طويلة من الشتائم واللعنات. .

وحين انتهى عبد النبي أفندي بها إلى مكان على الشاطئ توقف، ومضغ ملء فمه فرحا قبل أن يقول:

ـ شايفه يا تفاحة. . أهو دا النيل اللي بيقولوا عنه. .

وردت تفاحة وقد فاجأها البحر فتاهت في ملكوته ونسيت عيون النساء:

ـ ياه. . يا خرابي يا عبد النبي.

ولهثت قبل أن تستطرد:

ـ دا والنبي يبلع طوره زي بحر مويس. .

وانتظر عبد النبي أفندي متلذذا وامرأته تهضم انبهارها، وقلبه

يرفرف بالفرحة وهو فخور بالنيل الذي أدهش تفاحة ـ وما كان شيء يدهشها ـ وكأن ذلك البحر نيله، والقاهرة بحالها إحدى ضياعه . .

وقبل أن تستيقظ تفاحة من غفوة الدهشة التي انتابتها، عسعس عبد النبي أفندي بلا وعي في جيبه فعثر على حبة حمص كانت باقية فألقى بها بلا وعي أيضا في فمه، وخلع طربوشه نهائيا وأمسكه في يده فبان شعره الخفيف المنكوش الذي لا يفلح في إخفاء صلعته، وقال بصوته الفرحان، وهو يحاول نفخ كرشه المتواضع، ويمد الكلمات ويجد السعادة في مطها والركون عند أواخرها:

ـ وآدي . . يا ستي . . قصر إسماعين باشا . . . .

وابتلع عبد النبي أفندي ريقه، وأخذ يحرك حافة الطربوش بين أصابعه وكأنها مسبحة ،ومصمص ما تبقى من الحمصة في ضرسه الوحيد الذي نخره السوس، واستعد للشرح . . وفعلا بدأ يتكلم . . ولكن تفاحة كانت قد رأت لحظتها الكوبري العريض الذي تمر عليه عربات بأكملها، ثم يسع الناس بعد ذلك أيضا. ولم تنتظر ما يقوله وإنما انطلقت كالمشدوهة ناحية الكوبري، ولحقها عبد النبي أفندي وهو يداري سخطه غير يائس، ولم يتوقف لتسأله وإنما انطلق من نفسه يروي لها قصة الكوبري، ويشير إلى الأسدين الرابضين والتمثال الذي في نهايته، ويمسح رذاذ كلامه بالمنديل ثم يعود يضعه حول ياقة سترته، ويدق بعصاه ـ وكانت له عصا ـ على الأسفلت ليريها متانته، وتنحني، فينحني معها على الحاجز ويستمر يتكلم وهو يريها الماء الذي يمور ويفور ويتموج . .

وأخيرا نطقت تفاحة، سألته:

ـ اللا يا عبده.. صحيح البحر ده مالوش قرار؟..

وأجاب عبد النبي أفندي أنه بالتأكيد له قرار، فلم تصدقه، بل وتاهت عن نفسها وعنه وخيل إليها وعيناها تتابعان الموج في شغف أن الكوبري يتحرك بها ويتراجع، وعادت تحدق في الكوبري وقصر النيل، واطمأنت إلى أن كل شيء ثابت في مكانه لا يسير، وتعجبت أكثر، ثم تاهت مع الماء مرة أخرى..

وفجأة، جأرت بكلمة سمعها عبد النبي أفندي صرخة، فارتاع، ووقف ينظر إليها ضائع العقل.. واستمرت هي تصرخ وتقول:

ـ الحق.. حوش يا جدع..

ولم تسعفها الكلمات، فلكمت كمية الدهن القليلة التي تصنع جنب عبد النبي أفندي، وقد تشنج فمها وتصلبت أطرافها، وودت من صميمها أن ينفذ لها عبد النبي ما تريده قبل أن يرتد إليها رمشها..

وكان هذا ما يضايق عبد النبي فيها فما أكثر ما كانت تدفعه وتصيح فيه، وتشده، طالبة منه أن يفعل شيئا دون أن تقول ما هو ذلك الشيء، ويقف عبد النبي لحظتئذ حائراً نافد البال، وكأنه أعمى يريد أن يلضم إبره..

- يا شيخ اتحرك . . الله . . الحق يا عبد النبي . . يا ستار يا رب . . يا رب استر . . استر يا رب . .

ودبت على صدرها وابيض وجهها وكاد يصفر . .

وعلى قدر ما استطاع اتجه عبد النبي ببصره إلى حيث كانت تنظر، فما وجد شيئا غير ماتوقع أن يجد، ولكن إلحاح زوجته وقرصاتها ودفعها، جعلته يكذب نفسه، وتتقارب أجفانه، ويتلاصق حاجباه العريضان الخفيفان صانعين تجعيدة مفرطحة فوق أنفه، محاولا أن يجد ذلك الشيء الذي أرعب تفاحة فأرعبته . .

وكان صبر الزوجة نفد فنطقت أخيرا وقد عذبها فهمه الحميري ! . .

- حوش يا راجل! . . الولد! . . فين ايه!؟! . . يا باي عليك . . أهه يا أعمى ! . .

وحدق عبد النبي أفندي مستغربا في الماء، وهناك في وسط النيل رأى الحادث.

كان العصر قد بدأ يشحب وينتهي، وكانت الشمس الذاهبة التي في السماء والشمس الغارقة المدفونة في الماء . . كانت شعاعاتها تصطدم على سطح الموج الصغير المتراقص فتتفتت الشعاعات إلى ملايين من ذرات ماس تتناثر في كل اتجاه .. وفي وسط هذا البريق العائم كان هناك قارب أبيض صغير يكاد يبلغ حجمه حجم القوارب التي يصنعها العابث بالورق . . وكان في

القارب طفل . . طفل دقيق يرتدي بذلة البحارة البيضاء وكان الهواء يداعب شعره الأصفر في عنف رقيق وكأنه ما يهب إلا ليداعب شعره . . وكان الصغير جالسا في أتم الهدوء وفي اتزان الكبير المالئ يده من قوته، وذراعاه الصغيرتان البضتان تمسكان بالمجاديف في ثقة وتعملان بلا وهوادة . .

وكان ممكنا أن تمر ساعة بأكملها قبل أن يقتنع عبد النبي أفندي ويسلم بحقيقة ما يراه، ولكن المسألة لم تأخذ وقتا طويلا، فبعد أن حملق من هنا ثم أحكم وضع الطربوش وأدلى رأسه على قدر ما استطاع وحملق من هناك، وثنى رقبته مرة إلى اليمين ومرات إلى اليسار. بعد هذا كله أغلق عينيه وقال بصوت فيه تأنيب:

- جرى ايه يا شيخه؟ طربتيني ! . .

وانتفضت امرأته تقول وغيظها يشتد:

- جرى ايه ايه؟! مانتاش شايف؟! حوش يا راجل . .

- بس لو تطولي بالك . . لازم أبوه وأمه هنا والـلا هنا . . أمال! . . لازم! . . الله ! . . هي لعبة؟ . . واللامش معقول يا سيدنا لفندي؟ .

وسيدنا لفندي الذي توجه عبد النبي إليه بالخطاب لم يكن واحدا وإنما كان كثيرين . . وكان بعضهم قد وقف يتفرج على تفاحة وعبد النبي وقد أعجبه مرآهما ثم مضى بعد أن أشبع فضوله .

وكان البعض قد رأى الطفل فعلا فاسترعى الطفل انتباه الجزء

الأكبر من تفكيره ثم لما علا صوت تفاحة واشتد حماسها بدأ يوزع انتباهه بين الطفل وبين المرأة ذات الزي الغريب، وما تقوله والرجل الذي معها . .

وكان بعض ثالث قد أخذ الأمر على محمل الهزل فمضى يلعق بلسانه ثوب تفاحة وبيشتها، وطربوش عبد النبي أفندي وحذاءه، دون اكتراث لما يحدث داخل النيل . . ولم يعدم الأمر أن يكون هناك أفندي واحد عاقل راح يتطلع إلى الطفل ويتابع القارب بناظريه وقد امتصه المشهد كله، ولم يتبين أحد إن كان يحدث نفسه أو يرد على عبد النبي أفندي حين قال:

ـ يا سلام! . . أما ناس صحيح! . .

وأسرع عبد النبي أفندي يلحم الحديث حتى لا ينقطع:

ـ دا لازم خواجه . . مش معقول ده ابن عرب . .

وردت أصوات تقول:

أيوه دا لازم ابن جنية . .

وعقبت أصوات أخرى:

ـ أيوه يا سيدي . . الفرنجة اللي على أصلها بأه! . .

أما تفاحة فقد كان همها طول الوقت مركزاً في إنقاذ الولد . . فقد كانت متأكدة أنه حالا سيغرق في ذلك البحر الواسع الذي لا قرار له . .

ولذلك، وحين لم يسعفها عبد النبي استدارت تقول في إلحاح عصبي ولم تكن تدري لمن تقول:

ـ الله!.. حوشوا يا جماعة!.. هو مافيش خير؟!.. والنبي لـو كنت راجل..

وكانت الجماعة في شغل عنها بالدوامات الصغيـرة من النقاش التي أخذت تلف وتدور حول القارب، والطفل، وأبويه وأحيانا حـول لـون شعره، والمـلابس التي يرتـديها.. ولمـح الأفندي ابن الحـلال الواقف تفاحة في عصبيتها وذعرها فرمقها بنـظرة فيها سخـرية متنكـرة في ابتسامة ورثاء وقال على مهله:

ـ يا ست متخافيش.. دا الولد بيتفسح..

وأسعد الرأي الجديد عبد النبي أفندي الذي كان واقفـا لا رأي لـه ولا حول، فـانضم إليه في التـو، وقال مجيبـا على دهشة امـرأتـه واستنكارها:

ـ أيوه!.. أمال؟.. بيتفسح!!..

وردت تفاحة على عجل وهي لا تصدق:

ـ يالهوي.. وأهله سايبينه كده؟..

وفي هـذه اللحظة تهلل وجـه الأفندي ابن الحـلال وقـد اشتـد إعجـابـه بمـا يجـري وقـال وهـو يبتسم في تؤدة ويشيـر إلى الشـاطئ الآخر:

ـ أهم! . . أهم! . .

وأقلعت العيون كلها صوب الشاطئ الثاني حتى التقت بشبحين بعيدين ممدودين يرتديان أبيض في أبيض، وفوق رأس أحدهما (إيشارب) أخضر وهما يلوحان بأيديهما، والطفل يلوح لهما هو الآخر بذراعه القصيرة في نشاط وغبطة.

وقال عبد النبي أفندي في جذل أبوي:

ـ دول لازم يا عيني أبوه وأمه. .

وتحدثه تفاحة وهي لا تصدق قائلة:

ـ بقى يعني هم سايبينه صحيح يتفسح؟! . .

فرد عبد النبي أفندي وقد أفاق من جذله وأصبح من رأيها:

ـ أمال ايه؟! . . مجانين! . . فرنجه كدب. . ضلال. .

وكانت تفاحة تغلي. فليكن الولد في فسحة أو في مصيبة، ولكن أي أب مجنون هذا؟. . وأية أم ملحوسة؟. . وكيف يجلس هذا الشحط ممددا جسده على الحشيش بينما ابنه يكاد الماء يطبق عليه؟! وكيف تحتمل هذا المرأة أن تلوح بيدها للولد هكذا في رقاعة؟! ألا تستحق بالذمة قطع هذه اليد؟.

أهذه مصر؟ وآباء مصر وأمهاتها؟. .

ـ تفوه علادي بلد. .

قالتها تفاحة وهي تبصق في حقد وشدة محاولة دفع البصقة

حتى تصل إلى الشاطئ الآخر، ولكن الريح الطيب تكفل بردها كاملة غير منقوصة إلى وجه عبد النبي أفندي.. وفوجئ المسكين، وبهت، ولكنه سرعان ما تناول منديله يمسحها، واهتز جسده كله وهو يقهقه ويمزح مع امرأته قائلا:

ـ اخصى عليكي هبلة ماتختشيش.. كدهه؟..

واستدارت تفاحة دون اكتراث لما حدث ومشت وهي تتمتم:

ـ قال ايه؟!.. قال بيتفسح!!.. والنبي لو كان عيل من عيالي كنت دبحته.. أنهي مغفل يأمن على كبده؟..

وأسرع وراءها عبد النبي أفندي محاولا أن يهدئ من ثائرتها ولكن غضبها لم ينفثئ وظلت ما تبقى من النهار وبوزها شبرين..

وعند رجوعها إلى اللوكاندة في سيدنا الحسين وعبد النبي أفندي جالس يراجع الكشف الذي كتبه بالأشياء الواجب شراؤها من مصر قبلما يجيئون، وتفاحة تصلي على النبي مرات لتستطيع أن تتذكر شيئا راح عن بالها أن تمليه، وحين يئست من تذكره، قطعت يأسها قائلة:

ـ أما عجيبة.. صحيح.. اللي يمشي يشوف أكتر..

واستخلص عبد النبي أفندي نفسه وألقى نظرة على ركاب الترام قبل أن يقول وهو لا يزال سارحا بما في الكشف:

ـ يشوف ايه؟!..

وأيضا لم ترد عليه، وإنما مضت تحدث نفسها وتقطع الكلمات:

ـ قال بيتفسح قال!! يخي يلعن..

وفي آخر قطار وهما عائدان إلى البلد مدفونان في زحمته، جاءت جلسة تفاحة بجانب عجوز كانت نازلة في قليوب.. ولم يكن مستحيلا أن يبدأ الحديث.. وغادرت الولية القطار في قليوب وهي الأخرى لا تصدق ما روته جارتها عن الطفل وسنه التي لا تزيد عن الأربع سنين، والقارب والبحر..

ولما وصلا البلدة والليل قد تأخر، وعلمت أن الأولاد قد انتهزا فرصة غيابها واستحموا كما كانوا يريدون في الترعة، لم تستطع الانتظار فأيقظتهم واحدا وراء الآخر، ولهلبت كلا منهم بعلقة..

ومع الصباح توافدت النساء يسألنها عن مصر وعن الفاتحة التي أوصينها بقراءتها في السيدة، وعما طلبنه منها ووعدت بإحضاره.. ولم تذكر تفاحة من كل زيارتها إلا حكاية المفعوص الذي طوله شبر، والذي كانت أحيانا تقول أنه غرق أمام عينيها، وأحيانا أخرى لا يطاوعها قلبها فتروي أن مراكبيا أنقذه، وعلى أي الحالين كانت تلعن أباه وتسب أمه..

ولم يبرح الولد مخيلتها أسابيع طوالا.

أما عبد النبي أفندي فمع أنه كان ينسى كل ما يمر به من حادثات مهما كانت الحادثات إلا أن هذه الواقعة بالذات كثيرا ما

كانت تراوده، وحينئذ كان يتذكر جمال الولد وصفرة شعره وثباته واطمئنانه وثقته، ويده الصغيرة البضة وهي تدفع المجداف، وفي الحال كانت ترتسم أمامه صورة ابنه الكبير محمد، الداخل باسم الله على عامه العاشر، ويده الخشنة الماسكة طول النهار بلقمة العيش المغموسة في العسل الأسود، والعسل يتساقط منها على الأرض وفوق جلبابه وداخل صدره، والذي يضع رأسه خجلا بين فخذيه إذا أقبل ضيف، وما أن يبدأه أحد بالكلام ـ أي كلام ـ حتى يتراجع خائفا، قائلا بصوت كمواء القطط:

ـ يا اما.. ياما تفاحة..

كانت ترتسم أمامه صورة ابنه فيخطط الدوائر على الدرج الذي أمامه بقطعة الطباشير التي في يده، ويمصمص ضرسه المثقوب بصوت مسموع، ثم يتنهد وهو ينساب في حلم يقظان جميل فيرى محمدا راكبا ذات يوم قارباً وحده عابرا النيل في ملابس بيضاء نظيفة، وقد استوى شعره ولمع، واحمر وجهه وابيض، وهو غير خائف من الماء، ولا مقيم وزناً للبحر العريض.

رهـــان

كان يومها من أيام الصيف الحلال، والطريق الزراعي الطويل ليس فيه ذبابة ولا غراب، والدنيا ظهر، والحر يكتم أنفاس السكون، ويكفن صغار النسمات ويجعل من «غرزة» الشرقاوي جنة وحيدة على جانب الطريق الذي يتلوى بالقيظ والنار.

وكان في «الغرزة» ساعتها أربعة من زبائنها الدائمين، الذين تسرب موسم القطن إلى محافظهم، فجعلها تمتلئ بالبرايز والقروش والخمسات. وكانوا يتحدثون بكلام فاتر ممدود. وفيما عدا هذا كان صالح بائع التين الشوكي يتربع بجانب قفصه، وقد مال فوقه، وغرق في صمت حزين وهو ينش الذباب عن تينه وأحيانا عن وجهه. والشرقاوي صاحب المكان استغرقه الصراع مع النوم وأمامه «وابور» الجاز مطفيا، ولا يصغي إلى فرج، عامل رش الطريق، المتربع بجوار عامود من الأعمدة التي تحمل سقف الغرزة، والذي كان يطلب في إلحاح تتخلله فترات صبر طويلة أن يأذن له الشرقاوي فيشرب على «الجوزة» كرسياً من الدخان.

ودخل القادم الغريب..

كـان أعرابيـا طويـلا ناشف العـود، يـرتـدي قميصـا من البفتـة القـديمة يكشف عن سـاقيه اللتين التصق جلدهمـا بالعـظام، وحـول وسطه حزام عريض من الصوف يشد ظهره، وفوق رأسه شال في لون التراب، وعقال باهت تقطعت خيوطه، والعـرق قد صنـع فوق وجهـه المدبب بحورا وأنهارا، وعيناه يكاد الدم يسيل منهما . .

ورد الجالسون سلامه، ووضـع من فوق كتفـه خـروفاً صغيرا كـان يـلهث، وحـين سـأل عن المـاء أشـار الشـرقـاوي إلى الـزيـر المدفون في الأرض. وشرب الرجـل كل مـا كان في قـاع الزيـر، ثم أخذ مكانه فوق المصـطبة وقـد انتقل المـاء في سرعـة من بطنـه إلى وجهه . .

ولم تكن الألسنة تستطيـع احتمال الغفـوة وفي حضرتهـا غريب وسرعان ما دار الحديث، وعرف الجالسون من أين هو قادم وإلى أين هو ذاهب، وما لبث الاستخفاف أن انزلق إلى الألسنة حين أدركوا أن الرجل لا ناقة له ولا جمل، ولا نقود معه ولا حشيش

وفي الوقت الذي كان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، كان صالـح قد بدأ ينشط، ويكف عن نش الذباب، ويساهم في الحديث بنصيب وافر، ويتغزل في التين وطراوته التي تنزل على القلب فتحييه .

وأصبـح صالح وحده هو الذي يتكلم، ولعاب البـاقين يتحرك لكلامه . .

واستفتح واحد منه بخمسة (كيزان) واستكثر البـاقون الخمسـة

عليه، وأهمل هو استكثارهم، وأعلن أنه يستطيع التهام القفص كله . .

وضحك الموجودون، وسألوا (شيخ العرب) عن رأيه وهم يضحكون. وتوقفوا حين قال العربي في صوته المؤدب الخافت: أنا آكل ميه . .

واستكثروا الرقم، بل لم يتصوروا أبدا أن الثور نفسه يستطيع أن يأكل مثل هذا العدد.

وحاوروه وداوروه وهم يسخرون ولكنه أصر على الرقم، وقدم الخروف الصغير ضمانا لكلمته.

وأخرج واحد محفظته وقد قبل الرهان، واستعد لدفع ثمن المائة إذا أكلها الرجل.

وكاد صالح يطير من الفرح وهو يقشر، والعربي يأكل، والباقون في نفس واحد يعدون.

وتحرك فرج من جلسته، ونسي كرسي الدخان، وانضم إلى صالح يقشر معه.

وكان الاثنان لا يلاحقان فم الرجل، وهو يتأوى (الكيزان) واحداً وراء الآخر في سهولة وسرعة وكأنه يقذفها في بئر لا قرار لها.

وحملق الشرقاوي في الرجل وقد غادره النوم إلى غير رجعة، وراح يهمس وهو يعد مع زبائنه ومع صالح وفرج.

وعند الأربعين فك الرجل حزامه . .

وحوالي الستين طلب الرجل ماء، فأسرع الشرقاوي يجري ويملأ الكوب من الترعة . .

وفي التسعين طلب الرجل ماء للمرة الثانية، ودفعه في جوفه ثم تكرع طويلا، وفي بطء وثقة أتى على المائة، وأكل بعدها كوزا آخر من أجل الحاضرين . .

وما أن انتهى حتى ألقى نظرة على وجوه الموجودين التي كلها صمت ودهشة، وانتظر برهة يلتقط أنفاسه. ثم حمل الخروف، وفي هدوء ألقى عليهم السلام ومضى.

وقبل أن يختفي عن الأنظار أسرعت العيون كلها تحدق في بطنه، ثم بدأت الجماعة تستعيد ألسنتها.

وقال الشرقاوي وهو يهز رأسه: ان الرجل من عرب الغرب ولا بد أنه عزم على التين وحضر الجن قبل أن يأكله. قال ذلك وتلفت يمنة ويسرة ثم سمى وهو يبصق في عبه.

وقال صالح: إن في بطنه دودا كان يبتلع التين أولا بأول.

وتنحنح فرج وقال: إن العرب كالجمال لهم معدتان.

وأكد رجل من الذين انتفخت حافظهم أن العربي سينفجر بعد قليل ويموت، وأنهم لا ريب سيعثرون عليه بعد يوم أو يومين طافيا فوق ماء الترعة، أو مكوما تحت الكوبري . .

وكثـرت الأقاويـل، وبعدت التخمينـات والتفسيـرات، وكـادت تنشب معركة . .

أمـا الرجـل فقـد مشى في الـطريق، وبـدايـات المغص تلـوي أحشـاءه وكل مـا يهمه أنـه تغذى، وسـكتت عنـه ولو هنيهـة مسـامير الجوع، وليكن بعد ذلك ما يكون.

٥ ساعات

كنت أجلس على المقعد ذي المسند العالي، وأمامي المكتب المتهالك وقد ملأه الأطباء الذين عملوا قبلي بأسمائهم التي حفروها عليه، والحجرة قديمة قدم القصر العيني، وكل شيء فيها قد رأيته مرات ومرات حتى ارتويت. كل شيء حتى بقايا القطن والشاش والدماء الجافة المتناثرة فوق الأرض، والترموتر المكسور الذي وارته الممرضة لتوها في ركن الغرفة.. كل شيء حتى الأنات الصادرة من الكمساري الراقد هناك وقد انتهيت من إعطائه حقنة لم تستطع بعد أن تخدر المارد الجبار الذي كان يعتصر كليته.

وفجأة.. دق جرس الإسعاف..

دق في قصر مرتفع مبتور..

ولهذا الدق عند كل الناس معنى، معنى يحمل في طياته رهبة تشرخ قلوبهم، ورعشة تنتفض لها أعصابهم، فإنه يعني إنسانا يموت أو سيموت. أما عند الأطباء فإنه يحمل في طياته عملا، ويبعث في تفكيرهم بالخيط وقد لضم في الإبرة، والجلد وقد تعقم، ورائحة

المخدر وقد تصاعدت مختلطة برائحة صبغة اليود، وحشـرجة إنسان يتعذب . .

ودق الجرس مرة ثانية . .

وتوقفت، وتوقف التومرجي عن سرحانـه، واستدار ليلقي ببقيـة سيجارته خلسة، ثم عاد ينـظر إليَّ من جديـد وقد زال الحـرج الكثير الذي شعر به طيلة أنفاسه المختلسة .

وسادت فترة صمت كنا نتسمع خلالها عويل عجلات (الترولي) وهو ينساب قادما إلينا عبر الممر الطويل .

ودلف رجـل الإسعاف إلى حجـرة الاستقبـال، وقال وهـو يكاد يلهث :

ـ حالة ضرب نار يابيه! . واحد ضابط اغتالـوه في الروضة!

ضرب نار! . . ضابط! . . اغتيال! . .

لـم أعـد نفسي حينئذ لصبغة اليود ومـاسك الأبـر والخيط، فقد اختفى من شخصيتي تمـاما عـامـل الحيـاة، وطفحت تلك الكلمـات القلائل فوق ذهني يدفعها بركان يخترنه شعوري عن الاغتيال والظلام وضرب النار .

وقبـل أن أستعيـد نفسي، انسـاب (التـرولي) إلى الحجـرة في نفس اللحظة التي مـزقت فيهـا سكون المستشفى كله صـرخة مـدوية طويلة صادرة مـن الأدوار العليا .

وغادرت المقعد في لهفة وانكببت على الجريح أراه وأرى النار التي أتت عليه.

والحق أنني لم أر ما حدست رؤيته، فقد كان الرجل يرقد في ثقة وقد أسبل عينيه وشبك ذراعيه فوق صدره وزم شفتيه واسترعتني ملامحه.. كانت فيها مصرية.. مصرية من ذلك النوع الذي يوقظ فيك مصريتك ويجعلك تعشقها من جديد. وكان أسمر.. تلك السمرة التي إذا ما تمعنت فيها وجدت في صفائها تاريخ شعاعات الشمس المجيدة التي صنعت الحضارة على جانبي النيل. وكان شاربه الأسود الكث يلون تلك السمرة، وتشف منه رجولة.. رجولة تبعث القشعريرة في الرجال.. وكان جسده صلبا شاهقا، وعنقه ممتلئا غليظا كان يضج بالحياة والفتوة.. ومع هذا يقولون مضروب بالنار.

وقفت أحدق فيه ولا أتحرك، ولم أعد إلى نفسي إلا حين هم بالكلام، إذ ملت عليه ألتقط الكلمات، وإذا بي أقول في صوت متنكر هامس:

ـ ايه؟!.. قتلوك؟!..

ومضى في نفس صوته المملوء المنخفض الرنان يقول:

ـ قتلوني.. في الضلمة.. ضربوني بالنار.. هنا.. في ضهري..

وسألته وأنا ملسوع دهش:

ـ مين . . مين هم؟! . .

فقال وهو مسترسل بنفس صوته الذي كان يجذبني إليه بقوة وعنف:

ـ المجرمين . . ورئيسهم . . العصابة . . كلهم . . أولاد الكلب . .

ثم توقف لحظة، وحدق بعينيه السوداوين الواسعتين وكأنه يخترق سقف الحجرة إلى ما وراءها من سماء:

ـ كده يا فاروق . . تقتلني؟! . .

وتلقف الواقفون كلماته . . وسرت الهمهمة من داخل الحجرة . . إلى الخارج . . إلى الشارع . . إلى البلد كله . . إلى التاريخ .

وأحسست بنفسي أنفعل وكأن نارا قد شبت فيَّ . كنا أيامها تحت حكم فاروق . . وكانت هناك أحكام عرفية . . وكان الظلام والسخط يخيم على مصر ويعشش في قلوب الناس .

وكان لا يحمل إليّ إلا ضحايا العربات وعجلاتها، وصرعى الترام، وعتاة المتشاجرين، وكان ذلك أول جريح أراه مضروبا بالرصاص . .

ولم أعد أتمالك نفسي . .

تناسيت أني طبيب، وتناسيت ما عليَّ من واجب، ولم أعد

أفكر إلا كمصري يختنق بالظلم ثم يرى الظالم صرع أخاه.

وغمغم الرجل المسجى أمامي . .

كان وجهه يصفر ويصفر، وكانت تقاطيعه المفتولة تتراخى تحت وابل من نقط العرق الصغيرةوهي تتجمع فوق جبهته وعلى وجنتيه كقطرات الندى تتجمع على زهرة تذبل. وتلمست جسده فوجدته باردا . . ولم تكن برودة الثلج . . إنما كانت برودة ممر طويل في نهايته الفناء والضياع , .

وقفزت إلى ذهني في قوة الانفجار تلك الكلمة التي طالما استبشعتها:

ـ صدمة! . .

نطقت بها غير شاعر أني أنطق، ومددت يدي أتحسس ذراعه مرة أخرى لأرى نبضه ، وصدرت من بين شفتيه التي كانت قد ازرقت تماما أنة طويلة عميقة تعوي وتتلوى. وجمدت يدي مكانها . .

ـ آخ . . آه . . دراعي . . دراعي مخلوع . .

والتقط بضع أنفاس لاهثة . .

وكنت أعرف الألم الذي لا يطيقه بشر حين تتحرك الذراع المخلوعة، إنه الألم الذي يصدم، ويقتل، ويميت. ومع هذا فقد

كان عليَّ أن أرى الإصابة، وكان عليَّ أن أديره، وأوقفت شعوري، وأوقف الرجال الموجودون أنفاسهم ورنات آهاته وآلامه تخرسنا جميعا.

واستقر بصري على أربع دوائر سوداء وحولها ظلام الجلد المحترق. وكنت أعرف ما يؤدي إليه السواد والظلام.. فقد كان يؤدي إلى ثلاث قطع محمية من الرصاص استقرت داخل الصدر، وقطعة نفذت واخترقت الرئة وسال من منفذها الدم!

وقلت وكأنني أستنجد بشيء غامض ولكنه قادر:

ـ الإسعاف السريع!..

كان في هذه الكلمات، إذا احتاج الأمر أن أقولها، ما يرد لهفتي دائما ولهفة المريض في بعض الأحيان، وهرج التومرجية والممرضات في كليهما.. كان فيها معنى النجدة.. كانت تصور لي ظلام الريف الواسع المفتوح، وإنسانا يستغيث في لهفة راجفة، فإذا بلهفته ترد إليه، ورجفته يعقبها طمأنينة، حين يسمع من بعيد، ومن أغوار الظلام، ذلك الصوت المغيث، تردده فتحات الفضاء:

ـ جايلك يا واد.. جايلك..

* * *

وعلى نفس السرير الذي مات عليه عبد العليم الطالب الصغير الذي أصيب بخبطة هوجاء في رأسه أثناء المظاهرات، والذي مات عليه صديق ابن العربجي الذي مرت فوق صدره عربة أبيه فتهشمت

SS

٧٧٠

ضلوعه، والذي مات عليه شعبان وصالح وعبد اللطيف ومحمد. .
على نفس هذا السرير رقد عبد القادر الجريح وحوله أسطوانات الأكسجين، وأجهزة نقل الدم، وأوعية الماء الساخن، وطلاء الحجرة الأبيض الناصع، وأزيز غلاية الماء، وحفيف البخار المتصاعد، ومجموعة من الأطباء، وممرضة، وصمت ترعشه أنات عبد القادر.

وما كادت آخر قطرة من أول لتر من الدم تأخذ طريقها إلى قلبه حتى اختفت قليلا تلك الصفرة التي علت وجهه، وخفتت حركات عينيه حتى تركزت حدقتاه عليَّ، وظل يحدجني ببصره طويلا كالذي يتحفز لفعل شيء دون أن ينطق بحرف. وعجبتِ لهذا التحديق، ثم زاد عجبي وأخذت دوائر صغيرة من القلق تنداح في صدري. .

وفي اللحظة التي بدأ الخوف يأخذ طريقه فيها إليّ تحركت شفتاه، وتغيرت ملامحه، ثم استقرت تقاطيعه على ابتسامة كانت أجمل ما رأته عيناي ليلتها. .

ولست أدري ما ارتسم على وجهي لحظتها ،فقد أحسست بفرحة غامرة دق لها قلبي.

وطالت ابتساماتنا، وامتدت، وحتى قلت له وكأنني أقولها متأخرا جدا:

- ازيك؟ . . ازيك دلوقت؟ . .

ونطق بهمسة لاهثة:

ـ أحسن . . أحسن كتير . .

وشيئا فشيئا بدأت ابتسامته تتلاشى وراء غيوم. ثم اختفت، وأظلمت ملامحه، وتقاربت تقاطيعه، وانطلقت من سواد عينيه أشعة تبرق. فقلت وأنا قلق:

ـ مالك؟! . . فيه حاجة؟! . .

وتوترت أنفاسه اللاهثة واندفع يقول كالذي يخنقه كابوس:

ـ أيوه . . عليّ . . عليّ . . الندل . . يجرني للضلمة. وأنا صاحبه . . صاحبه . . الخاين . . بس لو أروق له؟ . . وأروق لهم؟ . .

وتعبت تقاطيعه، وخفت البريق، وأصبح سواد عينيه أكثر سوادا، وتلألأت فجأة تلك القطرات الصغيرة الشريرة من العرق على جبهته وعلى وجنتيه.

ولعل الابتسام هو ما كان يحاول فعله فلا تطاوعه قسماته حين قال في صوت خافت غير مهتز:

ـ ميه! . . عاوز أشرب! . . عطشان! . .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة أمدها إليه بقطعة القطن وقد بللتها بالماء لأمسح بها شفتيه ولسانه. وطاوعته القسمات في النهاية فابتسم وهو يقول:

ـ متشكر . . متشكر يا دكتور . . كمان . . كمان . . عطشان . . يا ناس . . عاوز أشرب . .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة لتمنع عنه الماء هذه المرة.

وسمعت نقرا على الباب. وحين فتحته وجدت الممر الطويل يضيق بالناس والهمسات والتوجس. واندفعت العيون نحوي ولمحت في كل العيون تساؤل.. ورجاء.. رجاء في أمل.

ودخل كاتب الاستقبال، صامتا على غير عادته، ولا تستقر نظراته كالذي يبحث عن شيء ونسي ما يبحث عنه. واتجه إلى الركن الذي وضعنا فيه أشياء عبد القادر.. بذلة في ظهرها ثقوب.. وقميص أبيض لا تهتم لبياضه بقدر ما تقشعر للدائرة الحمراء البشعة على صدره الأيمن.. وعلبه فيها ثلاث سجائر.. ومنديلان.. وقطعة حلوى.. وحافظة نقود فيها فوق ما فيها من أوراق صورة قديمة تثنت حوافها لطفل صغير.

وتلكأ الكاتب قليلا بعد أن انتهى من مهمته، ودار ببصر ذاهل في أرجاء المكان، واستقرت عينه بعد تردد على عبد القادر ثم غادر الحجرة تاركا خلفه أصداء همهماته المكتومة.

وأغلقت الباب..

* * *

وكان الوقت قد تأخر، والمصابون الذين يتطلبونني قد انتهوا وأو كادوا، والليل قد عم أرجاء المستشفى، والظلام في الخارج واسع واسع لا حدود له، والنور في الداخل ساطع يلمع له كل شيء، والغلاية تزن، والممرضة تتثاءب، والتومرجي واقف قد ألصق

ساقيه بحافة السرير، والهواء أصبح لزجا ثقيلا . .

وأحسست أول الأمر أن أشياء كثيرة حولي تلهث . .

ثم شعرت بالحجرة كلها تزفر وكأنها رئة محموم . .

والتفت حول قلبي أصابع رفيعة غامضة وشددت قبضتها .

ووجدت نفسي أقف، وأتمشى في الحجرة، ورفعت «كوبس» الغلاية، وأعدت برباط «محلول الملح» وما كان في حاجة إلى رباط . .

ومع هذا بقيت الحجرة كلها تلهث كرئة المحموم . .

وعلى حين بغتة عرفت ما حدث . .

ووقفت أرقب صدر عبد القاردر الصاعد الهابط وأتمعن فيه وهو يجاهد ليستخلص الهواء فتتقبض كل جارحة من جسده، ويصبح وجهه كالقمر المخنوق، ثم يناضل ويتألم وهو يناضل، حتى يدفع القليل الذي استخلص ويستعد للأقل الآتي . .

كان يتنفس وكأنما حجر ضخم يجثم فوق صدره ولا يستطيع منه فكاكا . .

واحتار السبب في رأسي قبل أن يجد الجواب . .

وأملت نفسي قليلا أرى الجانب الأيمن . .

ورأيت الدم . . الدم لا كما اعتدت رؤيته يلون جرحا أو يخضب رأسا وإنما الدم المندفع في نافورة حمراء وقد أغرق

الملاءات وشبعت منه المرتبة ومضى يتساقط عبر حديد السرير الأبيض نقطة وراءها نقطة، وسربا وراءه أسراب. .

لقد بدأ النزيف. .

وبحثنا جميعا عن كل ما استطعناه من قطن وشاش نكتم به الدم المتصاعد الوهاج.

واحمر القطن الأبيض وامتلأ. واعتصرناه ثم وضعناه فعاد يمتلئ ويتسرب منه الدم بإصرار وعمد إلى أرض الحجرة.

وأفلحنا أن نسد الثقب المتربص تحت الثدي الأيمن كالعدو المبين. . وألصقنا عليه المشمع طبقة فوقها طبقة. ولم أثق في المشمع فوضعت يدي فوقه أكتم بها النزيف.

ووقع بصري على يدي، فوجدتها كلها دم جف وآخر لم يجف.

ولم يكن هذا أول دم أراه، كانت رائحة الدم تملأ أنفي دائما منذ أن عملت في الاستقبال، الرائحة التي لها دفئه. . الدفء الخالق القابض، والتي تلمح خلالها زفارة كعفن الموت. . الرائحة التي تذكرك بالمذبوحين والمبقورين ومن في صدورهم سل. .

ولكن في تلك الليلة، كنت كلما رأيت دم الجريح المغتال يجف فوق يدي، وينكمش حين يجف، كلما أوغلت في تأملي للجريح الذي لا بد كان رجلا ككل الرجال. . نمى من طمي وادينا. . ومضغ قمحنا. . وارتدى قطننا. . وصنعت أذرتنا خلاياه. .

وكلما أوغلت في تأملي!، كلما همت أستعيد ما فات، وأرى الأجداد والآباء والشهداء الذين لهم أسماء فوق الرخام، والشهداء الذين بلا أسماء ولا رخام، وأرى الناس ونفسي، وكل من له عرق، وكل من له خال، وكل أولئك القانعين بالألم.

أهيم ثم أعود إلى يدي التي فوق صدر الجريح.. إلى الأصابع التي تحاول عبثا أن تمنع موتا جديدا.. وأي موت؟..

عدت مرة لأجد اللاصق الذي وضعته قد انتزعه الدم الساخن المتصاعد، والنافورة قد بدأت..

وضغطت يدي، وأجلت بصري أراقب بقايا الزجاجة الخامسة من الدم وهي تسيل من الجهاز إلى شرايين الجريح، وتدفعها الشرايين إلى الثقب الذي ما كانت يدي تستطيع أن تفلح في سده، وينتهي الدم إلى خيط النقط الغليظ وهي تتساقط على أرض الحجرة الصلبة.

وفرغ كل ما في المستشفى من دماء صالحة.

ولم يفرغ الدم المنبثق.

وكنت وزميل جاء يساعدني تتقابل نظراتنا ثم تتباعد لتغيب عقولنا..

وكان لا بد من دم آخر..

وانتهت دورة الزميل على مستشفيات القاهرة كلها وقد عاد

بلتر واحد. . آخر لتر من الدم في البلد. . وآخر ما نتعلق به، وقد يئسنا، من الأمل.

وكنا قد يئسنا. .

فصدره الصاعد الهابط كان قد بدأ يخرخش، والفقاقيع التي تكونت في كرات حول فمه، وسمرته أخذت مكانها رمادية لا تمت إلى الأحياء.

وكثيرا ما رأيت أناسا. . ورأيت جرحى. . ورأيت جرحى يموتون. . ولكن كان صعبا على أن أصدق أن عبد القادر سيموت. وكان قد أقبل في أول الليل فما أحسست أن في صدره رصاصا. وقضيت بجواره ساعات. . خمس ساعات. أسمع حديثه اللاهث. . وأرى فتوته تنكمش وتنكمش، والعملاق الذي كان يضمر ويضمر، وجسده الذي كان قد ابتلع الجروح فما ظهر لها أثر، وأصبح كل ما فيه الجروح. . وكنت أكثر الوقت معه وحيدا. . وكان هو خائفا من الموت. . وكنت خائفا عليه. . وكان كلانا عنده أمل. وكنت أستمد أملي من الزجاجات والمورفين وحمام الكهرباء، وكان يستخلص أمله من أملي، ويناضل وهو يستخلصه كما يقاتل وهو يستمد الهواء.

وكان يقول لي في أول الليل: يا دكتور، وكنت أقول له يا كابتن، ثم ناداني باسمي وناديته باسمه. . وكان الوقت يمضي. . في بطء ثقيل. . وكانت الأحداث كثيرة. . تكاد تستغرق عمرا بأكمله. . وكنت أحس طوال العمر الثقيل أنه مضروب في ظهره، وأنه مغتال،

وأنه مظلوم، لأننا كلنا مظلومون . .

وما كنت وحدي الذي حدث له هذا . .

كنت والممرضة والتومرجي قد ألف بيننا ذلك العمر، وهدتنا الخمس ساعات، وصاحبنا عبد القادر في رحلته فعزت علينا الصحبة، وأصبحنا كالأسرة الواحدة ذات الجرح الواحد.

وكان اليأس هو أمض ما نستطيع ابتلاعه . .

وكان اللتر الأخير الذي جاء به الزميل أهم حدث في ليلتنا.

ورحنا نعالج وضعه وإحكامه بحرص، ونكل في البحث عن وريد نضع فيه إبرلابرة، وقد اختفت كل الأوردة، فلا تومرجي أو حكيم، إنما مجموعة من البشر تكافح من أجل إنسان. . إنسان قد أصبح عزيزا عليها. .

وسرى الدم الجديد. .

وتقاربنا حول الفراش نرقب النتيجة، ونخفي وجلنا ونحن نرقب رجلنا وهو يئن بلا فم ويتلوى ويرفع ساقه ويدفعها، وتنقبض أيديه وتنبسط بقوة، وجسده يصارع النزيف الداخلي.

وهدأ الجسد بعد هنيهة، واستمر الأنين الخافت المتواصل الأنين الذي يثير فيك كامن أشجانك فتذكر كل ما مر بحياتك من أحزان، وتبكي على كل من مات.

وحدسنا أن الأزمة قد مرت، والدم الأخير قد أفلح .

ولكن كان الهدوء الذي ساد جسده لا يطمئن. وكان الخرخشة التي في صدره تزداد حتى أصبحت كأصوات المنشار وهو يغور في الخشب.

وكانت الساعة تبتعد عن الثالثة..

وفجأة.. توقفت أنفاسه.. واشرأبت أعناقنا.. ولكنه عاد يفتح شفتيه ليبصق ملء فمه.. دما أحمر.. نفس الدم الذي كان منذ هنيهة في الزجاجة.

واحمر القطن من جديد وهو ينضح الدم.

وتباعدت أجفانه التي كانت مسدلة من أمد بعيد، وسقط الضوء على عينيه وهما تحدقان في لا شيء، وتحدقان في ضعف وكأنهما لا تريان شيئا.. تباعدت أجفانه، وانساب من حلقه صوت لا يكاد يسمع وهمس:

ـ ميه.. عطشان..

وبللت فمه بالماء.. بل أقول الحق جعلته يرتشف ما شاء من كوب الماء المثلج الذي أحضرته له.

وفتح فمه بعدها مرة، ومرة، ومرات ليبصق الدم.

وأصبح الجرح الذي في جانبه أوسع من فمه، وما يجيء منه أغزر..

ثم راح في غيبوبة..

ورحنا في صمت. .

وتلفت حولي لأجد الحجرة قد وقف ما فيها من هواء، ومصابيح النور حولها دوائر لها ألوان. . والجدران تردد حشرجة أنفاس تتباعد وتطول. . والوقت أبطأ من بطئه حتى لكأن بين الثانية والثانية عام. . وزميلي يكاد يقف على أطراف أصابعه وقد أمسك بالسرير وسمر عينيه على زجاجة الدم. . والممرضة راحت عيناها تعدو بين الفم الذي أصبح كالجرح، والجرح الذي أصبح كالفم، والتومرجي قد أمسك بمفتاح أسطوانة الأكسجين واستمات عليه.

كنا جميعا نتحفز ونستعد. كنا نحس بشيء غامض مخيف يحوم حولنا. وكانت قلوبنا وسواعدنا وعقولنا متشابكة متلاحمة تحاصر رجلنا وتمنع عنه الحائم المخيف.

وتباعدت الثواني، وضاقت الحجرة، حتى ما عدنا نستطيع التنفس. .

واندفعنا نحوه كما نقذف بأنفسنا في خضم البحر لانتشال غريق. . وتصببنا مياها ونحن ندفع الهواء إلى رئتيه، ونخترق صدره بإبرة طويلة حتى تصل إلى قلبه فيحركه العقار، وننفخ في الزجاجة ليذهب الدم جميعه مرة واحدة إلى عروقه، ونفتح أسطوانة الأكسيجين على آخرها ليعلو صدره. .

وحاربنا عدواً قوياً لا نراه. .

كنا نكز على أسناننا ونبذل طاقاتنا كلها ونحس أننا نستطيع دك

الجبل، وهز السماء وإرجاف الأرض. .

ولكن الحقيقة كانت تلاحقنا. .

وخفنا أن نصدق، ورحنا نراوغها ونسابق بعضنا بعضا في المراوغة والهروب. . ونسرع في اعتصار أنفسنا، وضم قوانا ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة. .

وجاءمنا من الركن نحيب الممرضة المكتوم.

واقشعرت أجسادنا من النحيب وانتفضنا نبذل ما في وسعنا من جرأة اليائس ومقدرته.

وعلا نحيبها فأصبح كدوي الطبول.

ودفع التومرجي أسطوانة الأكسجين جانبا، وارتمى فوق عبد القادر وهو ينهنه ويبكي، ويقتلع النفوس ببكائه الرجالي الخشن ويقول:

ـ آه يا حبيبي يا خويا. .

وأفقت على قول زميلي والدموع تغص حلقه:

ـ البقية في حياتك. .

وتسربت إلى نفسي من خلال كلماته تلك اللحظة التي نعرفها جميعا، والتي نحس فيها أننا أوهن من الضعف، وأتفه من العجز، وأننا مضيعون. . تلك اللحظة التي لا نملك معها إلا البكاء فيحملنا البكاء إلى بكاء.

٧٨١

وجال بخاطري أن أعانق زميلي وأضم ما في صدري إلى ما في صدره وأخفي ما أحس به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، أخفيه فيما يحس به من خجل. .

ولم أفعل. بقينا بلا زمن، راجين، نتأمل الرجل المسجى. وتحز الخسارة في قلوبنا، وأعيننا ثابتة في مكانها لا تغادر وجهه الوديع الذي كان يلمع بالعرق. . آخر عرق. . وملامحه التي استراحت في هدوء دائم.

وحين واريناه تحت الغطاء كان الشك في موته لا زال يملأ منا النفوس. .

الأمنيـــة

كان (البرعي) يتساءل في غبطة وحيرة عن الوجه المليح الـذي طالعه فـي ذلـك الصباح، فمـا كان يعتقـد أبدا أن اللحـظة التي داخ وهو ينتظرها قد تأتي هكذا فجأة وبمثل السهولة التي جاءت بها.

ومع أن «أوضة» التليفون كانت خالية تماما، ودوار العمدة ليس به إنس، والخفير ذهب يفطر وأوصاه بـالحجرة خيـرا، مع هـذا كله، خاف أن يراه أحد، فأطـل برأسـه من الباب، ونـظر هنا وهنـاك، فلم يجـد إلا قـوافـل الأوز والبط وهي تـروح وتنقنق وتجيء في الشـــارع الضيق، وديكين نـافرين يتعـاركان، وكلب ابن عمـه الأجـرب راقــد يتصيد الذباب على مهل مطمئن.

ووارب البـرعي الباب، ولف حـول المائـدة الكبيـرة الـوحيـدة بالحجرة وقد تشقق سطحها وامتلأ بدوائر الحبـر السوداء. ولم يتـردد وهو يجلس على الكرسي المتهالك الذي سقط معظم خيزران قاعـه. وضايقته الجلسة حتى اضطرته أن يعقص ظهره إلى الوراء كثيرا، وأن يمد رجليه الحافيتين تحت المائدة.

وذكرته جلستـه التي لم تخل من عـظمة بـالشيخ عبـد المعطي

عـامل (التـلافون) وهـو قاعـد على الكرسي، وقـد وضع رجـلا فوق الأخرى، وخلع العمامة عن صلعته التي لها نعومـة الخيار، وأسنـدها إلى دفتـر الأحـوال القـديم الـذي صنـع لـه جلدا من ورق اللحمـة الأصفر..

ولم يسترسل البرعي في سرحـانـه، فـالأمنيـة كـانت تلهبـه، وصندوق «التلافون» المثبت في الحائط أمامه كـان يجذبـه بمغناطيس لا يستطيع مقاومته. وهز البرعي رأسه في غبطة فلا شيء الآن يحـول بينه وبين رغبته، ولا أحد موجود في الدنيا كلها إلا هـو و«التلافون».

وتمطى في دلال وهو يقف، واقترب من الصندوق، وتملى فيه بـرهة، ودقق في سلكـه الفيراني الـطويل وهـو ينتهي في الزجـاجتين المملوءتين بشيء غريب.

ومد البرعي يده في قليل من الوجل ونقر على الصندوق. وكاد يضحك وهو يتوقع أن يرد واحد من داخله ويقول: مين. وابتسم وهو يرجع إلى أيام بلاهته وصغره حين كان يسميه «اللفلفون»، ويعتقد أن في داخله بني آدم صغير أوضعته الحكومة ليكلم الناس.

ولم يضيـع وقتا أكثـر من هذا في السخـرية بنفسـه وإنما مضى يلمس على الصندوق الناعم، ويتحسس البوق الذي يبرز من مقدمتـه كما تبرز شفاتير حسن العبد، وتصل أصابعه إلى الأجراس الموضوعة كأجراس العجلات، فينقر عليها بأظـافره، وتنحـدر يده إلى السمـاعة المعلقـة بجانب الصنـدوق، فيلف قبضته حـولهـا، ويمـر بيـده فـوق

الحبل الذي يتدلى منها، ويمل هذا، فيرتد إلى الناحية الأخرى، ويلعب بيد التلافون الحديدية السوداء، ويكاد يديرها. .

وقبل أن يفعل شيئا آخر، اتجه إلى الباب، واطمأن من جديد إلى خلو الطريق، وعاد إلى التلافون، وأمسك السماعة بقوة، ثم رفعها قليلا قليلا في حرص شديد. واستغرب حين وجدها ثقيلة كرطل الحديد، وكلما ثقلت يده بها، دق قلبه، وسال العرق من يده، ونسي الابتسامة التي لا يدري متى علقها فوق وجهه.

وأصبحت السماعة أخيرا في حوزة قبضته بعيدة عن الصندوق فقلبها على ظهرها وبطنها أمام عينيه، وأعجبه الثقب الذي في أسفلها، ووضعها تحت طاقتي أنفه وشمها، فلمح فيها رائحة عرق الشيخ عبد المعطي التي يعرفها جيدا، وتعرفها معه كل بلدهم ميت غنيم. .

ثم. . ثم وضع السماعة فوق أذنه حتى التحمت بها، وحملق في الحائط الذي تساقط طلاؤه وهو يسمع هديرا عجيبا كدوي وابور الحرث البعيد. وبعد أن زالت صدمته الأولى تسربت إلى أذنه من وسط الهدير أصوات كنقيق الضفادع، فكز على أسنانه، ونقل السماعة بسرعة إلى أذنه الثانية، وكتم أنفاسه حتى لا يفوته شيء.

وانتشى. .

فقد استطاع بعد جهد إن يميز صوتا يقول: أيوه يا سيدي، وأصوات كثيرة أخرى ترد عليه، ثم تبعد كلها، وتختلط، ولا يربطها

في رأسه إلا دوي وابور الحرث الذي بدأ يدير رأسه، ولا ينعشه إلا صوت رفيع ممدود يقول بين الحين والحين: ألووه . . يا أخينا ألوووه.

وتبين بعد عناء كبير، وبعد أن تلاحقت أنفاسه وابتلع ريقه مرات أن نقيقا يقول من بعيد جدا: يا مركز. فيرد عليه آخر له بحة كحشرجة أم سليمان.

وما اهتم البرعي بمسألة في حياته قدر اهتمامه بمعرفة كل ما يقولون فأمسك السماعة بكلتا يديه وضمها بشدة إلى أذنه.

وكاد يقهقه وكأن الأصوات تزغزغه، وأحس أنه سعيد، وأنه يستطيع عمل أي شيء، وأنه هو الآخر ممكن أن يمط صوته، ويطيل عنقه، ويقول:

ـ يا مركز. .

وقالها فعلا في سره، ثم همس بها بينه وبين نفسه، وكأنها الفاتحة يقرؤها.

وحين اطمئن إلى أن حادثا لم يحدث بعد همسه، اجتاحته نوبة عاتية من الجرأة السعيدة، وزعق وقال:

ـ طب هه . . يا مركز. . يا واد يا مركز. .

وكما تقرع طبلة السحور، وجد أذنه يخرقها صوت أجوف عال تبين بعد وقت أنه يقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وشعر أنه وقع، وأصبح قلبه في أطراف أقدامه، وسقطت طاقيته فلم يعبأ بها.

ومأمأ وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة

ومأمأ وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة التي تطبل كل لحظة وتقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وأصبح لا شيء في عقله، ولا شيء على لسانه إلا أن يردد مرة أخرى:

ـ يا مركز . .

فيجيئه الجواب غاضبا:

ـ أيوه يا جدع . .

ـ يا مركز . .

ـ أيوه يا محروقة يا ميت غنيم . .

ـ يلعن . . يلعن أبوك يا مركز . .

قالها، ورمى السماعة بقوة وهو يحس بكل ارتياح . .

ثم اندفع إلى الخارج كالريح .

أم الدنيـا

كان مطعم الدرجة الثالثة في آخر عشاء يسوده جو غريب، ومع أن الضوء كان قويا باهرا، ودقائقه تتسـاقط في عدد لا نهـاية لـه على كـل شيء فتبدو وجـوه الجرسـونات الحـليفـة النـاعمـة، والمفـارش البيضاء والملاعق، والأكواب الزجاجية النظيفة، تبدو كلها لامعة أنيقة وكأنها طليت بماء النور. .

مـع هذا إلا أن المسـافرين كـان حديثهم همسـا خافتـا، يـدور معظمه حول الوصول إلى الإسكندريـة في الصباح البـاكر، ثم نهـاية الرحلة بعد الظهر في بيروت، وكان بعض الحديث يدور حـول البحر ودواره وصرعاه في اليومين السابقين الراقدين لا يستطيعون التحرك أو حتى العشاء. .

وأثناء الهمسات والابتسـامات كـان كثير من المسافرين يجـولون بأبصارهم في أرجائه، ويودعون كـل شيء بأعينهم ويـودعون بعضهم بعضـا وقـد أحسـوا بلذعـة إذ سيتـركـون وجـوهـا قـد اعتـادوا عليهـا وألفوها . . بل بدا الجرسونات أكثر ورقة، والناس ينـادون بعضا منهم

بأسمائهم وقد عرفوها، ويتبادلون معهم فكاهات سريعة وهم يـوزعون الطعام . .

وكان المسافرون أنفسهم خليطا متنافرا . . بعضهم سائحون . . وبعضهم أجانب عائدون . . ولبنانيون . . وأروام .

ثم كـان هناك بعض مصـريين . . سبعـة من المصـريين الـذين جمعتهم الرحلة ولا شيء سواها . .

وصحيح أن الرسام العائد من إيطاليا والذي كان جالساً في ركنه المعهود يمضغ الطعام على مهل تائه لم يكن يبدو عليه أنه مصـري ، إلا أنه كان كذلك، بـل من حي الحسينية بـالتحديـد. وكان في آخـر عشاء أيضا لا زال منطويا على نفسـه، ولا زال يحدق في الفتـاة التي خلبت لبه وجعلته يمضي الأيام الأربعة التي استغرقتها الرحلة يلتهمها بنظراته، ويراها، وكمـا رآها أول مـرة، أجمل فتـاة في الوجـود، فلـم تقع عينه أبدا على شبيه ولو من بعيد لذلك الجمال. . جمال الجهـاز الدقيق، الرائع الدقة، الجمال الـذي ليس فيه وجـه كالقمـر، وعينان مثـل عيون المهـا، وشفتان كـحبـات الكريـز، وصدر بـارز، وسيقان ملفوفة، وإنمـا ذلك الجمـال الذي لا تنبـع الروعـة من أجزائـه مهما بلغت من سحر، إنما هو كاللحن المـوسيقي الفريـد، بحس الإنسان بما فيه من عبقرية إذا اسمع إليه كله، واستوعبه كله وعاش فيه .

هكذا رآها أول مرة . .

وهكـذا أحس بهـا، ثمينـة في دقـائقـهـا ، حتى ليخـاف على

ملامحها من نظراته، رائعة في كلها، حتى لتروي ظمأ البشر أجمعين إلى الجمال.

وثيابها كانت بسيطة.. بل كان الجمال في بساطتها، بنطلون واسع وبلوزة، وحول عنقها إيشارب بنفسجي عقدته في إهمال بسيط مثير، كان يعبث به الهواء فيتطاير، ويبهت لونه، ويتلاشى وكأنه يستحيل إلى عطر وبنفسج..

ولم يكن أول ما وضع قدمه في الباخرة يحلم برؤيتها، بل ما كان يفكر حتى في دخول المطعم ولا العشاء، كان يومها مثل بقية المسافرين يحس بالانتقال المفاجئ من المدن والجبال والشاطئ إلى البحر والطبيعة الجديدة التي احتوته ولهذا كان يشعر بقلق غامض يمور في صدره ويدفعه للبحث عن شيء لا يدري كنهه، فراح يجوب الباخرة، ويقف ولا يدري لماذا يقف، ثم يسير ولا يدري أين يسير، ويتفرج على كل شيء. حتى على الفرشة التي ينظف بها البحار ظهر الباخرة، ويفكر في كل شيء..حتى في شيال محطة نابولي الذي لا ريب قد استغفله، ويتلكأ ليسمع حديث البحارة الايطاليين، وتعجبه نغمة دقات العشاء وهي تخفت وتعلو وتبتعد، ويذهب هكذا وبلا إرادة إلى المطعم وهناك يراها، وحينئذ يدرك كنه ما ظل يبحث عنه، ويحس بالقلق الغامض يهدأ ويصبح كالراحة الأبدية في صدره.

ولم ير شيئا سواها طيلة الأيام الأربعة، وقنع بالتحديق فيها من بعيد لبعيد وهو يحس بها إحدى معجزات الكون، وينتشي برؤيتها، كما ينتشي برؤية السحاب المضيء، وأنوار القرى المبعثرة

على جانبي مضيق مسينا وهي تبرق في الليل كنجوم الأرض، والبحر العميق الذي لا يهجع.

لم يحاول حتى أن يعرف اسمها، ولا من أين جاءت أو مع من تقيم. ورآها ترقص (الدبكة) مع اللبنانيين وسمعها تتحدث بالفرنسية مرة والانجليزية مرة أخرى وأحب انجليزيتها تماما مثلما أحب الفرنسية وهي تنساب في رقة من بين شفتيها.

وظل يعبدها هكذا بنظراته إلى آخر عشاء..

وبينما الرسام في هذا كان هناك مدرس مصري آخر عائد من البعثة مشغولا كالعادة بمزاولة هوايته في التعرف إلى الناس ومحادثتهم، وفي ذلك الوقت كان يتحدث باهتمام مع جار جديد له تعرف عليه قبل العشاء بدقائق، وكان سعيدا جدا بالفرصة التي انتظرها طويلا، فالرجل قد أتعبه وحيره أمره وهو يراه لا يغير ملابس الكشافة التي ركب بها الباخرة، ولا يكل عن التجول فوق ظهر المركب برأسه القليل الشعر، ووجهه الأحمر الشديد الحمرة، والشعر الأصفر القليل الذي حول ركبتيه المكشوفتين، والكتاب الأزرق الذي لا يتركه من يده..

حيره الرجل طويلا حتى أتيحت له الفرصة في آخر عشاء فعرف أنه سائح ألماني في طريقه إلى مصر، وأن الكتاب الذي في يده هو عن آثارها..

وكان بيترو هو أسهل من تعرف إليه من الناس. إذ بعد أن

وضع حقائبه في الكابينه، وصعد إلى البوفيه، وتلفت فلم يجد إلا وجوها متعبة.. عجوزا ممسكة بمجلة، وفوق عينيها نظارة، ورجلان سمينان مالت رأساهما وراحا يتهامسان وراهبة شديدة البياض ساهمة تحدق.

وعانس كان يبدو أنها انجليزية جالسة ترمق الموجودين باشمئناط، ولا شيء غير هؤلاء سوى المقاعد التي تنزلق وتتخبط كلما تمايلت الباخرة فوق صدر الموج الصاعد الهابط.

ولم يجد حينئذ ما يغريه، فاتجه إلى البوفيه وابتسم لبيترو الجرسون الواقف يعد القهوة وكأنهما صديقان قديمان، وقال له هاشاً باشاً بالايطالية:

ـ بونا سيرا..

فقال بيترو:

ـ بونا سيرا سنيور..

وهكذا انتهى كل ما يعرفه من الايطالية، وبدأ يستعين بالانجليزية التي ذهب إلى إنجلترا يتخصص في تدريسها وعاد يعد الماجستيراه. ولاحظ أن بيترو يجاهد بأدبه الكسول ليلم أطراف إنجليزيته ويجيب على أسئلته الكثيرة.

ومع هذا طال حديثه مع بيترو.

وعجب المدرس لذلك الإنسان الذي له بيت وزوجة وأولاد في

فينيسيا والذي لا صديق له سوى البحر وقد عمل فيه ثلاثين عاما، وأصبح لا يطيق ساعة واحدة يقضيها في البر حتى ولو قضاها في بيته وبين أولاده.

وعلى مائدة العشاء لم يكلفه الأمر أكثر من ابتسامات أربع أصبح بعدها يعرف كل شيء عن الأربعة الجالسين بجانبه إلى مائدة العشاء.

وكان الأمس فقط هو أكثر أيامه ازدحاما، فقد عرف فيه أكثر من ثلاثين مواطنا لبنانيا عائدين من المهجر.

وكان أغرب من عرفه حقا هو اليوناني العجيب الذي ليس في رأسه شعرة واحدة سوداء، والذي لم يصدقه أبدا وهو يروي كيف ذهب إلى العراق شابا قبل الحرب الأولى ليعمل في حقول البترول هناك، وكيف ظل يعمل ويكدح حتى انتهت الحرب الثانية. ولما أحس بالكبر وأراد أن يستريح باع كل ما يمتلكه، وعاد إلى اليونان هو وزوجته.

والذي أضحكه بحق أن اليوناني العجوز قال إنه لم يحتمل البقاء في اليونان، ولم يرتح إلى معاشرة مواطنيه وقد مات أصدقاؤه وتفرق معارفه، وانه أحس فعلا بالغربة في بلده، وامرأته ضاقت بلداتها اليونانيات، وكانت تبكي دائما حين يتهمنها بأن الصحراء قد خشنت طباعها وغيرتها. ولهذا قرر بعد شهور قليلة قضاها في اليونان أن يعود إلى العراق وهو وزوجته، فقد اشتاق إلى الماء هناك، وإلى

البيت الذي على نهر الفرات والذي طالما حلم به.

ويقهقه المدرس كلما تذكر العجوز وهـو يتنهد ويقـول بلكنتـه العراقية الأجنبية:

ـ وين أنت شيخ جابـر؟.. وين أنت جافـري؟.. وين كلكم؟ كلكم؟..

وبينما كان المدرس في آخر عشاء منهمكاً في حديثه مع الجار الجديد الذي تعرف بـه.. ومنهمكـاً في منـاقشة مـا يحتويـه الكتاب الأزرق عن مصر، ويتحمس وهو يعطي للسائح نمرة تليفونه ويعـرض عليه مرافقته طوال فترة إقامته.

بينما هو في هذا، كان أربعة مصريين آخـرين يحتلون المائـدة التي بجواره، وكانت العين لا تفلت مصريتهم وحول المائدة طربوش وجلبـاب، ووجوه سمـراء وأفواه فيهـا طعام، وضحكـات، وقبضـات تدق، وظهور مـائلة إلى الوراء كثيـرا، ومائلة معهـا المقاعـد، ونكت تترى، و(قافية) قد انهالت على الجرسون الطلياني، وهيصة، وكلام.

وكان الأربعة خدم أمير مصري قضوا معـه الشتاء في نيس، ثم أرسلهم يسبقونه إلى مصر.

وكـان الأوسطى شـرف الطبـاخ مرحـا على غير عـادتـه، وكـان يـرتدي نفس جلبـابه الافـرنجي الذي لـه جيب ساعـة على الصـدر، والذي فيه ساعة لها (كتينة) غليـظة. وعلى رأسه كـانت طاقيتـه البفتة وذيلها محبوك على جبهته. وكان جـالسا على راحتـه بجسده الضخم

الـذي في ضخـامتـه طيبـة وعنقــه الغليظ السمين ووجهـه المنتفــخ الأشداق الوديع القسمات، وشاربه الكث الـذي تناثـرت فيه شعـرات بيضاء قليلة. وكان الأوسطى يرف بعينـه إلى المرأة الـرومية البـدينة، ويقشعر جسده فيخفي القشعريرة بضحكة عالية تتردد بين أشداقه.

ومنذ حادثـة البوفيـه والمرأة تكهـربه كلمـا رآها. فهـو قد ركب الباخرة بعد أن قضى في بلاد الناس شهورا طويلة عانى في أثنائها مـا عـانى من الحنين إلى امـرأتـه فــردوس وسـروالهـا البمبي المشغـول بالدانتلا والذي يصل إلى الركبـة وكان أحيـانا يضعف، ولكنـه كان لا يطيق أبدا أن يرتكب الفحشاء، ولو بالنظر، وحين احتوته الباخرة كان لا يزال عند تصميمـه الأكيد. ولكن تلك المـرأة ذات الأرداف! أعوذ بـالله. . هل سلطها الشيطان عليه؟!.. لقد كان جالسـا في أمان الله في البوفيه يومها يلعب (الولد يقش) مع عوض أفنـدي، ومن حيث لا يدري ولا يعلم وجدها واقفة بجواره تبتسم، وحدث أن مالت الباخرة فجعلت المرأة تكاد تلتصق بـه، أو على وجه التحـديد جعلت ردفهـا الأيمن يلطشه في جانبه، ومن ساعتهـا وكلما رآهـا وقف شعر رأســه، بل وقف شعر جسده كله.

وكان عوض أفندي كالعادة جالسا بجواره وعينه لا تفارق الطبق الذي أمامـه، وطربـوشه محكم الـوضع على رأسـه، ووجهه الأسمـر هــادئ لا اضـطـراب فيــه، ولا يلمـع منــه في الضـوء إلا مكــان العصفورتين اللتين كانتا مرسومتين على جانبي وجنته ثم أزالهما بمـاء النـار وبقي مكانهمـا أبيض يلمع. وكـان عوض أفنـدي هو المختص

بقهوة الأمير وتقديمها وهو الذي عليه انتقاء البن وتذوقه وضبط السكر.

وكان ابن حلال لا يعرف لفاً ولا دورانا وقد قضى أيام الرحلة كلها يقرأ في المصحف الذي يحمله معه دائما حتى كاد يختم الربعة. وكان هناك شيء خطير يشغله ويربكه ويسد نفسه، فهو كان يصلي على ملاءة السرير. وظل يصلي عليها طوال الرحلة وما أدراه أن الملاءة طاهرة والناس الذين في الباخرة لا يعرفون طهارة أو يحزنون؟ . .

والأدهى من هذا أنه لا يجد أحدا على الباخرة يفتيه، وكل من عليها فسقة لا يصلون.

أما الأوسطى حامد الجالس ووجهه في الحائط المقابل فقد كان سائق الأمير الخاص. . وكان لهذا أتعسهم جميعا. وكانت العربة الجديدة سبب تعاسته، فقد اشتراها الأمير من أوروبا، وكان على حامد أن يتولى شحنها على نفس الباخرة، وقد فعل هذا على ما يرام ولكنها أصيبت بخدش واضح . .

ولم يفكر حامد أثناء المجيء كله إلا في ذلك الخدش وكيف يداويه، وهل يفلح في إخفائه عن عين الأمير الذي شغف بالعربة وجن بها، خاصة وهو الآن لا ريب قد وصل مصر من زمن وينتظرها على أحر من الجمر. . ولم يفكر إلا في هذا، ولم ير إلا وجه الأمير الغاضب وعقله الصغير، ولسانه وهو يرطن بالتركية ويرفده.

وعلى عكسه، كانت الدنيا لا تسع سعد الله السفرجي وقد اشترى بكل ماهيته بدلة، أول بدلة في حياته، ولم يلبسها من ساعة أن اشتراها وإنما تركها في صندوقها الكرتون الكبير وكل ليلة كان يفتح الصندوق ويخرج السترة ويتلمسها وأحيانا يرتديها ويخطر بها أمام المرآة ثم يخلعها ويطويها ويعيدها إلى مكانها في الصندوق، وقضى الرحلة كلها وهو سعيد بملمسها الدافئ وبجيبها الداخلي الصغير الذي توضع فيه الفكة، ولا يستطيع أن يتخيل بالمرة أنه سيرتديها يوما ويصبح أفنديا.

أما السابع فقد كان ينزوي في آخر عشاء في ركنه المعهود لا يعجبته ضجيج مواطنيه وتشمئز له نفسه، وتنتابه موجات الضيق وهو يشاهد مواطنه الآخر المدرس الذي لا يمل الاحتكاك بالناس ولا التظرف إليهم. وكان السابع عائداً من البعثة كالمدرس والرسام بعد أن أخذ الدكتوراة في قانون القوانين. وكان مفروضاً أن يعود في الدرجة الثانية ولكنه آثر أن يحصل على الفرق ويعود في الثالثة.. وكانت مشاغله أكثر من أن تسعها الثانية والثالثة معا.. أربعة وثلاثون طردا معه، فيها هدايا وتحف وأشياء، عانى في نقلها العذاب الأليم، ومن قبل أن تبدأ الرحلة وهو مهموم يدبر كل تصرفاته يوم الوصول، وكم يأخذون في الجمرك، أو هل يعدونه يا ترى تاجرا .

وكان على العشاء الأخير يحدج مواطنيه ويَحسدهم على قلوبهم الخالية وضحكاتهم التي لا هم فيها.

* * *

وانتهى العشاء . .

وتسلل المسافرون إلى الشرفة التي أمام المطعم . .

واستند بعضهم إلى الحاجز، ومشى البعض متلكئا، وجلس آخرون . .

وكانت الدنيا رائعة . .

ظلام ليس أجمل من النجوم تملؤه، ونجوم ليس أجمل من الظلام يحيطها، وهدير البحر يتدفق إلى الآذان وكأنه آت من حناجر ملايين معذبة تعيش في أماكن مجهولة وراء الليل، واهتزازات موتور الباخرة التي يرتج لها كل شيء لا تنقطع، والطلاء الأبيض الذي يلون حتى الحبال، والأضواء الكثيرة التي تحيل الباخرة إلى نجفة كبيرة عائمة في الظلام.

وتوقف الرسام لا يتحرك وقد بلغت به النشوة حد السكون والاستسلام . . وأحس بخياله يمضي على موقع دقات المحرك واهتزازاته، ويجتاز ذلك الحاجز الرقيق الذي يفصل بين حياته وأحلامه فيعيش وكأنه يحلم، ويحلم وكأن أحلامه حياة . .

وصحا على قبلة عبرت بأحلامه، فدق الحاجز بيده كما لو كان يثور، وأخذ طريقه إلى الفراش وهو ساخط على نفسه وضعفه واكتفائه بمشاهدة الفتاة وكأنها طبيعة صامتة، لا حياة فيها ولا حياة فيه . . ولما احتواه الفراش لم ينم، ولكنه راح يتقلب ويثور ويؤكد لنفسه ما استقر عليه عزمه . . وكان قد قرر أن يبقى في الباخرة حتى

تنجلي الزحمة ثم يذهب إلى الفتاة ويحدثها ويطلب منها بلباقة في آخر الحديث أن تقضي معه بضع ساعات في الاسكندرية حتى يحين ميعاد إقلاع الباخرة.

ونام أخيرا وهو يرقب المحادثة التي سوف تدور وينتقي كلماتها بل ويجرب نفسه حين ينطقها. .

والتهم المدرس عشاءه كالموهوم ومضى حالا إلى فراشه، فقد عرف من أحد جيرانه أن وكيل وزارة المعارف مسافر في الدرجة الأولى على نفس الباخرة، وكان عليه أن يتعرف به، إذ من يدري؟ ربما؟! ربما أقنعه بكفاءته؟! وجائز جدا أن يقتنع، وجائز أن يعينه ناظر مدرسة أو على الأقل مدرسا أول في القاهرة! وفكر ثانية واحدة في الغد، وكيف سيجد المنيرة؟ لا بد أن أحداثا كثيرة قد وقعت. لا بد أن البواب العجوز قد مات، وصبي موقف التاكسي قد أصبح سائقا. وما لبث أن عاد الوكيل. وظل يفكر ويرتب الأمر بكل دقة حتى أصبحت كل خطوة كاملة العدة في عقله، وأحس بعقله المتعب يرتاح وتثاءب. .

وفي نفس الوقت كان الأوسطى شرف راقداً في الفراش، ونار موقدة تحت ظهره ويده تعبث بشاربه وتزن باتسامة المرأة الرومية البدينة التي لوحته بها على العشاء ويديرها على كل وجه، وقال وهو ينفث زفيره بحرقة:

ـ آه لو الواحد يقنيها. .

وقطع عوض أفندي صلاته وسلم وسأله عما يقول. .

ولم يجبه الأوسطى شرف فلحظتها كان بالتحديد في ليلة الدخلة، والباب موصد عليه وعلى ذات الأرداف. . ثم وجد نفسه يستعيذ بالله من فكرة كانت تحوم حوله وتلح ولا ينفع فيها نش، وكان آخر ما رأته عيناه ازدحام الناس الشديد، وتدافعهم والمرأة أمامه. . وداهمه النوم قبل أن يطرد الفكرة أو يستعيذ بالله. .

واستأنف عوض أفندي صلاته وهو يقضي فروض الأيام التي مضت وقد أدرك أخيرا أن الملاءة التي اعتاد الصلاة عليها غير كاملة الطهر. .

ولما انتهى وقبل أن يطفئ النور جاء حامد. . وكن قد ذهب للمرة المائة يرى الخدش، ووجد أنه أخطر مما كان يحسب، وأن رفته لا جدال فيه ولا شك.

وسأله عوض أفندي عن الساعة. فأجابه حامد وهو يتسلق سرير الأوسطى شرف ليصل إلى فراشه. . وعاد عوض أفندي يسأله ويكذب ساعته. . وبعد إصرار ومناوشات أدرك عوض أفندي مرغوبا أنه نسي تقديم ساعته فظلت دائرة بتوقيت أوروبا. . ومعنى هذا أن كل ما فات من صلاته باطل. .

وفيما كان حامد يريح جسده المنهك برقت في ذهنه فكرة جهنمية. فماذا يحدث لو طلى الخدش بورنيش حذائه ليداريه؟ وبعد أن يمر أول يوم يصلحه على حسابه؟ وهل إذا فاتت على الأمير تفوت

٨٠٠

على الـوكيل؟ كـل شيء محتمل ولكن ليس لـديه خيـار. وحين جاء النوم كانت البطالة وأيامها السود تجذبه من ناحية، والأمل يـداعبه من ناحية أخرى. ولكن على أي الحالين كان طلاء الخدش أول ما يجب عليه في الصباح.

وأطفـأ عوض أفنـدي النور والحـزن يأكـل قلبـه على الفـروض الضائعة، وحين كان يقرأ آية الكرسي ويلف يده حول رأسـه كان قـد صمم على أن يقضي الفـروض كلها قبـل مغـادرة البـاخـرة، فيصلي الفجر. وينوي بعده للقضاء. ونام وهو يتمتم: إن شاء الله . .

وفي ذلـك الوقت كان دكتور القـانون يبحث عـن طـرد ناقص ووجده أخيرا تحت الفوطة، وابتسم للطرحة السوداء والفستان الحرير التي يحتويها الطرد، والتي أحضرها لأمه، ورأى نفسـه دون أن يدري في قـريتهم، والنـاس يقـولـون يـا دكتـور، ويسـألـونـه عن أوروبـا، والتهاني، وبابهم الكبير المفتوح، وأمه تحاول من فـرحتها أن تـزغرد وهو يخجل ويمنعها . .

وعـاد إلى نفسه وراح يحسب كـل دقيقة من سـاعات الصبـح، ويحدد أين يقف، وعدد الشيالين، ويوصي نفسه بالمحاسبة على طرد البللور، ويخمن المبلغ الـذي سيسكت به مـوظف الجمـرك، وتعب عقله ونام. ومع هذا كانت تتصـاعد منـه بين الحين والحين غمغمات تدور كلها حول الطرود.

وكـان سعد الله السفـرجي آخـر من أوى إلى كـابينتـه، فليلتهـا

SS

٨٠١

ذهب كما تعود إلى بيترو، وعب من خمره التي بلا ضرائب أو جمارك حتى ارتوى وفضفض كل ما عنده من انجليزية وعربية وسريانية، واستمر يبحث عن الممر المؤدي إلى الكابينة حتى عثر عليه الخادم السهران فقاده إليها، وما أن دخل حتى تهاوى جالسا على الأرض وأتعبه الجلوس فتمدد لا يلوي على شيء، وعثرت يده حين فردها على صندوقه الكرتون، وفي داخل الصندوق ملست أصابعه على صوف البدلة الخشن ورفت بذهنه المدووش ومضات . . النادي النوبي . . أبو عفان . . الواقفة تحت المصباح في ميدان سليمان والواحد مبسوط . . البدلة . .

ولدى ذكرها راق مخه تماما وأقسم أنه لن ينزل من الباخرة إلا وقد ارتداها . . ووضع يده في جيب بنطلونه . .

* * *

واستيقظ السبعة . .

وكان الواحد منهم حين يفتح عينيه ويرى الضوء منتشرا على غير العادة، يتولاه خوف داهم وكأنه تلميذ صحا بعد فوات الامتحان ولا تكاد دقيقة واحدة تمضي عليه إلا ويكون مندفعا إلى ظهر الباخرة كالسهم وهو لا يدري ما الذي يدفعه؟ .

حتى عوض أفندي الذي كان أول من صحا، لما ذهب ليتوضأ، أحس بشيء كالهاتف يأمره، فترك الوضوء وأسرع إلى فوق . .

وكان دكتور القانون هو الوحيد الذي وقف على باب الكابينة يحرس الطرود، ويروح ويغدو وثمة قلق ينهش خطواته.

وكان الصاعد إلى الظهر يذهله السكون المستتب، وفالباخرة تنساب بنعومة فوق البحر الذي هدأت أمواجه، والدنيا فيها سكون الصبح المبكر، والناس كثيرون متشبثون بالحاجز ويفتشون بأنظارهم الأفق ولا يجدون شيئا، ومع هذا يزدادون تشبثا وتصطبغ ملامحهم بترقب عظيم كالذي يتوقع أنباء هامة أو يتطلع إلى معجزة. .

وكانت طيور النورس هي الوحيدة التي تحدث ضجيجا صغيرا مفاجئا حين تنقض على سطح الماء وترتطم به.

وأظلم الأفق قليلا، ثم أشرق على خط رمادي طويل. .

وسرت همهمة. . هي. . مش هي دي سحابة. . لسه بعيد.

وأطلقت الباخرة صفارة لها ضجيج ومبحوح مرتعش. .

وأبطأت من سيرها وانخفض أزيز المحرك. .

وصفت زرقة السماء حتى أصبح لا يعادلها إلا زرقة البحر.

ومن بين الزرقتين أهل موكب الشمس وظهرت طلائعها، ثم بدأ القرص الأحمر الكبير والهيبة تحيطه يتقدم في بطء وجلال. .

ومضت الباخرة في حرص هادئ كالحبيبة حين تتسلل إلى لقاء الحبيب، والناس فوقها يرقبون تعاقب الألوان والمشاهد وكأنهم يتابعون أحداثا مثيرة على شاشة عرضها السموات والأرض. .

٨٠٣

ومن حيث لا يتوقع أحد ارتفع صوت نسائي لـه رخامـة الصبح المبكر يقول:

ـ ماريا. . فرانشسكا. . لينا. . سيلفانا. .

وتعـالى صخب أربـع بنـات صغيـرات كـأنهن جئن في بـطن واحدة، واستطرد الصوت الرخيم يقول:

ـ كويستا ايجيتو ماريا! كويستا الساندريا . .

وتحـولت العيـون إلى مكـان الصـوت حيث كـانت تقف أم إيـطالية على صنـدوق قديم حـائرة مـوزعة بين بنـاتها الـلائي حملت واحـدة منهن، والباقيـات يصرخن ويجـذبنها من ثـوبها، ويقـرصنها، وبين رغبتهـا في رؤية الخط الـذي عند نهـاية الأفق وهـو يتحول إلى أرض. .

وأيقظت ضجة الصغيرات الناس من ترقبهم وانبهارهم. .

وخبط الأوسـطى شرف حـامـد على كتفـه ثم ضمـه وهـو يهتـز ويقول:

ـ واد يا حماده. . ولا يا حماده. . وصلنا يا واد. .

وسكت قليلا ولما تبين أن التي على مرمى البصر أرض حقيقية انتابته الخفة:

ـ والنبي هيه. . بلدنا أهـه. . يا سلام يا جدعان. .

وكان سعد الله يقول لعوض أفندي:

ـ وصلنا يا عم عوض؟!..

ـ وصلنا يا أبو السعود..

ـ ودي مصر يا عم عوض؟!..

ـ والنبي مصر يا خويا..

ـ وعشنا وشفناها؟..

ـ وشفناها..

ـ أم الدنيا؟!..

ـ أم الدنيا؟!..

ـ ووصلنا؟..

وتلفت عـوض أفندي إلى الـواقفين غيـر مصـدق وأحس بنفسه يستعيـد عنفوان شبـابه وكـل ما فيـه مرح وهـو يسمع الأفـواه تـردد.. مصـر.. ايجيبت.. ايجيتو.. ليجيبت.. السـانـدريـا.. كـايـرو.. ألكس..

وغير بعيد كان يدور بين المدرس والرسام أول حوار لهمـا على الباخرة، وهما واقفان كتفا إلى كتف وعيونهما عند الشاطئ البعيد:

ـ يا أخي ليها وحشة..

ـ ياه.. الواحد نفسه في قرص طعمية سخن..

ـ الله.. دي فعلا ليها.. الله.. الواحد قلبه بيدق..

٨٠٥

ـ بقى هي دي اللي الواحد سابها قرفان . .

ـ بذمتك مش شامم الريحة؟ . .

ـ شوف الراجل ومراته لازقين في بعض وعمالين يبصوا إزاي؟! . .

ـ صحيح! . . ريحة! . . والنبي مصر لها ريحة . . بذمتك مش شامم . .

ـ يا ترى أخبارك ايه يا مصر؟ ومين مات ومين عاش؟! . .

وعاد المدرس بأنظاره إلى الناس ورأى الراهبة واقفة متجهة إلى حيث تتجه العيون ووجهها أبيض قد كسته حمرة طارئة، وشفتاها تتمتمان بشيء وكأنها تستقبل المذبح . .

ورأى كذلك اليوناني العجوز الذاهب إلى العراق فقال له بصوت لا ضابط له:

ـ أم الدنيا أهه يا خواجه . .

وابتسم العجوز وقال:

ـ لا خبيبي . . لا . . أنا واحد أمي هناك . . عند الفرات . .

وضحك المدرس أطول وأعمق ضحكة جرؤ عليها من أربع سنين . .

ولم يعد يحتمل الدكتور وهو يسمع المولد المنصوب على ظهر الباخرة ولا يرى شيئا . . وما كاد يلمح أحد البحارة حتى أوصاه

بالطرود على عجل ثم طار إلى الظهر . .

ودوت صفارة الباخرة طويلة ممدودة هذه المرة . .

وأقبل لنش بخاري فيه بحار، وفيه عساكر وضباط، وحين كان اللنش يدور حول نفسه ليرسو خلع قائد اللنش طربوشه ولوح به قائلا بترحيب طيب، لا ادعاء فيه :

ـ حمد الله عالسلامة يا جماعة . . حمد الله عالسلامة . .

واندفع الأوسطى شرف يقول بصوت كالرعد :

ـ الله يسلمك . . ميت فل عليك . .

وسكت يستجمع أنفاسه ثم انفجر بكل ما يملك :

ـ تحيا مصر يا جدعان . . والنبي تحيا مصر . . الله . . هو احنا لنا غيرها يا اخوانا . . والنبي لولا بركتها ما نساوي بصلة ! . . الله دي بلدنا ! . . دي بلدنا يا رجاله . . والا ايه؟ !

وتهدج صوته حتى ظن الناس أنه يبكي . .

وأصبحت الاسكندرية تملأ الأفق . . وبدت كبيرة لا تحدها الرؤية ،وبدت الباخرة إلى جوارها كالسردينة الميتة الطافية . .

وبعد هذا نسي السبعة أنفسهم، ولم يعوا وهم يختمون الجوازات، ويحضرون الأمتعة، ويتعاونون على حمل طرود الدكتور وقد انتابتهم خفة الأطفال في يوم العيد . .

وعلا الضجيج حتى أصبح الصارخ لا يسمع نفسه . .

ولاح الرصيف . .

المرجيحـة

لم تكن الضجة التي يثيرها الصغار تهم عبـد اللطيف في ذلك اليـوم، لا هي ولا غيرهـا من مهام الحيـاة أو توافههـا، فقد كـان يوم الـعيـد. . العيد الكبيـر. . اليوم الـذي انتـظره شهـرين كـاملين وهـو يحسب لـه ويعـد ويختلف مـع امـرأتـه في العـد والحسـاب. . حتى جاء! . .

وخيـل لعبد اللطيف وقـد طال انتـظاره أن اليـوم سيـأتي فجأة، كبيـراً، واسعا، عريضا. . ولكنه عندما جاء لم يكن كـذلك أبـدا. . أشرق فجره ثم نما صبحه وكبر ضحاه في بساطة وبـلا تهليل، تمـاما كما يدفع هو بيده (المرجيحة) لترتد إليه بعـد ذلك متبختـرة متمايلة، فيها ما فيها من الأطفال وقد اندس بينهم بعض الكبار! كان اليـوم في بساطة قدومه كالزمن وهو يدفع (مرجيحة) الحياة بيـده القويـة فتذهب أيامنا وتجيء ليالينا هكذا في يسر وبـلا ضوضـاء، وإنما نحن الـذين نصخب ونحن الـذين نصرخ ثم نحن الـذين نلعن الـزمن بعـد ذلـك ونسخط على الأيام.

وقف عبـد اللطيف يدفـع المرجيحـة بيده ويمـد يـده الأخـرى

يتحسس الملاليم التي تتلاصق في جيبه، ويفركها بأصابعه ويرنها في راحتـه، ويحس بنشـوة كتلك التي يحسهـا حين يعب أول نفس من الجوزة في الصباح. . فلم يكن يرى فيها ملاليم، ولم يكن يرى فيهـا أنها لا تساوي ورقة صغيرة من ذات العشرة قروش وإنما كان يرى في ملمسها غير الناعم حلما بأكمله ظل يعيش فيه شهرين طويلين كثيبين.

ولا يتركه إحساسه بجيبه وقد امتلأ، إلا حين يسلمه إلى ذكريات أيامه. . أيام كان يكسب مـلء جيوبـه قروشـا وعشرات ثم لا تـذهب بعيدا. . فقـد كان يضيعها على كيفه ومزاجه. ولا يندم، فهو صاحب كار متين وهو أحد أفراد عائلة النجارين. العـائلة التي عن لجدهـا أن ينفض يـده من الزراعـة، وقد زهـق منهـا، فتعلم النجارة بعـد عنـاء وأورث أولاده وأحفـاده الحرفـة حتى حذقـوها واحتكـروها ثم تفـرقوا وتناثروا في أرجاء البلدة وما جاورها من البلاد. .

وعبـد اللطيف لا يكذب على نفسـه فليست النجارة في القـرية في حاجة إلى فن وحـذق وبقدر مـا هي في حاجـة إلى قوة وسـاعد، ولم يكن عبـد اللطيف يملك كليهمـا. . كـان مـريضـا. . تسـربت البلهـارسيا إلى مثانته حتى أفقـدتـه القـدرة على التحكم في نفسـه. وتناثر مرضه حوله وتهـامس الناس بـه وتهامسـوا معه بـاللقب الجديـد الـذي أطلقوه عليـه. . (الطاجن) المشـروخ. ولم يلبث هو أيضـا أن اعتـرف بينه وبين نفسـه أنه مشـروخ وأنه مـريض وأنه لن يكـون أبدا كجـودة ذي الساعـد الممتلئ الغليظ الذي تنفـر عضلات يـده عندمـا يمسك بالقـدوم كأنهـا جذع نخلة (حيـاني)، ولن يكون كـأبي خليل

٨٠٩

الذي يوقف الساقية الحديد وحده وهو يضحك فتردد الساقية الجوفاء رعدات ضحكه.

إنه ضعيف مسلوب القوة. وكان يرقب ـ من خلال وهنه وعجزه ـ نصيبه من سنويات القرية وهو يصغر ويصغر.. كان يرقبه في مرارة معتلة وحقد ضعيف واهن، فالناس ما عادوا يأتمنون قوته على سواقيهم ومحاريثهم وفؤوسهم، وإنما يلجأون لغيره من أفراد العائلة القوية، ويلجئونه معهم إلى أن يترك بدوره صناعة المحاريث وإصلاح السواقي إلى عمل الطبالي الصغيرة ومفاتيح الأبواب الخشبية، وإلى أن يسعى إليه الناس حين يلم بهم عرس حتى يركب الدولاب أو ينصب السريرا..

وكان نتاج هذه جميعها والحمد لله يكفي أن ينعم عبد اللطيف وامرأته وابنه وابنته بالرطل والنصف من اللحم كل يوم ثلاثاء. ويكفي أن يشتري حصيرة يرقدون عليها كل سنة، وأن يضيف إلى سقف وسط الدار المكشوف قطعة خشبية جديدة كل ستة أشهر. ولكنه لم يكن يكفي أن يسد مطالب الأفواه اللاصقة برقبته، فلا هو يقفل فم امرأته على قطعة لبان ولا يطبق فم ابنته على فص برتقال، ولا يكفي ابنه.. لعنة الله على ابنه.. هذا القزم الذي ظن يوم بشرته به الحاجة صباح، أنه سيكون قوته المسلوبة وجذع النخلة الذي ينقصه، فإذا به ينشأ هكذا أصفر عليلا معوج الجذع والساق.

ـ كده يا محمد ماشوفش فيك يوم راجي..

كانت هذه الكلمات على لسانه طول اليوم. كان يتوقع من ابنه الكثير ولا يرحم ابنه حين لا يستطيع إلا أقل القليل. إنه لم يعلمه كيف يمسك الكماشة ليقتلع بها المسمار إلا بعد أن أصابه بأربعة جروح ما زالت بيضاء في رأسه، وبعد أن قذف به في الترعة مرتين. ومع ذلك فلم يستطع أن يمسك بها أبدا، على الأصول!.

كان عبد اللطيف يجتر كل هذا ثم يكز على أسنانه ويطلب من امرأته في جفوة أن تحضر له العدة والجوزة.. ويرتشف في نهم من كوب الشاي الأسود، ويعب الدخان الكثيف الأزرق من الكرسي، ويشد الحزام الصوف إلى وسطه ثم يفك حصره مرة أو مرات ويستنزل اللعنات على أجداد ابنه ثم يبصق في يده ويمسك القدوم ويعمل على مهل وفي اشمئزاز ضعيف مقهورا..

يعمل على مهل وامرأته الحلوة تختلس النظرات إليه من تحت أهدابها الطويلة وقد ربطت رأسها بالقمطة الحمراء وسببت شعرها الأسود المجعد اللامع حتى يبين طرفه من القمطة ومدت رجلها البيضاء الممتلئة فبان قدمها النظيف الذي قضت وقتا طويلا في حكه بالحجر..

تختلس النظرات إليه وهو لايدري أهذا الذي في وجهها ابتسام أم هو براعم ضحكة ستنفجر بعد حين. وعندما يكل ساعد عبد اللطيف ـ وما أقرب ما يكل ـ ينظر لها بعين فيها حمرة خابية، وفيها حيرة.. وبوجه تائه مشحون ويكاد يقول: آه يانبوية يا قتلاني..

٨١١

والحق أنها كانت تقتله وكانت تدفعه تحت ·جنح الظلام إلى الفص الأسود يغتصبه من تاجر الأفيون وهو يقول له في غيظ:

ـ بكرة يا أخي أديلك. .

كانت تقتله لأنه كان يأكل ويستحلب لعاب شهيته وهو يمضغ حتى يستطيع أن يجرع كوب الشاي. وكان يقبض على الكوب بيده وتترنم أذنه بالنغم الذي يصدره وهو يحتسي السائل الأسود اللزج، ليتبعه بأنفاس الدخان.

وكان يأكل ويشرب الشاي ويذيب الفص ويلتهم الدخان ليقضي الليل بطوله ويده تعبث بشعر امرأته الأسود المسبسب بينما قمطتها قد انحلت وتاهت في المخدة. .

ولم تكن المشكلة تنتهي بانقضاء الليل، ولا بمضي الليالي، وإنما كان يراود عبد اللطيف السؤال الحائر: ترى هل نبوية قانعة بما يقدمه لها؟. .

وإذا راجع أخماسه وأسداسه واقتنع أو استطاع بوسيلة ما أن يضحك على نفسه ويقتنع فإنه يسأل نفسه مرة أخرى وفي سؤاله شك مرتجف: وحكاية الطاجن المشروخ هذا، ترى هل وصلتها هي الأخرى؟ وهل إن كانت وصلتها قد أسقطته من عينها؟ تلك أسئلة كانت تدور بخلده وإنما كان ينهيها بعينيه الحائرتين ترمقان نبوية في شك وفي لهفة وهما تقولان مرة أخرى:

ـ آه يا نبوية يا قتلاني . .

* * *

اليوم يوم العيد . .

وعبد اللطيف قد اطمأن على نفسه بعد أن اختطف نظرة إلى هندامه في مرآة الدولاب القديم الذي دخل به ورأى شاربه الرفيع متهدلا حول فمه كما يحب أن يراه، ورأى وجهه الأصفر النحيل قد اجتز منه الأوسطى عبد السميع شعيرات ذقنه فبدا ناعما ورغم ما به من حفر قديمة، بل بدت خيوط من حمرة باهتة صنعتها الموسى تتبعثر في وجهه كما يحمر شفق يوم مغبر حين يظهر القمر . .

اليوم يوم العيد . . اليوم الذي تناسى عبد اللطيف ضعفه، وتناسى وعاءه المشروخ، وتناسى زحمة الحياة بين النجارين التي دفعته إلى نصب المرجيحة في العيد، وأن يقف بجوارها هكذا حليق الذقن مرتديا ثوبه الأبيض الجديد الذي اشتراه من ثلاث سنوات، واحتفظ به للمناسبات! تناسى هذا كله. ولم يعد يذكر إلا الملاليم التي تعمر جيبه والا المرجيحة التي نصبها جودة، ثم لم يكسب من ورائها شيئا . . كان جودة عملاقا قويا ولهذا لم يفز بنصيب من ثروة الصغار، فقد كانوا يخافونه ولا يطمئنون أبدا إلى يده الضخمة حين تدفع المرجيحة فتقذف بها إلى كبد السماء. ولهذا كانوا يستريحون لعبد اللطيف، ولعبته القديمة، ويده النحيلة التي لن تعلقهم أبدا بين الأرض والسماء! . .

وأسعد هذا عبد اللطيف.. أسعده أن يرى نفسه قد انتصر ولو ساعات قليلة كل عام. أسعده أن يتجمع الأطفال حوله وأن يشخط هو فرحا ويصرخ منتشيا. وكان أول ما فكر فيه حين سرت النشوة في جثته أن يغني.. ويغني بأعلى صوته حتى يصل غناؤه إلى أسماع جودة.. يغني ويرد الصغار عليه ويحمسهم هو ويطيل في أشواطهم حتى يرفعوا عقيرتهم أكثر وأكثر لينفجر جوده..

وكان الأطفال دائما مع المنتصر، وكذلك كانوا يتجمعون حول عبد اللطيف وحول قطع الأخشاب الأربع التي تمسك بمرجيحته العتيقة..

وكان هذا التجمع الكثير من أطفال معظمهم يشاهد العيد ويحضر المراجيح لأول مرة في حياته. كان هذا السبب في الصرخة المدوية التي انبثقت من راكبي المرجيحة، وفي الصدمة القوية التي سبقت الصرخة، وفي سالم ابن العمدة وقد تكوم على الأرض لا حراك به، والدم يندفع في غزارة من جرح عميق في رأسه بعد أن صرعه مقدم المرجيحة وهو واقف يشاهد هبوطها وصعودها في سذاجة وبلاهة.

ـ مات.. مات ياولاد.. ابن العمدة مات.. يا خرابك يا عبد اللطيف.

وكان يكفي لخراب عبد اللطيف أن يشتم ابن العمدة.. أو لا يقف إجلالا للعمدة.. فما بالك وقد جرح سالم جرحا لم يقتله وإنما

سالت له دماؤه في كثرة . .

وحين جروه إلى المركز وسألوه كثيرا قبل أن يلقوا به في الحجز المظلم، وكان هو قد شبع من كل إحساس حتى استوى فوق غيبوبة من شعوره فلم يهمه ان ذبحوه أو خنقوه. . وماذا يأخذون منه هو الراقد فوق بلاط السجن وقد ساب على نفسه، واصفر جلده وراح في دنيا غير دنيانا؟! . .

ولم يمكث عبد اللطيف في السجن كثيرا لأنه مات. ويحكون أنه قال قبل أن يذهب:

ـ البركة فيك يا محمد. . يابني . .

ولم تحل البركة بمحمد وإنما حل به المرض وامتلأ بطنه بالماء، وأطلق عليه رفاقه لقب محمد الزير. وكان ثقل بطنه يضطره إلى الرقاد أياما كثيرة في دارهم، تاركا الطبالي والمحاريث والفئوس تتكوم وراء الباب، حتى يأتي أصحابها وقد يئسوا من إصلاحها فيأخذوها بعد أن يتبادلوا الألقاب مع أمه نبوية.

وجاء اليوم الذي خلا فيه كل ما وراء الباب.

وكان محمد في خلال رقداته الكثيرة الطويلة يتساءل في عجب وفي دهاء مريض: من أين يأكلون؟ . .

ولم تكن إجابة السؤال تهمة أو تهم أخته أو أمه، ولكن أهل القرية وعائلة النجارين خاصة كانوا يهتمـون، وكانـوا يقضون الليالي الطوال في منـاقشة المصـدر الذي يبقيهم أحيـاء. . وفي المنـاقشـات تـدلف طاقية المعلم أحمد الوبـر و(لاسته) الحـريريـة، وحذاؤه (الاجلسيـه) اللامع. .

والمعلم نمر كبير. . تنمر يحمل في جيبـه علبة فيهـا الحشيش مقطعا وملفوفا في ورق شفاف، وفيها الأفيون يرقد في أبنوسية العنبر. ويحمل بجانب العلبة محفظة تمتلئ دائما بالأوراق الخضـراء. وفوق العلبة والمحفظة أكتافه العـريضة، ومن أعلى أكتـافه تبـرز رأسه التي تعرف من أين تفتح الأبواب.

وكان عبد اللطيف قبل موتـه قد ارتكب هفـوة صغيرة فقـد مات وعليـه لأحمـد حسـاب. وكـان المعلم يعـرف كيف يحيـل الحسـاب الصغير بدراية وخفة وفهلوة إلى قبضة رقيقة متلصصـة يطرق بهـا باب المرحوم فتفتح له نبوية وفوق فمها ابتسامة.

وكان محمد في رقدته فوق الفرن يتسـاءل في مكر أيضـا، بينه وبين نفسه، عن قمطة أمه الحمراء النـظيفة، وعينيهـا اللتين كثيرا مـا زارهما الكحل، وخدودها الملتهبة، وكعوبهـا التي يقفز منهـا الدم. . كل هذا ولـم يمض على وفاة أبيه شهـران، يتساءل محمـد ثم لا يهتم

بالاجابة فقد كان ينظر إلى بطنه العالي، وقد أخفى الدنيا عن عينيه ولم يعد يربطه بالوجود إلا يد أمه البضة وهي تحمل له كوب الشاي العلقم وتقول في رفق ونعومة:

ـ خد يا خويا. . خليك تخف. .

ولم يتحمل يوما كل هذا. .

كانت أمه قد فرغت من الخبيز وأرقدته فوق الفرن الملتهب حتى تصبب عرقا وحمت عظامه، فقال لها بصوت جعله أضعف ما يستطيع:

ـ ألا يا أما المعلم أحمد بييجي كتير ليه؟. .

واحمرت خدود أمه، وابتسمت، ثم تضاحكت وقالت له وقد بانت أسنانها البيضاء الحلوة:

ـ يعني ما انتاش عارف ليه؟. .

فقال في سذاجة حقيقية:

ـ لا والنبي. .

فغمزت بعينها وقالت هامسة وهي تشير إلى الغرفة:

ـ أصله بيتكلم على أختك. .

وبردت عظام محمد، وذهب العرق عنه، وانزاح عن خاطره هم كثير. . وصدق هذا، بل لم يجد مانعا لديه أن ينام أحمد في بيتهم، بل يكاد يقيم في النهاية معهم حين قرأ فاتحة أخته.

وكان محمد ينام كثيرا فليس له عمل إلا النوم. وكان لا يشعر بالحياة وهي تمضي إلا حين يخف الظلام فيعرف أن النهار قد حل وانتشرت معه ذرات الغبار التي تثيرها أخته حين تكنس أرض الدار. ولا يشعر بحياة من حوله إلا حين تسقيه أمه الشاي، أو تحضر له أخته الغذاء أو يغمزه المعلم أحمد بقرش الحلاوة الطحينية.

ومع هذا فمن خلال الطاقة الضيقة المعتمة التي يطل منها على الحياة.. لم يفته أن يراعي التنافس الذي استوى على أقدامه بين أمه وأخته في جلي الكعوب وتسريح الشعر وقرص الخدود حتى تحمر. ولم يفته أيضا أن أمه وأخته أصبحتا وكأن لا هم لهما إلا إرضاؤه والتنافس على تلبية إشاراته ورغائبه. وكان المعلم أكثر منهما.

وفي يوم تناول محمد إفطاره من اللبن الرائب ثم تقيأه ولم يكف عن القيء إلا الظهر حين غاب عن الوعي.

وزار البيت في هذا اليوم عدد كبير من الناس. وانعقدت مجالس وفضت مجالس ودار الشاي مرات ومرات.. وأخرج المعلم في كل مرة علبته من جيبه ليحلي أقداح القهوة. وكان آخر المجالس ذلك الذي دارت فيه الجوزة وانتشت الأكواب واستمر إلى ما بعد منتصف الليل.

واستقر الرأي بعد هذا كله على ذهاب محمد إلى طبيب البندر في الصباح.

ومن الفجر دارت نبوية تقرع الأبواب لتستعير حمارا يوصل

ابنها. وقرعت الأبواب مرات كثيرة دون جدوى. وما كان للحمار أن يأتي إلا من خلال المعلم ومن تحت أهداب علبته. وقد جاء..

ورآه الطبيب، وبعد كلمة من هنا وجنيه من هناك، حجز محمد في مستشفى المركز.

وغاب محمد بعد هذا عن وعي الناس والقرية، وشيئا فشيئا عن وعي المعلم وأمه ثم أخته..

* * *

كانت الأحاديث على ظهور الأفران أو فوق المصاطب تبدأ بأمشير وما فعله في الأرض والناس، والسكر الذي تأخر صرفه، وتقاوى القمح الفاسدة، ثم تنتهي بفاتحة البنت التي قرأها المعلم.

وكان يعقبها أو يسبقها قصة شعر أمها المسبسب، وشبشبها العالي واللبانة التي تطرقع في فمها، ثم حداقةالمعلم وفهلوته.

وقد يتحد الناس ويأتلفون حول أي شيء، ولكنهم ينقسمون دائما ويختلفون على من يقع عليها الاختيار، وهل يتزوج المعلم البنت أو أمها.

وتستمر الاشاعات رائحة غادية، تعيد قصة المرجيحة التي كان ينصبها عبد اللطيف كل عيد، ويظل المعلم هو الآخر يروح ويجيء بينهما فلا يستقر عند البنت أو حتى عند أمها.

المـأتـم

وقف أبو المتولي على باب الجامع، وشمس الضحى تنصب على وجهه (الأشعل) فتعذبه، ويتوهج لها شعر رأسه الناصع البياض كشعر الأرانب، وتزداد كذلك حمرة أجفانه الخالية من الرموش، المضمومة بإحكام حتى تمنع الضوء من التسرب إلى مقلتيه . .

وقف يحاور الشمس وتحاوره، ولم يستطع أن يرى ما أمامه إلا بعد أن مد رقبته، وأدخل رأسه في ظل الجامع بينما بقي جسده خارج الباب، وحينئذ راح يطوف بعينيه الصغيرتين الضعيفتين داخل الجامع حتى عثر على بغيته جالسا يغالب النوم بجوار عمود، فنادى بصوته الأخنف الهادئ:

ـ يا شيخ محمد.

وكانت همهمة الناس الكثيرين الذين يحفل بهم الجامع لا تفنى حين تغادر أفواههم، ولا تتبدد، وإنما تبقى، وتنتشر كالنحل في كل اتجاه، وتظل تتخبط بين جدران المسجد الوقورة العالية الملساء، فتصنع بتخبطها رنينا عريضا أجوف يدوي به المكان . .

٨٢٠

ولم ينفع صوته الأخنف الهادئ فقد ضاع نداؤه في هالة الرنين، ورفع صوته أكثر وكافح ليرفعه حتى احمر وجهه وأصبح كعرف الديك..

وأخيرا سمع الجالس بجوار العمود، فأدار برأسه كمن كان يتوقع النداء، وأسرع بعينيه إلى الباب، ثم لم أجزاءه وأسرع بنفسه..

وأحس أبو المتولي بالراحة حين سمعه الرجل فذلك كان يعني انتهاء مهمة عينيه الشاقة، فأغلقهما ولم يبق إلا شعاعا رفيعا كافيا لأن يتحسس به ما حوله..

ـ غبت ليه يا مبروك؟

ولم يرد أبو المتولي أو يضيع الوقت في سلام أو كلام مع الشيخ محمد.. ووضع اللفافة التي كان يحملها فوق يديه على المصطبة البارزة من باب الجامع.. وكان في اللفافة رضيع ميت ملفوف بحرام أجرب باهت.. وقال:

ـ صلي يا شيخ محمد..

وتلكأ الشيخ قليلا، وتغمز وتلمز بعينيه اللتين يغطي مقلتيهما سحاب أزرق، وحرك رقبته وبص إلى اليسار، ثم استدار إلى اليمين، وابتسم ابتسامة كلها مكر ساذج، وهم أن يقول شيئا، ولكن أبو المتولي الحانوتي كان فارغ البال، ناشف الريق، فشدد الضغط على أجفانه، ورفع وجهه إلى فوق وكأنما يتحدى الشمس والشيخ

محمد معا وقال:

ـ يوهوه.. بس صلي الأول!..

وأكمل غضبته بخبطة على جلبابه، ثم استدار وبحركة لا إرادية ثبت كفا فوق عمامته من أمام، وكفا أخرى من الخلف وجذب العمامة بقوة ليحبكها ربما للمرة العاشرة منذ الصباح.

ولم يتحرك من مكانه إلا بعد أن نوى الشيخ، وبعد هذا مضى يراقب الخناقات الصغيرة الناشبة بين البائعين والمشترين ـ وما كان أكثرهم ـ حول الجامع وأمامه . ثم أتعبته الشمس فاتجه بعينيه إلى الظل حيث كانت حلقة تذكر قائمة على قدم وساق.. وكانت الحلقة تضم جمعا قليلا متنافرا من الناس، وعلى رأسهم شيخ مجذوب له (شرف) أحمر وقد علق في كتفه (مخلاية) لا يعلم ما فيها إلا الله.. وكان الشيخ يمسك بمجلس الذكر على دقات مسبحته فوق عصاه المصنوعة من ماسورة حديدية، وأثناء هذا ينشد ويوشح، وكان صوته أقبح من وجهه..

ولما جاء بائع العرقسوس، ورنت صاجاته وصيحاته، تذكر أبو المتولي ريقه الجاف ولم يستطع أن يقاوم إغراء الضباب المثلج الذي يحيط بزجاج الإناء والذي ترد رؤيته الروح.. فمد يده بنصف قرش للرجل، وأزاح الرغاوي المتجمعة على سطح الكوب بنفخة واحدة من زفيره.. ثم سمى ومضى يجرع.. وأعجبته (الشوية) فمد يده اليمنى من خلال فتحة جلبابته وهو يشرب وانتزع من جيب الصديري

تعريفة أحمر، وأعطاه للبائع . . وتلاعبت حنجرتـه التي لا تكاد تـظهر من رقبته وهو يتاوي الكوب الثاني . .

وتكرع، وحفل جسده بالعرق . .

ورمق بائع جميـز بربـع عين، ولم يعجبه الجميـز، فرجـع إلى الباب ليجد أن الشيخ محمد قد انتهى من الصلاة .

- السلام عليكم ورحمة الله . .

قالها الشيخ محمد وهو يحملق ناحية الحانوتي، وقالهـا بصوت مرتفع منغم وكأنما يوبخ أبو المتولي ويؤنبه . . ثم انخفض صوته حتى أصبح حوقلة وهمسا، وانخرط في ختم الصلاة . .

وألقى عليه الحانوتي نظرة فيها شك وعدم اطمئنان وسأله :

ك - بقى ودينك يا شيخ . . الواد على القبلة مظبوط؟ .

ورفع الشيخ محمد صوته بختام الصلاة وكأنما يرد عليه :

- اللهم صلي وسلم وبارك . .

ولم يجز هذا على الحانوتي فعاد يقول :

- بقى بذمتك أنت على وضوك يا شيخ محمد؟

- على سيـدنا محمـد وعلى . . يـا أخي هـو مـافيش إسـلام . . وعلى آله وصحبه وسلم . .

وهمهم أبـو المتولي بكـلام لم يفهمه هـو نفسه، ثم مـد يـده

وحمل اللفافة فوقها . . وكان الشيخ قد أنهى الختام على عجل فقال وهو يمسح وجهه بكفيه ويقبلهما:

ـ يبقوا كام بقى يا عم متولي؟

وتوقف الحانوتي وقد عاوده ملله، وازدادت عصبيته وكأنه يحمل فوق يديه أرطالا من حديد . . وصمت لحظة صمت اليائس فقد عمل كل ما في وسعه ليتجنب الخوض في مثل ذلك الكلام ولكن ما باليد حيلة . . وببطء قال:

ـ بدهه يا شيخ محمد . . يبقوا سبعه . .

ـ سبعه؟! سبعة ايه؟! وحياة الست مسكة وأم هاشم وأولية الله ثمانية يا مبروك . .

ـ سبعة يا شيخ محمد والله العظيم سبعة!

ـ دانت صاحب عيال يا عم متولي . . وحياة سيدي . . الله أدحنا فيها . . الواد اللي جبته من الحنفي الصبح . . واحد . . والبنت بنت عمك . .

ـ اسمع يا شيخ محمد . . عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أ . . أ . . أ . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . مش يا مبروك .

ـ عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أف . وزمتك يا شيخ . . الله وكيلك . .

ـ وصلك كام يا شيخ محمد؟!

ـ حته بعشرة يا مبروك . .

وانتظر الحانوتي حتى يحسب الحسبة ثم قال:

ـ يبقى باقيلك من حساب السبعة أربعة ساغ .

ـ بس . . بس . . يعني . .

ـ بس ايه . .

ـ بس وأنت سيد العارفين يا عم متولي . . النهارده رطل القوطة بكذا . . والبامية بكيت . . ولا ليالي ولا مياتم . . والحالة كرب . . والولية امبارح اشتريت لها سبرين . .

ـ طماطم ايه! . . وهباب ايه! . . يا شيخ اصطبح وقول يا فتاح! الصيف أهو طالع . . والنزلة جاية ومش حتلحق تحوش عن قفاك . . خليها على الله . . خد!

وتردد الشيخ محمد وهو يكن يده ثم يفردها، ولكنه توكل على الله، وتناول ما في قبضة الحانوتي وتحسس الشلن الورق وأدخل رقبته في الجبة القديمة، وفرفط غمزاته ولمزاته، وفركه بين أصابعه، وطبقه، وكاد يرده، ولكنه سحب ناعما، وحدق من خلال الضباب الذي أمام عينيه وقال:

ـ طب هات ساغ كمان يا مبروك .

ولم يسمعه أحد، فأبوالمتولي كان قد اختفى باللفافة في زحمة الناس . .

١/٤ حوض

الفكـــرة شيء انسانـي عجيب، فهي دائمـــا تتـطلب عمـــلا وجهدا، وأحيانا تخطر للانسان فكرة فيظل يستضعفها ويملها وهو كاره ما وراءها من عمل حتى يقتلها، وأحيـانا تخـطر له فكـرة فيها جـدة، وفيها روعة ولـذة، فتقلب هدوءه رأسـا على عقب، وتنفخ فيـه أطنانـا من النشاط. .

واسمـاعيل بيـه الماحي واتتـه فكرة. . وكـان لا يدري من أين جاءته، ولا أي وحي هبط عليه بها، وكل الذي يدريه أنه كان ممـددا في فراشه في الحجرة الزرقاء البحرية من(الفيلا) أو على الأقل هكذا وجد نفسه حين استيقظ. وهـو لم يستيقظ مرة واحـدة كخلق الله انما استيقظ مرات. . وكان في كل مرة يراود نفسه: فهـل يصحـو أم ينـام كما كان؟ واذا صحا فماذا يفعل، وماذا وراءه؟.

وفي هـذا اليوم لم يكن وراءه شيء أهم من النـوم، ومن أجـل هـذا كانت استشاراته لنفسـه لا تستغـرق وقتـا طـويـلا يعـود بعـدهـا لتستضيفه الملائكة. .

واستيقظ مـرة، وساءل نفسـه كالعـادة ثم قرر ان ينـام. . ولكن

قراره كان خيالاً على وهم، فإن جسده كان قد تشبع ولم يعد فيه مكان لذرة نوم واحدة. .

ولم يكن هناك حل الا أن يتناوم، ويقنع نفسه بأنه في أحلى نعاس وفهو في أتم يقظة، وجازت الحيلة على جسده وفوتها على نفسه، انما عيناه لم تحتملا أجفانهما المضمومة طويلا فسرعان ما أزاحتا الأجفان وخرجتا الى النور.

وسلم لعينيه المفتوحتين، وجابهته حينئذ مشكلة عويصة، فهو لم يكن يعرف الوقت، وساعته التي على((الكومودينو) بجانبه واقفة لا حراك بها، والضوء في ذلك الريف اللعين لا يعتمد عليه، فشعاعات الشمس قاسية فظة تنفذ من أسمك(شيش) وتجعل السادسة تبدو كأنها الثانية بعد الظهر. .

وتلوى في الفراش قليلا وتثاءب، وماء، وشد على جسده ملاءة السرير الزرقاء الرقيقة وأرخاها، وعرى ساقه فأحس بنسمة من البرودة تغطيها، وعرى حينئذ الثانية. .

وما كاد يستريح الى البرودة التي تلامس أطرافه حتى جذب الملاءة، فقد سمع أزيز ذبابة، ثم رآها، وجاءت وراءها واحدة ثانية. .

وخلقت له الذبابتان مشكلة أعقد، فمن أين يجيء الذباب؟ وكيف يقتحم الناموسية؟ أيكون فيها ثقب؟ أتكون قد بليت؟ وما

يدريه انهما اثنتان فقط؟ ألا يجوز أن ثالثتهما قد حومت حول فمه وهو نائم؟!

وانقبض لهذه الخطرة ،وانصرف عن المشكلة كلها الى الوقت الذي لا يعرفه، كان عليه ليعلم الساعة أن ينادي على عبده، وفي النداء مشقة، وقد لا يسمعه أحد أو قد ترد الست تلومه على كسله، أو قد يضطر للنهوض من الفراش، واذا نهض كان عليه أن يغتال الذبابتين بالمرة، وهذه مشقة أخرى. .

من أجل هذا انصرف عن مشكلة الوقت أيضاً، وقنع بالتحديق في أرجاء الحجرة، وكان الظلام المضيء المنتشر فيها يشع غموضا أعجبه، ويصنع من زرقة حيطانها ضفافا لبحيرة هادئة، وراح يسبح في البحيرة على زوارق من أحلامه. .

وفجأة واتته الفكرة. .

وفي التو اعتدل، ثم جلس في الفراش، وأزاح الملاءات الرقيقة الهفهافة، وخرج من الناموسية، وأصبح على السجادة وغادر الحجرة وهو يقبض ذراعيه وينفضهما بقوة. .

وكانت الست هي أول من رآه، وقبل أن تفتح فمها، سألها بلهفة:

ـ الساعة كام؟

ـ حداشر ونص يا سيدي. .

ـ ياه . . .

وتركها قبل أن تفتح فمها مرة أخرى وأسرع الى الحمام. ولم يمكث به سوى بضع ضقائق وخرج ـ وكان عبده يتلكأ في الممر منتظرا أن يسأله عما اذا كان يحب الفطار في الفراش أو على السفرة. . وفوجىء عبده بالبيه وهو يأمره بصوت عاجل أن يحضر القبعة. . وأسرع عبده يتلكأ ويحضرها ،وسمعت الست الأمر فجاء صوتها من بعيد وهي في الصالة الثانية.

ـ على فين؟

واحتار البيه ثم قرر أن يقول:

ـ آه. . مفيش. . نازل تحت. .

فردت عليه مستنكرة:

ـ دلوقت. . ليه؟ . . فيه ايه؟ . . من غير فطار؟ . . وبالبيجامة؟!

ـ ماليش نفس. .

ـ طيب. . خد الشاي بس. .

ـ لا. . أنا راجع أفطر. .

وتناول القبعة من عبده وهو على أول درجة في السلم، ثم نزل مهرولاً وزعقات الست تتبعه وهو يرد عليها، وكلاهما لا يهتم بما يقوله الآخر. .

ولمحه عم عبد الله الجنايني وهو يخطو أولى خطواته داخل

الجنينة، فجاء مهرولا بجسده القصير المنحني ووقف وبينه وبين البيه بعد غير قليل، وابتسم، وتجعد شعر ذقنه النابت الأبيض، وأطلت سنتاه الوحيدتان المهددتان في كل لحظة بالانهيار، أطلتا من سعة فمه، وانطلق صوته يقول بارتعاشة فيها زمن طويل:

ـ الجنينة نورت يا سعادة البيه.. دا احنا من زمان..

ورد عليه إسماعيل بك والنوم ما زال يهدج من صوته:

ـ اسمع.. أنت عزقت حوض الياسمين بتاع امبارح؟..

وابتسم عم عبد الله بسنتيه الأماميتين قائلا:

ـ أمال يا بيه..

ـ طيب.. وريهولي..

ومشى إسماعيل بك فوق (المشاية) كلها بينما اكتفى عم عبد الله بالقناة التي بجوارها فراح يخوض في قاعها المبتل، ويبتسم بين الحين والحين ويقول:

ـ من هنا يا بيه.. اتفضل.. الناحيادي.. لا مؤاخذة.

ووصلا أخيرا حوض الياسمين، وتفحصه البيه بعيني صقر ونصف وجهه تظلله القبعة والنصف الآخر تلسعه الشمس، ودار حول الحوض وعم عبد الله يراقبه ببسمة طيبة فخورة كلها ثقة وكأنه فنان يباهي بما صنع.. وضاعت ابتسامته حين توقف البيه عند ركن الحوض، وتملى في أرضه ثم أشار إلى ناحية منه قائلا في اتهام:

ـ دي . . هنا . . ده عزيق يا راجل . .

واقترب عم عبد الله، وحدق هو الآخر بنظره الذي على قده ثم قال:

ـ آه . . دي ريشة الحوض يا سعادة البيه . . ما تتعزقش.

ـ مين قالك . . مين علمك، ايش عرفك . .

وسكت عم عبد الله وهو لايدري بماذا يجيب. وتدلى فكه على قدر ما سمحت به عضلاته المستهلكة وهو يسمع البيه يقول للمرة الثانية:

ـ أيوه . . هات فاس . .

ـ العفو يا بيه . . داحنا . .

ـ ياللا . .

ـ إنما . . دا تعب على سعاد . . .

ـ تعب ايه يا راجل انته . . دي رياضة . . ياللا روح . .

وانطلقت من إسماعيل بيه كلمة (روح) كما تنطلق البندقية وفي أعقابها انطلق عم عبد الله.

والبيه بينه وبين نفسه لم يكن في حاجة لأن يكهرب الرجل هكذا ليستطيع تحقيق الفكرة التي واتته . . وكان ممكنا أن يطلب الفأس ببساطة ويعزق!، ولكنه فعل ما فعل من قبيل التسلية، فمزاجه

يـومهـا كـان رائقـا، وإذا لـم يتسـل على عم عبـد الله فعلى من غيـره يتسلى؟.

وعاد عم عبد الله يجري وفي يده الفأس. وقبل أن يتناولها البيه تردد الرجل لحظة ثم تهته قائلا:

ـ عن.. عن إذن.. سعادتك..

ولم ينتظر الإذن، واندفـع يجري، وعـاد وقد غسـل يد الفـأس وأزال ما علق بها من طين خشن جاف.

والتقط البيه الفأس في رشاقة كما يلتقط عصا (البليـاردو) وقد أحس بخفة تكاد تطير بـه، وشعر بـالريف، والصبـاح، وجو العـزبة، تعيده في سرعة سحرية من السابعـة والثلاثين حيث هـو إلى السابعـة عشرة، بل تكاد تصل به إلى السابعة.

وزرر سـروال (البيجـامـة) ثـم رفـع الفـأس. وكـانت ـ ككـل الفئوس التي في عزبتـه ـ جافيـة فظة لهـا حد عـريض ورأس غليظ. وأنزل البيه الفأس فنزلت على طول حافتها فلم تغور في الأرض قليلا أو كثيرا.

وحـاول عم عبد الله أن يتنحنح فلم يستطع، وقنع بأن يقول في صوت يريد كتمه وابتسامة كبيرة تطل منها سنتاه الطيبتان:

ـ مش كده لا مؤاخذة يا بيه.. لا مؤاخذة اعوجها شوية.

وجاءه الرد من بين ساقي البيه وقد انحنى وظهره إليه:

ـ اسكت أنت. . أنت مالك. .

وارتفعت الفأس، وهوت وقد اعوجت إلى ناحية. وغورت في الأرض هذه المرة. وسر البيه، وتحمس، ورفعها بسرعة وأنزلها، أخذه الحماس. .

ووقف عم عبد الله يتفرج غير مرتاح، فقد كانت هذه أول مرة يرى فيها البيه منحنيا، ويرى فيها سترة (بيجامته) وقد تهدلت، وتهدل ما تحتها، فبان جلده أبيض كاللبن الحليب. ولم يطل حرجه فسرعان ما انفرج فمه، وهز رأسه وتوقف لبرهة ثم عاد يبتسم ويكاد يضحك ويهز رأسه من جديد.

وتنبه عم عبد الله بعد مدة أن وقفته خلف البيه فيها شيء من قلة الذوق فتحرك ليواجهه. وأدرك وهو يدور أن البيه ولو أنه لم يخبط إلا بالكثير عشرين خبطة، قد تعب، فالفأس كانت تغيب حتى يقتلعها من الأرض، وتغيب حتى يقتلعها من الهواء. ولم يعجب عم عبد الله أبدا حين أصبح أمام البيه فألفى وجهه قد صار قطعة من الدم، والعرق يسيل بحورا فوق حمرته، ورأسه لا يقل دما وبحورا عن وجهه، والقبعة كان قد ضاق بها فرماها، وأنفاسه تلهث وهي تسابق بعضها البعض.

وضيق عم عبد الله جفونه الأربعة، وانكمشت التجاعيد في وجهه فاتسعت زميلاتها عند جبهته، واتخذت سيماه طابع الجد. وتقدم خطوتين فأصبح أمام البيه تماما وقال وهو ينحني ويمد يده ناحية الفأس:

ـ عنك يا سعادة البيه . . عنك . . ودا كلام . .

وتسمر في مكانه حين جاءه جواب البيه كالرعد :

أوعى . . امشي . .

ولم يكن لديه وقت ليمشي فيه أو يختفي ، وكذلـك ما كان لديه وقت يستغرب فيه من لهجته، فقد رفع البيه الفأس وهو ينتـزع النفس بكـل قواه، ثم تعلقت الفـأس فوق رأسـه لا تريـد أن تهبط . . وشيئا فشيئا تراخت يده، وقذف بالفأس إلى ناحية . وجلس مرة واحدة .

ولم يستطع الصبر على جلسته فمدد جسده غير حافل بخشـونة الأرض وما فيها من قلاقل وطـوب، وعثرت أصـابعه الممتـدة في كل اتجـاه على شجيرة يـاسمين نابتـة فاقتلعهـا وهو يجـاهد ليمـلأ رئتيـه بالهواء .

وكان عم عبد الله في ذهول تام، فالذي حدث كان كثيـرا عليه أن يواجهه، أو يصنع شيئا حين يواجهه . وكان لا يمكن أن يصدق أن العشـرين خبطة التي خبـطها البيـه يمكن أن تفعل مثـل هـذا في بني آدم .

وذهل أكثر حين لهث البيه ونفس يحييه ونفس يميته .

ـ آه . . ياه . . هنا . . قلبي . .

ـ كفا الله الشر يا سعادة البيـه . . خير . . خير إنشاء الله .

واقترب حتى أصبح بجواره تماما، وانحنى وأمسك يد البيه في

وجل، واستمر يتمتم ويقول:

ـ خير. . خير إنشاء الله.

وكانت طراوة اليد التي يقبلها ويشد عليها غريبة على يده، وجزع عم عبد الله حين رأى ما أحدثته الفأس فيها من فقاقيع انفجر بعضها واختلط سائلها الأبيض. .

وأسبل البيه جفونه وقال في ضعف لاهث:

ـ اندهلي. . اندهلي. . الست. . حـ. . حالا.

واندفعت ساقا عم عبد الله تلفان على بعضهما وتجريان. ولم يكن جري عم عبد الله سريعا، فالرجل قد شاب وتلخلخ وجاوز السبعين من زمان.

ولما رجع لم تكن معه الست وحدها، بل جاءت معها الست الصغيرة، وعبده، وأم حياة الطباخة وكاتب الأنفار. وكانوا كلهم يهرولون، وعم عبد الله يحاول أن يريهم الطريق. ووجدوا البيه مطروحا لا حول له ولا قوة، وعيناه مغمضتان، ويده على قلبه والعرق يغطيه.

وكانت أصواتهم عالية مختلطة تسأل عما حدث وتخمن، وأحس بهم البيه ففتح عينيه وضغط برفق على قلبه وأزاح وجهه إلى الناحية الأخرى وكان لا يزال يلهث حين قال:

ـ آه. . ذبحة. . ذبحة صدرية يا نعمت. . خلاص.

وبهتت الست، وبدأت ذرات العرق تخترق الكريم الـذي فوق وجهها، واقشعرت شفتاها وهي تقول محاولة دون جدوى أن تبتسم :

ـ اخص عليك يا سمسم . . ذبحة ايه يا شيخ . .

ورد عليها بصوت ضعيف كليل :

ـ وحيـاتك ذبحـة . . آه . . قلبي . . جنبي . . دراعي . . دراعي منمل . .

وأجابت الست في لهفة :

ـ دي لازم يا شيخ ذبحة كدابة . .

وكانت الست الصغيرة تقول في نفس الوقت :

ـ مـا تقـولشي كـده يـا بـابـا . . دانت تعبان بس . . دي لازم

وقال البيه في تبرم خافت :

ـ أبدا يا نـاس . . أبدا . . بـزي الشمال . . الحقـوني . . هاتـوا دكتور . . بسرعة . . الحقوني . .

وأسرعت الست الصغيرة إلى الفيللا بينما أشارت الست الكبيرة

وكان صوت الست يرتفع قائلا:

ـ وطي صوتك.. اسكت.. الله.. اسكت..

أما عبده وكاتب الأنفار وأم حياة فكانوا واجمين وكأن على رؤوسهم الأسى.

وخلف الموكب وراءه عم عبد الله والذهول لا يزال مستحوذا عليه، والخواطر تذهب به إلى اليمين ثم تسرع به إلى أقصى اليسار،



٨٣٧

ـ هـه . . قـال بهوات قـال . . أمال احنـا ما بتخـدناش الـدبحة ليه . . دا كان زمان الواحد ادبح . . وشبع دبح .

وهوى بالفأس في ضربة قوية مزقت الأرض . .

مشـــوار

كـانت «مصر» إذا جـاءت سيرتهـا في حديث عـابر يـرتج على الشبراوي، ويرى أنه غير عائش، ويتحسر على ساعة واحـدة يقضيها في القبيسي أو عنـد المعلم أحمد في التـرجمان، ويجتـر شوقـه إلى حفلة من حفـلات النهار في السينمـا الأهلي ويرتـد عقله بسرعـة إلى الأيـام الخوالي التي قضـاها في الجيش حـيث كان يـذرع مصر من مشرقها إلى مغربها كل أسبوع . .

وغالبا ما كان ينهي الشبراوي لهفته وحسرته وشوقه بـأمنية ليس كثيرا على الله أن يحققها، فيهيئ له ظرفا مناسبا، وقرشين حتى يشـد الرحال إليها ويستعيد يوما من أيامه.

وأصبحت الجملة التي يعرفه بها زملاؤه من كثرة ترديده لها:

ـ أبيع عمري على ساعة فيكي يا مصر. .

ولكنـه لم يضطر إلى بيـع عمره، فقـد أتى الفـرج من حيث لا يـدري، ومن باب لم يعمـل له حسـابا قط. فهـو جالس في المـركـز جلستـه منذ أربـع سنوات وإذا بجمـاعة حـافلة تدخـل، وبعـد سؤال

وضجيج اتضح أنها امرأة مجنونة من كفر جمعة ومعها أهلها وأقارب الأهل والجيران، وملأ الصراخ المكان فالتمت الناس وضاق المركز.

ودق قلب الشبراوي في أمل بين ضلوعه فلا مناص من إرسال المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مصر مع (مخصوص)ومن غيره ينفع أجدع مخصوص؟..

ولم تكن ثمة حاجة إلى وساطات أو شفاعات للمعاون. فقد تنصل كل العساكر من المهمة ومن مسئوليتها. وحين تقدم هو إلى المعاون طائعا مختارا انتهى الأمر.

وفي الحال أرسل السواد عنتر صبي البوفيه إلى امرأته يخبرها بسفره وبأن تجهز له لقمة في منديل، وترسل الخمسين قرشا الصحيحة بأمارة ما هي موضوعة في كيس المخدة.

ومضى نصف ساعة..

وأصبح كل شيء جاهزا، وخطاب مفتش الصحة معدا، واستمارات السفر مكتوبة، وليس باقيا إلا أن يضع رجله في القطار ليكون بعد ساعات في قلب مصر.

ولم يكن هينا أن يصدق الشبراوي أن ما حدث كان حقيقة، وأن الأمر انتهى هكذا بسهولة ونعومة، وأنه صحيح سيرى مصر مرة أخرى، ويتفسح فيها، ويركب الترام ويقابل الإخوان والأصحاب، ويتعشى نيفة عند المعلم حنفي.

لم يكن ذلك هينا، ولكنه مضى بخطوات تضطرب بفرحة لا

يصدقها إلى المحطة ومعه ما يزيد على المائة نفر، وكلهم يوصونه بزبيدة وبأن يكون صبورا معها.

وغمزه أبوها بريال، وأعطاه زوجها بريزة، وهز الشبراوي رأسه كثيرا، وابتسم باستمرار، وهو يؤكد لهم أنها في عينيه، وأن يطمئنوا عليها، ويعتبره أخاها من أمها وأبيها.

وكان الموكب وهو يخترق البلدة يسترعي انتباه الناس ويجدون الشبراوي على رأسه فيسأله الذين يعرفونه أين هو ذاهب، وكان يجيب في تواضع:

ـ لحد هنا. .

فيعود السائل يتمحك:

ـ لحد فين. .

فيجيب الشبراوي وهو يزيد من قلة اهتمامه:

ـ كده لحد مصر. .

وكثيرا ما كان يأتيه الجواب:

ـ هنيالك يا عم. .

وتنمل السعادة في أحشاء الشبراوي. .

وبعد انتظار كثير جاء قطار الدلتا. وركب هو وزبيدة، وجلست هادئة ساكنة، وتحرك القطار في أمان الله.

وتحسس الشبراوي الأوراق للمرة الثالثة وقد وضعها بعناية في جيبه الداخلي، ولما رأى أن لا متاعب هناك وأن الحال مثل القشطة، فك حزامه البوليسي العريض، واستراح، وكاد ينسى زبيدة.

وانتهى قطار الدلتا من ركناته وسرحاته ومحطاته التي لا تفرغ، ثم دخل المنصورة كالدودة السوداء الطويلة، وعبر الشبراوي الكوبري، وزبيدة في يده، وهو لا يني عن ترديد:

- بركاتك يا سيدة زينب..

وسأل عن قطار مصر فوجده رابضاً ينتظره، وركب وأجلس زبيدة بجوار النافذة. وجاء بائع الليمون فشرب منه كوبتين في نفس واحد، ومد الثالثة إلى زبيدة، ولكنها دفعتها في تبرم وحنق، وهدهد عليها وهو يتبع الكوبة زميلتيها.

وتحرك القطار والناس فيه آمنون مطمئنون، وزبيدة تنظر من الشباك كالطفلة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة نيئة، والشبراوي تطقق له السعادة أصابعه.

وقبل السنبلاوين استدارت زبيدة فجأة، ثم دبت على صدرها في عنف وقالت وهي تنظر إليه في اتهام غريب:

- يا لهوي..

ونزل الشبراوي مهرولا من جنات سعادته، ورد عليها في انفعال:

ـ مالك ياختي . . مالك يا زبيدة . .

ولم تجبه، وإنما وضعت كفها تحت أنفها، وبأقصى قوتها أطلقت زغرودة خالية من كل هم .

وأعقبتها بسرب طويل من الزغاريد .

والتفت الركاب إليها، وصمتت العربة كلها في دهشة عظمى، وتخلخل الشبراوي وداخ قليلا فلم ينطق بحرف . .

وبعد أن حاول ابتلاع ريقه فلم يجد له ريقا طبطب على زبيدة، ومعلشي ياختي، حقك عليَّ، طولي بالك، اعملي معروف، بلاش فضايح، وكلمتين من كلماته االهادئة، وسكتت زبيدة .

ولكن الركاب لم يسكتوا، بل انطلقت ألسنتهم تعلق همسا على ما حدث . ثم ارتفعت الأصوات . كل هذا والعيون لا تتحول عنه أو عنها .

وسمع بأذنه واحدة تقول :

ـ دي لازم مراته يا ضنايا . .

ورنت ضحكة في آخر العربة، وتنحنح الرجل الجالس أمامه وهو يفيق من غفوته، ووقف طفلان فوق المقاعد يتفرجان . .

وعرق الشبراوي حتى نفذ العرق إلى بذلته الصفراء ومد يده ولم المنديل الذي كان قد فرده ليغير ريقه، ثم عقده كما كان .

وسأله جار لم يعجبه الحال :

ـ هي الست مالها يا شاويش؟ . .

وقال الشبراوي وقد استرد لسانه وإن لم يسترد مفاصله:

ـ أبدا.. ولا حاجة..

وسكت قليلا ثم أضاف:

ـ أصلها

وضم أصابع يمناه ثم حركها في دائرة بجوار رأسه، وهز الرجل جسده كله يؤمن على ما قال الشبراوي وكأنه قد اكتشف شيئا عويصا.

ولم يكن الشبراوي قد كف عن تحريك يده حين استدارت إليه زبيدة وتكلمت بأعلى صوتها ومعالمها مدببة مشحوذة:

ـ ولا حاجة إزاي.. إزاي يا جدع ولا حاجة..

ونظر الشبراوي إليها في جزع حقيقي وهي تقترب بخلفتها من وجهه، وتراجع برأسه حتى ألصقها بخشب العربة واضعا المنديل بما فيه بينه وبينها.

ولكنها أنهت اقترابها منه فجأة، وانتصبت واقفة ثم فتشت سقف العربة بعينين زائغتين وزعقت بكل ما تستطيع:

ـ ولا حاجة إزاي.. يسقط عمدة بلدنا إبراهيم أبو شعلان.. يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك.. يعيش جلالة الملك الريس محمد بيه أبو بطة.

وطقت زغرودة فائرة..

ووقفت العربة على رجل، وطار النوم من عيون النائمين، وأخذ الرجل الجالس أمامه المقطف من تحت المقعد ثم مضى مسرعا. وفي ثانية أصبح لزبيدة والشبراوي نصف العربة، بينما انزوى كل الركاب في النصف الآخر متوجسين شرا.

وغادر العربة نفر قليل من المسافرين بينما أبقى حب الاستطلاع معظمهم.

وأصبحت بدلة الشبراوي كالمغسولة بعرقه. ومد يده يرغم زبيدة على الجلوس وينهي الموقف، ولكنها خبطته على يده، وتأودت وهي تزغرد وتقول:

ـ يسقط عمدة بلدنا. . يعيش جلالة الملك الريس أبو بطة.

وانطلقت ضحكات بائعي الكازوزة والفول السوداني، وجرت وراءها ضحكات المسافرين، ولم يجد الشبراوي مانعا من ضحكه هو الآخر، ولكنه لم يضحك طويلا، فقد فوجئ بالمسألة تنقلب جدا ولاهزل فيه، وروعه من زبيدة أنها مدت يدها، ورفعت ذيل ثوبها تريد أن تخلعه. وكانت ترتدي ثوبها فقط، وهجم عليها يوقفها، ودفعته وهي تزغرد، وقامت معركة.

ولو أنه تغلب عليها آخر الأمر فأقعدها بالقوة وربطها بكوفية تبرع بها واحد من المسافرين، مع هذا إلا أنها كانت قد فعلت شيئا أفقده صوابه، فقد قذفت بطربوشه من نافذة القطار. . الطربوش الذي ظل فوق رأسه من يوم أن دخل الخدمة، وبقيت فروته عارية

بيضاء إلا من شعره القليل القصير.

ولم تهدأ زبيدة حتى بعد أن فعلت هذا، وظلت تطلق الزغاريد وفي كل مرة يسقط العمدة ويعيش الريس.

وقرابة بلبيس كان الهدوء قد أخذ طريقه إلى عقلها وسكتت حتى بدأ بعض الجريئين من الركاب يعودون إلى أماكنهم وكان الشبراوي يمنع نفسه منعا عن قذفها من القطار فقد كان يغلي على طربوشه الذي ضاع أمام عينيه.

واستمر يغلي حتى دخل القطار محطة مصر. .

وانتظر الشبراوي حتى نزل كل الناس ثم شدها بعنف، ولف ذراعه حول ذراعها وجعلها لاصقة بها كالكماشة. ولكنها لم تكن في حاجة إلى كل هذه الشدة فإنها كانت تمشي معه كالحرير المطاوع.

وبهره ميدان المحطة، ولكن الظروف لم تكن متاحة أمام الذكريات لتشغل باله.

وعلى الفور ركب الترام وهي معه أعقل ما تكون، ونزل في العتبة، وخرم على شارع الأزهر واشترى طربوشا بالريال وهو يلعن زبيدة وأباها وفلوسه الحرام.

ولم يسترح إلى الطربوش الجديد فوق رأسه وأحس أنه ثقيل كقطعة الدبش.

وعقد العزم على أن يجعل زبيدة تغور من وجهه أولا،

ويتخلص من مسئوليتها ثم بعد ذلك تكون مصر كلها له وهولها.
واستراح لهذا القرار، وركب الترام والناس فيه فوق بعضهم، وغرق يراجع ما فات من متاعبه وما سيجيء. ولكنه صحا في نصف الطريق يطمئن على زبيدة فوجدها لاصقة بأفندي من الراكبين وفكها قد تدلى في بلاهة راضية، والأفندي منسجم غاية ما يكون الانسجام، ومتشاغل بقراءة جريدة يحملها. وزغدها الشبراوي وهو يشدها بعيدا. وانقلب الرضا الذي على وجهها غضبا وزغردت وسقط العمدة وعاش الريس أبو بطة.

وأوقف الكمساري الترام بلا محطة وأنزل الشبراوي وهو يشبعه لوما وتريقة وتقريعا على ركوبه ومعه واحدة لها هذه الخطورة.

ووجد الشبراوي أنه من المستحسن أن يأخذها كعابي إلى المحافظة. ومشت زبيدة على يمينه وقد صممت ألا تكف عن زغردتها، والتأم شارع محمد علي كله وراءهما وبجوارهما، وكلما كثر الناس علا صوت زبيدة، بينما راح الشبراوي في غيبوبة ووجهه لا يرتفع عن الأرض.

ورأى العسكري الواقف أمام باب المحافظة هذا الجمع مقبلا وفيه زغاريد وأصوات فتوقع حدثا مثيرا. ووقف الشبراوي في يسأله عن طبيب المحافظة. وعرف العسكري الحكاية بخبرته ورثى له فالساعة كانت قد جاوزت السادسة ولا أحد هناك.

وسأله الشبراوي بلهفة:

ـ طيب وبعدين؟ . .

ـ فقال العسكري بكل هدوء؟ . .

ـ تعال بكره . .

ـ بكره؟ . . بكره إزاي؟ . .

ـ بكره الصبح . .

ثم أعقب العسكري جوابه بشخطة فرقت الناس وفي جعبتهم أكثر من نادرة .

وتوسل إليه الشبراوي وهو يسأل إن كان ممكنا تركها إلى الصباح في المحافظة .

وحدجه العسكري بعينيه دون أن يتكلم، وفهم الشبراوي فسحب زبيدة ومضى . ومن هذه اللحظة بدأ يطرق عقله طرف المشكلة، وبدأ يفكر كيف يبيت ومعه هذه الداهية . ولكنه كان متعبا مهدودا ، وله ساعات لم يدخل جوفه طعام .

ودخل أقرب قهوة في باب الخلق حيث جلس وأجلسها بجانبه وكتفه في كتفها . ولم يعبأ أبداً بتحديق الجالسين فيه وفيها ولا بما يقولون . وطلب شايا وتعميرة، وشربهما، وأحس بالخدر يتمشى لذيذا في جسده . وأفاق من خدره على شيء حدث داخله فجعله يتململ ويرتد إلى أقصى الخلف ثم يتلوى إلى أقصى الأمام . وقدر أنه لن يستطيع الاحتمال وعليه أن يبحث في التو عن المكان الذي

يقضي حوائج الناس، وسأل الجرسون وعلى وجهه ألم. وأشار الرجل إلى مكان لا يبعد كثيرا.

ولكن.. زبيدة..

وتلفت حوله، ولم يكن صعبا أن يبدأ حديثا سريعا مع جاره الذي كان يرتدي بالطو وجلبابا بلديا. وعرف منه أنه مخبر في المحافظة. واضطر الشبراوي أن يقص الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم، وأن يختمها راجيا المخبر أن يأخذ باله من زبيدة حتى يعمل مثل الناس ويعود، وما كاد الرجل يقبل بغير ترحيب حتى اندفع الشبراوي وكأنه طلقة..

وحين عاد كانت القهوة قد انقلبت إلى مولد تحييه زبيدة.

وجرها الشبراوي في غلظة بعد أن ألحف في الاعتذار للمخبر ومشى وهو لا يدري أين يذهب. وكان الوقت يمضي والشمس غابت، والأضواء القوية تزغلل عينيه محاولة تذكيره بالذي مضى.. ولكنه كان في عالم آخر.

وظل يبحث في ذاكرته حتى عثر على قريب له من بعيد طالب في الزراعة في الجامعة. وعثر أيضاً في ذاكرته على مكان بيته.

وتاه في الجيزة ساعات فقد كان يعرف البيت في النهار فقط.

وأخيرا استدل عليه. ودق الباب وفتح قريبه، وسلم عليه بحرارة، وأنت فين يا أخي، والله زمان، وإزاي الجماعة.

وقبل أن يدخل في الموضوع زغـردت زبيدة بحماس وكانت ما فتحت فمهـا طول الوقت.

ونظر إليها الشبراوي وتمنى لو كان معه سكين ليذبحها.

ولم يدخل في الموضوع أبـدا، وإنما انسحب في سكـون وهو يروي لقريبه نتفا متفرقة من الحكاية.

وحين احتواه الشارع قال لزبيدة وهو يضغط على ذراعهـا يريـد كسرها:

ـ حاتسكتي واللا أروح فيكي مؤبد.

واستمر يهدد ويتوعد وهي ماشية بجـواره كالأوزة لا تلوي وزي ما تيجي..

وذكره المـؤبد، الذي يريد الرواح إليه بـالقسم. ووجد أنـه حقا أصلح مكان يأويها ويأويه في تلك الليلة السوداء.

والأوتـوبيس، وفي خطوتين كـان أمام الشـاويش النبـطشي في قسم السيدة.

والحكاية أعادها وقد تمرن عليها وحبكها..

وهز الشاويش رأسه في بطء وهو يقول:

ـ دي مسئولية يا حبيبي.. وأنت سيد العارفين.

ورد الشبراوي وغيظه يحترق:

ـ طب حطنا في الحجز . .

وفي بطء قال الشاويش :

ـ برضه مسئولية . .

وحين غـادر القسم كـان يلعن كـل مـا يمت إلى المسئـولية والسائلين بصلة ويكاد يضـرب نفسه وهـو يلومها على هـذه المسئولة التي اندب فيها كالرطل .

وحين كان يسترد أنفاسه لاحت له فكرة اللوكاندة ، ولكنه نبذها في الحال فهما اثنان ، وزبيدة حرمة ، وخطرة ، والحسبة فيهـا بالـراحة خمسون ستون قرشا ، والحكاية على الله .

ولم يبتعد الشبراوي كثيرا فقد تربع أمام جامـع السيدة وجـذبها حتى تهـاوت بجانبـه ، والحيـاء يمنعـه من البكـاء فلم يكن يعتقـد أن إنسانا آخر في العالم له مثل تعاسته ، وبؤسـه . وكان مجـاذيب الست حولهما كالنمل ، وحين زغردت زبيدة ضاع صوتها في تمتمة الشيـوخ وبسملتهم وزقزقة النساء ودوامات الذكر . .

وسر الشبراوي لهذا وانبسط ، فلم يعد فيمـا تفعله زبيدة غـرابة أو شذوذا . وفي الواقع كان هو الغريب الشـاذ بين هذا الجـمـع وكان هـو التعس الـوحيـد كـذلـك . وتمنى أن يفقـد عقله حتى ينجـذب ويسعد ويستريح مثلهم .

ورغما عنه بدأ يخرج من نفسه ومن آلامه وغيظه ويرمق ما يدور حوله . وكان ما يـدور مسليا ، فـلا أحد يسأل الآخر ماذا يفعل أو ينهاه

عن فعله. وانصرف الشبراوي بكليته إلى الشيخ الذي بجواره والذي كان ممددا مسترخيا في موازاة الحائط وقدأسند رأسه إلى ساعده وراح يرقب الناس الغادين الرائحين بلا أدنى مبالاة، وفي وجهه اكتفاء واستمتاع، وكأنه ملك العصر والأوان. . وكان بين الحين والحين يخفض رأسه ثم يرفعها بعد مدة ويحدق في الشبراوي ويقول في صوت ممدود عميق ساخر:

ـ وحد الله . .

فيوحد الشبراوي في سره. .

ثم يغيب الشيخ ليعود ينظر إليه نظراته التائهة الطويلة.

ومر واحد من فوق الرصيف ورمى بعقب سيجارة وجاءت في متناول الشيخ. وفي اتزان واطمئنان وثبات مد الشيخ يده والتقطها، وشد منها نفسا عميقا وأخرج دخانا كثيرا من جوفه وهو ناعم ملتذ، وأطل بنظرة سعيدة على الشبراوي وحلقات الدخان تلهو في بطء حول وجهه وقال بكل ثبات:

ـ وحد الله . .

ولم يتمالك الشبراوي نفسه. وضحك. وتمنى أن يرقد مثل رقدة الشيخ، وأن يكون خالي الهم والمسئولية مثله. وحين مرت المسئولية على لسان وعيه التفت ناحية زبيدة فوجدها تتثاءب. .

وكاد يرقص من الفرحة. .

ولم يـطل بها التشـاؤب وشيئا فشيئـا مضى جسدهـا يثقـل ويستكين، ثم راحت في النوم.

ولأول مرة تملى الشبراوي في وجههـا، لم تكن حلوة، ولكنها كـانت بيضاء، وكـانت صغيرة وأقـدامها فيهـا طين وجـروح وخلخـال غليظ. وكانت في نومتها لا تفترق عن العاقلين.

ولاحظ الشبراوي أن ثوبها مشقوق وفخذها بـائن منه. وخفض من بصره وهو يلم الثوب ويغطيها.

ثم انخـرط في تخـريفـلا يعـرف له أول من آخـر مع الشيـخ حتى نام..

وحين تقـدم الليل، وسكنت الـدنيـا، وتكـوم محـاسيب الست يغـطون بجوار الحـائط كالقـرود التي أنهكها يـوم مشحـون بـالـرقص والنط، كان هو يتسـاءل عما أزال الغضب منـه فلا يجيبـه إلا الشخير الذي كاد يقلق السيدة في مقامها.

وصمم أن يسهر الليل بطوله ولم يكن هذا سهلا فالنهار قد هده والسفر أخذ منه ولم تبق لديه عافية بعد أن امتصت المشغولية وطـول التفكير عافيته.

وطـال عليه الليـل وهو نصف نـائم يـرنـو إلى سـاعـة الميـدان ويستعجل الوقت الذي يتهادى في بطء ثقيل الدم.

وما جاءت السابعة حتى كان في المحافظة ينتظر الطبيب وينش الناس من حولهما كما ينش الذباب وزغاريد زبيدة تلعلع بلا انقطاع.

وأخيرا جاء الطبيب، وبعد كثير كان هو وزبيدة أمامه، وقلب الرجل الأوراق ثم قال وهو يؤشر عليها:

ـ خذها القصر العيني عشان تتحط تحت الملاحظة. .

وأخذها الشبراوي مستسلما وخرج، ومن ترام إلى ترام وصل القصر العيني. وسأل واحدا فلم يجبه، ونظر آخر إلى زبيدة ثم مضى، ودلته تمرجية عجوز على الاستقبال.

واستمع الطبيب إلى زبيدة وهي تهتف بسقوط العمدة وحياة الريس، وضحك كثيرا وهو يسألها فتجيبه وتهلوس وهي تجيب، وكان حين يضحك يرتاح الشبراوي أيما ارتياح، ويطمئن. ولكن الطبيب اتخذ في النهاية طابع الجد وأخبره أن لا مكان لها في قسم الملاحظة. وكتب هذا على الأوراق.

وسأله الشبراوي وروحه تحت لسانه:

ـ وأعمل ايه؟ . .

ـ روح المحافظة تاني . .

ـ تاني!! . .

ـ أيوه تاني . .

وكان وهو خارج يحمل الدنيا فوق قرنه، وفعلا راودته نفسه أن يقتل زبيدة ويقتل الأطباء كلهم ثم يعمل مجنونا وينتهي. ولكن الأمر لم يتعد حدود المراودة البريئة.

وعاد إلى المحافظة وهو يلهث. وقـرأ الطبيب مـا كتب الطبيب وقلب الأوراق مرة أخرى ثم فاجأ الشبراوي بسؤاله إن كان قد أحضـر أحدا من أقاربها. وأحس الشبراوي بغصة وهو ينفي أنه أتى بأحد.

وأخبـره الطبيب أن هـذا ضروري لمـلء استمـارة المستشفى، وأن عليه العودة ببساطة من حيث جاء.

وبهت الشبراوي واصفر وهو يقول:

ـ أرجع الدقهلية بيها..

ـ أيوه..

وضربها الشبراوي في عقله فوجد أنِ هذا أحسن حل..

ولكنه تنبه إلى أمر ذي بال فقال للطبيب:

ـ مش ممكن يا بيه.. دانا معايا استمارة رجـوع واحدة بس.. بتعتي..

ـ يابني لازم حد من قرايبها..

ـ أنا في عرضك يابيه..

ـ يابني دي مسؤولية ما اقدرش أتحملها..

وكانت مرارة الشبراوي قد انفجرت من هذه المسؤولية. وقبل أن تتولاه ثورة يحطم معها كل ما أمـامه قـطعت زبيدة الحـديث بزغـرودة رطبة، وفي أقل من لمـح البصر خلعت ثـوبها المهلهـل، ثم اندفعت خارجة فجأة، وجرت في حوش المحافظة والكل مـذهول قـد عقدت

٨٥٥

الدهشة أيديه وأرجله.

وكـان الشبراوي هـو أول من جرى وراءهـا بكـل مـا يملك من قوة. وحلق الناس والمساجين والعساكـر عليها، وأفلح الشبـراوي في الامسـاك بهـا فتملصت منـه وهي تهتف بسقـوط العمـدة، وعضتـه، وصـرخ الشبراوي ثم هـوى على وجهها بكفـه وسـال الـدم من فمهـا وأسنانها. وأعيدت إلى غرفة الحكيم وهي تهتف وتتمرد وتزغرد.

وجاء قميص الكتاف وتعاون أربعة على إدخالها فيه.

وتـدحـرجت زبيـدة على الأرض وهي تحـاول التخلص والـدم يسيـل فيلون أسنانهـا ووجهها وشفتيهـا، واللعاب يصنـع الزبـد حول فمها.

وحرر الطبيب الاستمارة على عجل، ووقف الشبـراوي مبهوتـا يرقبها، وينتفض بدنه مما تفعله في نفسها. .

وذهل وهو يكتشف بعدما وضعت زبيدة في قميص الكتاف أنها مجنونة، وأنها لا تفقه مما تقول حرفا، وليس لها ذنب فيما قاساه، ثم انها لم تأكل ولم تشرب وهي معه ولا حتى حين كانت في البلد.

وشعر بشفقة غريبة تدب في نفسه وهـو يراهـا تتدحـرج وتخبط رأسها في الأرض وتتلوى.

وقال له الطبيب: خلاص. .

وانتهت بذلك مهمة الشبراوي ومسئوليته.

وكـان يخيل إليـه أنه سيحيي ليلة لـوجه الله إذا انتهت مهمتـه، وتخلص من زبيدة ومصائبها، ولكنه تلقى الخبر وكأن غيـره هو الـذي يعنيه الخبر.

وجـاءت العربـة وأركبوا زبيـدة فيها وهي تـزغرد وتهتف بحيـاة جلال الريس والناس كلهم يضحكون.

وتحرك الشبراوي كالمطعون ورجا السـائق أن ينتظر دقيقـة، ثم جرى واشترى رغيفا من الفينو وحـلاوة طحينية، وأعـطاها للعسكـري الذي يرافقها وهو يقول له في رجاء حار:

ـ والنبي توكلها وتخلي بالك منها.. اعمل معـروف وحياة اللي ماتو لك تتوصا بها..

ومضت العربة..

وتسلل الشبراوي من المحافظة إلى المحطة مباشرة وقد شبعت نفسه من مصر ومن الدنيا.. وبين الآونة والأخرى كان يلمح كفه التي ضرب بها زبيدة فيقشعر جسده بخجل لم يحسه في حياته..

بصـــره

ـ آه . . أهو جه . .

ـ ليلتك سودة يا مليم . .

ـ أما حتبقى حتة ملعبة . .

ـ دي حتبقى مدعكه . .

ـ شد حيلك يا حمودة وهات لنا أجله . .

ـ أهو دلوقت تحلى الفرجة ياولاد . .

ومضى الجالسون في القهوة يتقاذفون التعليقات وهم يتسمعون إلى الضحكـات العاليـة التي تترى من الخـارج، وقـرقعـة الصفـائـح الفارغة، ودبيب الأقدام الثقيلة التي تجري وكأنها أقدام فيل.

وظهر (مليم) السقا في النهايـة، ومقهقها صاخبا لاعنا أبا الدنيا ومن تهمه الدنيا كعـادتـه، ووضع صفيحتي (الجاز) الفارغتين والعصا التي فيهـا الخطاطيف فـوقهما، وضحكت عينـاه لكل المـوجودين في سخرية خـالية من الهم، ثم انتحى كـرسيا نـائيا جلس عليـه، ووضع

ساقا فوق ساق، وصفق بيديه كأحسن زبون، فتعالت الضحكات لجلسته وتصفيقه.

وجاء نبقة (الجرسون) يلبي الطلب في احترام مصطنع، وزغده المليم وهو يأمر بواحد شاي بالحليب وكرسي دخان.

وعوى فيه وهو يقول: خلي بالك من الكرسي.. فاهم..

ومضى نبقة عنه سريعا وهو يغني في صوت روتيني ممدود:

ـ صلي عالنبي.. تكساب..

وكأن جلسة مليم قد حلت عقد الألسنة كلها فانهالت عليه لاذعة متفكهة، بادئة بقدميه الكبيرتين العريضتين على قصر وقد جمعتا كل ما استطاع حفاؤهما جمعه من طين، وصاعدة إلى ساقيه العاريتين الوارمتين بالعضلات وكأنهما فخذا كندوز، ثم قميصه الذي كان هو كل ملابسه وقد تحزم عليه بقطعة بالية من شبكة صيد فجعل له (عبا) تدلى له القميص فوق ركبيته الخشنتين المشققتين. ولا تهدأ الألسن حتى تتمرغ فوق صدره الموشوم عليه فتاة تمسك بيديها سيفا وتختنق تحت غزارة شعر صدره الكثيف الشائخ. وتمتد اللذعات إلى وجهه واصفة إياه بالرغيف المحروق، وقعر الحلة الأسود، ثم تصل إلى صلعته التي كانت الشيء الوحيد الأبيض الماسخ فيه.

كل هذا ومليم جالس لا تخدش النكات جارحة فيه، وإنما هو حكم عدل بينها، يستعذب الحلوة ويستملحها، ويفرق بين السخيف والجديد فيها، ولا يسب صاحب البائخة، ولا يمدح قائل الجديدة،

إنما يضحك فقط إذا أعجبته النكتة. وكانت ضحكاته من نوع فريد.. كانت فيها طبول ودفوف وقرقعة صفائح ثم ذيل طويل رفيع يختمها به..

ولما بدأ ضحك الجالسين يهمد، وقلت نكاتهم وقدمت، لجأ مليم إلى الحيلة التي يلجأ إليها دائما ليضحكهم، فوضع قروشا في حلقه حتى وصلت زوره، ولا يدري أحد كيف كانت تصل إلى زوره، ثم دق على رقبته فشخشخت القروش، وضحك، ولم يملك الناس حينئذ أنفسهم..

وأخيرا هدأت العاصفة .التي. أثارها مليم بدخوله، وكان المغرب قد حل، وبدأت العربات المارة في الشارع تضيء مصابيحها، وكان نبقة قد رش ما أمام القهوة بالماء، وفتح الراديو على آخره ليجتذب الزبائن، وأشعل الكلوب وعلقه، واستوت شالية النار في الخارج فأدخلها وكلها بصابيص متوهجة ووضعها بجوار (النصبة) وغطى نارها بالرماد لتعيش وتكفي السهرة. وكان المعلم قد اتخذ مكانه أمام البنك وطلب فنجال القهوة السادة، وأمر نبقة بتغيير ماء (الجوزة) ليستطيع أن يشرب كرسي المغرب.

وكان حمودة جالسا بجوار المعلم وقد أمال جسده قليلا في حفز، فمنذ الصباح والكل يتحدث عن اللعبة التي ستقوم الليلة بينه وبين مليم، والكل يستعد ويتنبأ.

وقال له المعلم وهو يمد الغابة إليه، فتناولها، وجذب نفسا قصيرا، وأخرج الدخان، ثم أراح ظهره على ظهر الكرسي محاولا

بجهد أن يلد واحدة من ابتساماته، وكان يستعمل ابتساماته دائماً لإخفاء ما به من تعب. وهو في الحقيقة كان يتعب، ومع أنه كان رجلا طويلا عريضا إلا أنه كان يعمل صبيا لموقف العربات. وكان ينغرز اليوم بطوله في الشارع، والشمس في نافوخ رأسه العالي المهدل الشعر، وعينه الحولاء التي فيها بياض كثير زائغة هنا وهناك علها تلمح راكبا، وحنجرته الراقدة كالقبوة لصق عنقه تهتز وتتعالى وهو يجأر قائلا:

ـ اللي رايح شبين. . شبين والكفر. بتلاتة ساغ لشبين.

وكان يقضي اليوم هكذا ينادي على الناس ويشحن العربات، ويتشاجر مع السائقين على (الفية)، ويسب الركاب والموقف والعفاريت الزرق، ثم يخرج آخر النهار بصوت ما عادت البحة تؤثر فيه، وبجاكتته التي كانت قميصا من مخلفات الجيش وقد ارتداها فوق جلبابه الذي كان له لون ذات يوم، وبجيب القميص الذي على صدره وقد عمر بالقليل من النقود. ويخرج آخر النهار بهذا كله إلى القهوة، وقد يخرج إلى المركز، وقد يسافر في عربة ليشحن دور الفجر في شبين، وقد لا يخرج بشيء على الاطلاق. .

سأل المعلم حمودة عن الحال. وسكت حمودة قبل أن يقول انها مثل اللبن، وحاول المعلم أن يقيس ما في سكتته من طول ليعرف ما في جيبه من نقود، ولما اطمأن المعلم قال وهو (يخمن) الكرسي:

ـ الواد مليم بيتحنجل. .

وابتسم حمودة، وحدق في المعلم بعينه الحولاء وقال في اشمئزاز:

ـ دابن (. . .) هو مش حيسكت إلا أما أدبوا عشرتين. .

وجاء الدور على المعلم ليبتسم فتبين سنته الأمامية المطلية بالبلاتين ونفض ما علق في بلغته من تراب وهويقول:

ـ حلو. . آدي الجمل وآدي الجمال. .

وكانت أسماع الجالسين حول المعلم قد اجتذبها الحديث، وأصاخت، فاستعذبت الحديث، وعلا صوت حمودة وترددت صيحته بين جنبات القهوة وكأنه ينادي على الركاب قائلا:

ـ والنبي لما يكون ابن جنية. . دانا أكله. . دانا مضيع عليها شبابي. .

وتلفت الجالسون يبحثون دون وعي عن مليم فلم يجدوه، وارتفعت همساتهم تتساءل. وأراحهم المليم حين أقبل بعد قليل وقد ملا دور الماء للقهوة. وتحولت الأنظار إليه وهو يتمخطر تحت عبء الصفيحتين الممتلئتين واحدة تجذبه بثقلها والأخرى تدفعه، ورجلاه تنتفخ عضلاتهما وهما تأخذان طريقهما بين الصفيحتين في حنكة وخبرة وقوة.

وقهقه مليم لما رأى نفسه محطا للأنظار، ورقص بالصفائح.

وأعجب نبقة رقصه فاتخذ البوفيه طبلة وراح ينقر، وساح

المليم رقصا وقد ترك العصا ترتكز وحدها على مؤخرة عنقه بينما يده قد ارتفعت إلى فوق، والأخرى قد وضعها في وسطه.

وابتسم المعلم، وانفرجت أسارير حمودة، وانهالت اللعنات والألسنة تهري مليم، ثم سكتت الضجة قليلا حين علا صوت المعلم:

ـ اسمع يا واد يا مليم.. فيكشي عشرتين بأربعة صاغ..

ورد مليم وهو لا يزال يرقص:

ـ أربعة ساغ.. أربع برايز.. أربع وقات.. أربعة النينو كوانينو. كله ماشي يا معلم.. ما يهمكش.. ملعون أبو الدنيا وملعون أبو. ملعون أبويا.. هأوو..

وتوالت الأحداث مسرعة..

فحالا أعدت أحسن منضدة أمام حمودة، وكانت هي الوحيدة التي لها سطح من الأبلكاش الناعم لولا بعض الحفر السوداء التي صنعتها بقايا السجائر والبصابيص فيه. وتولى الجالسون أمر الصفيحتين فأنزلوهما وأفرغوهما في الزير الراقد بجانب النصبة.. وتولى آخرون دفع المليم وهو يتدلل ويصدر كل الأصوات التي تجيء على خاطره من فمه ومن أنفه على حد سواء، والكل يعرف أنه في لحظته تلك أسعد خلق الله لأنه سيلعب وما أدراك ما هو المليم حين يلعب؟..

وما أن استوى مليم في مكانه حتى تلفت حوله ثم دق المنضدة

بجمع يده وهو يقول كالأسد:

ـ أجدع كوتشينه يا وله . .

وعاد نبقة مسرعا بالكوتشينة الوحيدة الجديدة في القهوة، وما كانت جديدة، بل كان المعلم يحضرها من نادي الموظفين حيث يلعبون بها البوكر ليلة أو ساعة من ليلة ويتركونها جديدة أو تكاد ليشتريها المعلم وأمثال المعلم.

وألقى نبقة الدستة بدراية فجاءت كما أرادها وسط المنضدة تماما. وسرعان ما امتدت إليها يد المليم فأخرجها من العلبة، وقبلها وهو يلعن أباها ويقهقه، ثم يبلل إبهاميه بالكثير من لعابه وعدها بطريقته الغريبة السريعة والأنظار كلها بين أصابعه، ثم فنطها وجعل وسطها في طرفيها، ثم جعل طرفيها في وسطها ووضعها وهو يدق المنضدة في قوة ويقول لحمودة في تحد:

ـ اقطع . .

وكان حمودة ينظر إلى حركاته في اشمئزاز ظاهر وليس بينه وبين صفعه إلا قراريط معدودة، وقبل أن يرد على تحديه وقف نبقة كالزوال ووضع يده فوق (الكرت) قائلا:

ـ عايزين ايه . .

وطلب حمودة شيشة، وطلب المليم كازوزة بالثلج، ولم يتحرك نبقة إنما قال:

ـ كمان طلبين تانيين . . دي الكوتشينة الجديدة يا عالم.

وحدق فيه الاثنان دون أن ينطقا بحرف، واستدارت نظراتهما

إلى المعلم تستنجده ولكنه هز رأسه مؤمنا على كل كلمة قالها صبيه، وفي استسلام طلب كل منهما مشروبا آخر.

وأيضا لم يتحرك نبقة إنما قال في لهجة حاسمة:

- ايدكو عالتأمين..

وفي تهور أخرج مليم قرشين من ظرف جواب قديم كان يضع فيه كل ما يملكه من نقود، وكان يدسه دائما بين طيات حزامه.

وفي بطء وامتعاض استخرج حمودة شلنا ورقا من جيب قميصه ورماه بقلة اكتراث على الطرابيزة.

وفرق مليم..

وبدأ اللعب..

* * *

بدأ اللعب في هالة من الصمت الجاد لفت اللاعبين ثم اتسعت حتى قتلت كل الهمهمات التي كانت تنبعث ممن حولهما. ولم يكن هؤلاء كثيرين، وكانت نفس الوجوه التي يسيل عرقها كل مساء ويلمع تحت سطع الكلوب وهي تحملق في الأوراق التي على الطرابيزة، والتي في أيدي اللاعبين. وكان الجالس على يمين مليم، والواضع كتفه فوق كتفه حتى ليكاد ينحيه عن كرسيه، كان عبد الودود، وهو رجل لا هشة له ولا نشة، له ثلاثة قراريط يزرعها فجلا وطماطم، ومزاجه الذي يؤرقه أن يجلس في القهوة يراقب اللاعبين،

ويزجر هذا في لطف وضعف لأنه يغالط، ويناصر صاحب الحق ان كان هناك صاحب حق. وكان كعادته يلوك في فمه متلذذا حبة نعناع فهو لا يدخن ولا يحشش ولا يشرب الجوزة إلا معزوما، ومع ذلك فقد كان حريفا كبيرا، ولكنه تاب عن لعبها حين أقسم من عام مضى بالطلاق ألا يلعبها، ولم يحنث في قسمه، واكتفى أن يجلس جلسته تلك إذا ما انتصب المجال، ويهتف في فرح للعبة الحلوة ويمصمص حبة النعناع لكل لعبة تفلت.

وكان مصيلحي يجلس بجوار محمد ويزاحمه محاولا أن يجد له منفذا إلى المنضدة، ومصيلحي كان تلميذا في المدارس، صغيرا إذا ما قورن بالكبار الجالسين حوله، ولكن ذلك لم يمنعه أن يكون أكثرهم نقودا في بعض الأحيان ولم يحل بينه وبين أن ينازل واحدا منهم في كثير من الأحيان، وكأنه كان يجد في الكوتشينة والقهوة سحرا خاصا يجذبه بعيدا عن أصدقائه ولداته من التلاميذ أمثاله، فكنت لا تراه إلا جالسا في القهوة بجلبابه النظيف، لاعبا إن كان هناك مجال للعبه أو متفرجا متحمسا إن عز المجال.

ثم كان هناك الشافعي وأبو الخير وعبد ربه وهم أنظف الموجودين من كل ما يمت إلى المعاملة بصلة. كان لا عمل لهم في القرية فموسم العمل قد انتهى فكانوا يأتون كل يوم إلى البندر علهم يجدون عملا، وكانوا لا يجدونه، فتلمهم قهوة المعلم بلدياتهم، وكثيرا ما كان يزجرهم، وغالبا ما كان يتركهم حين كان يجد لأكتافهم البلوطية وأذرعهم البرية عملا عنده، وكفاهم ثمنا أن يجلسوا على

القهوة.

وكانوا هم الآخرون يزاحمون ويبحلقون، وتعلموا الكوتشينة من كثرة ما زاحموا وبحلقوا، وكان حلمهم الأكبر أن تفضي دستة قديمة تآكلت أوراقهاوتمزقت‌حتى ينتحي بها أبو الخير وعبد ربه جانبا ويلعبا، ويعد لهم الشافعي الأبناط، فمع أنه كان أضعفهم بنية إلا أنه كان الوحيد الذي يستطيع أن يعد حتى يصل المائة.

وانتهت العشرة الأولى..

ومع أن الأولى ليست دائما بذات قيمةٍ، وكل واحد يحاول فيها أن يختبر حظه ويتعرف مهاوي زميله ويريح التوتر الذي في أعصابه والذي سبق اللعبة، مع هذا إلا أن المليم حمرق، وأصر على أنه هو الغالب.

وسواء كان غالباً أو مغلوباً فقد كان له إصرار عجيب على أنه الغالب حتى يلومه الموجودين كلهم ويقنعوه بأنه المغلوب. وكان يوافق حينئذ على مضض كأنه مظلوم مهضوم.

وهكذا لعب مليم، فمع أنه كان حريفا لا بأس به، ويجيد (الدق) والاستدراج والتفنيط إلا أنه كان يعتمد، أكثر ما يعتمد، على الضجة التي يصنعها، والإهانة التي لايني عن توجيهها لخصمه، ومع هذا فقد كان الكل يعجبون لخارق عاداته، كان يكفي أن يضع أوراقه بين سبابته وإبهامه ليعرف كم زوجا ناقصا على أخذ الورق، وكان ماهرا في دس الأولاد والعشرة الطيبة والورق الثمين لتكون من

نصيبه. وكان يفعل هذا ويخفيه بزعيقه وغلبته، وهزة وسطه، وملايين الصلاة على النبي، ووحدوه، التي يجأر بها بين كل لحظة وأخرى.

ويا سلام لو جاءته بصرة.. كان يقف نصف وقوف ويزغرد أو أن كان متحمسا يستعجل فيصرخ، ثم يدب الورقة بكل ما يملك من قوة على الطرابيزة قائلا: بصره.. شاهدين..

وغالبا ما كان هذا يدفع الغضب إلى زميله، ويشوش تفكيره، فلا يستطيع أن يحسب ما فات من أوراق أو أن يخمن ما سيجيء، وحينئذ يضطرب ويلقي له بأي ورقة فإذا بها بصرة ثانية..

وكان حمودة أتعس خصم لمليم، فهو ليس صاحب كلام كثير، وإذا تكلم خرج كلامه سريعا موجزا كأنه طلقات مدفع سريع، وما أقرب ما يغضب، فيمط وجهه حتى يصبح طويلا كاللبانة الممدودة، وتتنافر عيناه، ثم تتوالى الطلقات من فمه، ويثور.. كان هذا حمودة على طبيعته، أما حين كان يلعب مع مليم فكان حينئذ لا يتكلم، ويكسو وجهه قناع متحفظ جامد، فقد كان يرى أنه بلعبه مع مليم انما ينزل عن مستواه، فهو ابن عيلة، ومليم هذا لا يعرف أحد كيف جاء إلى البلد ولا من أين جاء، فقد أصبحوا يوما ووجدوه بينهم، وما زال كما كان يوم جاء صائعا هلفوتا، يملأ صفائح الماء للمحلات من حنفية المجلس البلدي، كل صفيحة بمليم، وينام حيثما اتفق، في القهوة حينا وفي الخرابة التي وراءها حيث يقوم السوق حينا آخر. صحيح أنه يقول أنه من الغربية، ويهدد كل يوم بترك البلدة والذهاب إلى أهله في بلاد العز، ولكنه لم ينفذ تهديده أبدا..

ثم ان حمودة متزوج وله بنتان أما هذا فلا زوجة له ولا ولد وإنما هو يلف تارة مع فيفة السبارسية وأخرى مع أم الشحات العجوزة صاحبة الغرزة.

وحمودة كان يرى نفسه متعلما فقد قضى عاما في المدرسة الالزامية، أما مليم فأين تعلم.. انه أمي جاهل لا يجيد إلا الرقص والدق على عنقه حتى يشخشخ.

من أجل هذا كان حمودة يعامله بحرص، وإذا ضايقه مليم بصراخة وجعجعته كان يلقي عليه نظرة بجانب وجهه الذي فيه عينه، ويكز على شفته ثم يسكت..

وعلى هذا اشتد الخلاف على العشرة، وكان المتفرجون يقولون ان حمودة هو الغالب، وكانوا يقولونها في قسوة ليست غريبة عليهم، فهم يخذلون المغلوب مهما كان المغلوب، ويشيع فيهم سرور وحشي وهم ينهشون كل ما يبذله الخاسر من محاولات يائسة للنيل من انتصار زميله. واستسلم مليم في النهاية بقحة غاضبة وهو يزأر ويموء غير موافق، وطالب أن يولوا الحساب واحدا له ذمة. واقترح الجالسون «الأستاذ» مصيلحي، ووافق اللاعبان وكل منهما يمدحه بكلمة. وانتشى مصيلحي وقد أسعده أن يرتضوه حكما وأمينا..

ودار اللعب..

كان مليم يمسك الأوراق متقاربة ويكاد يلصقها في صدره، ولا

يفتحها إلا بحساب. وكان يراقب حمودة في دقة وحذر وهو يفرق، ويفتش الورق في كل مرة (يقش) فيها حمودة ولا يطمئن إلا إذا رأى الولد بعينه.

وكان لا يكتفي بتفنيط حمودة فيمسك الدستة ويكاد يمزقها تفنيطا لولا زغرات المعلم التي توقف كل شيء عند حده.

وعلى النقيض، كان حمودة يمسك أوراقه مفرودة مبعثرة في غير اعتناء فيعطي مليما الفرصة لكي يعرف أوراقه بنظراته المختلسة المتلصصة. وكان لا يجاري مليما في شكوكه وظنونه السوداء، إنما كان مخه هو الذي يعمل فقط، فهو يحسب كم ثمانية تبقت، وهل انتهت السبعات أم بقيت الكومي، وساعات كان يغلبه طبعه فإذا بدا أن العشرة سيخسرها كان يتصنع الغباء، ويبدأ في العد من جديد، ويناكف ويغالط ولكن بغير ضجة أو ضوضاء.

وكسب مليم العشرة الثانية..

وتنهد الجالسون في ارتياح، فمعنى هذا أن تستمر اللعبة.

وسكت حمودة فلم ينطق بحرف، ولم يهدأ مليم فقام ورقص هنيهة وهو يزعق بملء صوته ثم جلس.

وعلى ذلك أصبح كل منهم مغلوبا في عشرة، وبدأوا يلعبون عشرة أخرى ليتخلص أي منهم من غلبه ويصبح الثاني مغلوبا في العشرتين.

وهكذا بدأ التطبيق..

٨٧٠

ومعه بدأ الحماس، حماس المتفرجين، فالتطبيق يكون عادة أحمى من العشرات الأولى، ففيه سينجلي من يتحمل الحساب وحده.

وكذلك بدأ حماس اللاعبين، وإن كان يشوبه بعض الاطمئنان فعلى فرض أن أحدهما خسر العشرة، فله أن يلعب عشرتين «فرق»، ولا يستطيع الجالس أمامه أن يقوم إلا إذا غلبه مرتين متتاليتين..

وهكذا، فالأمل ممدود، واللعبة بدأنت تزهو، والليل طويل، ولا شيء يعدل ما هم فيه من لذة محمومة.

ودور في الثاني في الثالث راحت العشرة، وأصبح اللعب كله عند مليم، ولم يحزن، ولم يثر، وكذلك لم يضحك أو يرقص، بل اندفع على الفور يقول بصوت هادئ وفي عينيه ألف عفريت:

ـ الفرق..

وابتسم حمودة ابتسامة صفراء وهو يقول بصوت فيه نخوة وعدل:

ـ اديك فرق زي مانتا عايز.. أصول لعب.. والـلا ايه يا اخوانه.. ماتقولوا..

ويزوم الإخوان، وتتمشى بينهم موجة أمل وفرح، وتصبح الموجة عاصفة حين يقول مليم وهو يطلب المشروبات على الفرق:

ـ أنا مش عايز حاجة.. شوف الرجالة يشربوا ايه يا نبقة.

ولا يتخلف حمودة بل يسرع قائلا :

ـ هات لي كرسي دخـان . . وهات لـلأستاذ حـاجة . . والمعلم تعميره . .

ويتهلل الجالسون المتفرجون وقد حانت لحظتهم، ويطلبـون، وينتقون ويوصون، ويعرفون أن فائدة الفرجة قد هلت . .

ويبدأ اللعب في عشرتي الفرق . .

ولهذا تنظف المنضدة . ويزيح حمـودة عبد الودود الـراقد فـوق كتفـه، وتتخلخل الكـراسي وتتباعـد، ويتقارب بعضهـا، ويسود غيـر قليل من الهرج والمرج . .

ويغمز المعلم لنبقة، ويأتي نبقة كـالزوال، ويمـد يده، ويلعب أصابعه دون أن ينطق حرفا . .

ويدق مليم على زوره وهو يضحم ورقبته تشخشخ، ثم يخـرج من فمه أربعة قروش . .

ويبدأ اللعب وقد قل الضحك، وزاد التـربص، واشتدت رقـابة مليم على أصابع حمودة، بينما الأخيـر قد أدرك أن مليمـا يرى ورقـه فحاول أن يحتفظ به مضموما مخفيا، وسرعـان ماسهـا عن محاولاتـه فعادت أوراقه إلى ما كانت عليه . .

* * *

كان الراديو قد انتهى، وعزف السلام ومضت بعد هذا سـاعة،

وكان نبقة قد أتى بالمقاعد من الخارج ورصها صفوفا بجوار الحائط، ثم لم ضلف الباب الأربعة وأغلق ثلاثا منها. وكان الكلوب ما زال يوش ويهمس وإن كان نوره قد ضعف، وكان مليم وحمودة جالسين جلستهما، والورق مفروشا أمامهما، والمتفرجون قد تسرب النوم إليهم فقاموا ولم يبق إلا الأستاذ ماسك الحساب. وعند البنك كان المعلم يحاسب نبقة، وكانت هناك خمسة قروش ناقصة، وكان الصبي رابضا على الأرض عند قدمي المعلم مسندا ظهره إلى الحائط محاولا أن يلم في رأسه كل الطلبات «الشكك» التي أخرجها، وأن يجد بينها الخمسة قروش. وكان المعلم مريحا رأسه على البنك ووجهه إلى نبقة، ويكاد يغرز الماشة التي أمامه في عينيه، منتظرا نتيجة محاولاته على جمر خبيث. .

والذي حدث أن نبقة لم يتذكر، وإنما فوجئ هو والمعلم بصوت مليم يوقظ القهوة من سكوتها، ويهتف كأنما زال عنه الطاعون:

ـ راحت. .

ـ راحت ايه يا حلوف.

وقبل أن يتحرك المعلم كانت المنضدة قد قلبت، وبعثرت الكوتشينة على الأرض، وكانت يدا حمودة حول رقبة مليم ضاغطة عليها.

ولم يتحرك المعلم، وإنما حدق كالصقر وقال:

ـ بس يا بهيم أنت وهوه . .

وفي نفس واحد، وفي كلمات ملتهبة متلاحقة، قص كل منهما قصة تختلف عن الأخرى تماما، ولم ينس كل واحد منهما أن يستشهد بالأستاذ . .

ولم يقل المعلم شيئا إنما ظلت عيناه محدقتين في ثبات مريع. وسكت الاثنان، ثم انحنيا يجمعان الأوراق المبعثرة ويعيدان المنضدة والكراسي إلى حيثما كانت، وفي هدوء ساكت جلس مليم وقد أقر بغلبه، وكان معنى هذا إن اللعب قسم، ومعناه أيضا أن هناك «تطبيقاً» على كل اللعب، وأن هناك فرقا بعد التطبيق.

وأخيرا غض المعلم من بصره، وقال ولهجته ونظراته وبهتان ابتسامته تعني جميعها عكس ما يقول:

ـ ما كل واحد يشيل النص . . وننتهي يا سيادنا . .

وهب الاثنان في نفس واحد يرفضان. كان عند كل منهما الأمل أن يخرج من اللعب سليما، وأن يقضي السهرة ويسقي المشاهدين وأصحابه على جيب الآخر، ثم يتندر بانتصاره أمام الرواد أسبوعا أو أسبوعين . .

وقال المعلم وقد انفثأ غضبه وكأنه يسلم بالقضاء والقدر:

ـ على كيفكو . أنا معاكو يا سيادنا لآخر الطريق . . أما نشوف . .

ثم أكمل وكأنه كان ناسيا:

بس ايدكو عالتأمين . .

وأخـرج مليم كل مـا معه وأحصـاه فـوجـده ينقص عن التـأمين نصف قرش، واحتار قليلا ثم أخـرج علبة سجائره من عبه وأخـذ منها السيجارتين الباقيتين وأكمل بهما التأمين.

أما حمودة فلم يكن قد بقي معه شيء فـأخرج من جيبـه مطواة لها سلاح طويل، وناولها للمعلم. وأخذها الرجل وتفحصها، وفتحها وقفلها وعين حمودة تبرق وهي ترقبه بينما مليم هاجع ساكن.

وقال المعلم وهو يهز المطواة في يده: ما تكفيش . .

ـ ودين النبي أنـا شاريهـا من طنطا بخمستـاشر سـاغ يـا راجـل حرام . .

وقال المعلم مرة أخرى: ما تكفيش . .

وخلع حمودة قميصه، واكتفى المعلم . .

واستأنفا اللعب . .

كـان نور الكلوب قـد شحب كثيـرا، وكـان «الأستـاذ» ليس في عينيه ذرة نوم، وحماسه لم يفتر لا للعب، فما كان هناك لعب، إنمـا للعمى الذي أصاب اللاعبين فأصبح كل منهما يسرق سرقات ساذجة مكشـوفة ومـع ذلك لا يـراهـا زميله، وكـل منهمـا يـرمي البصـرة ولا

يلحظها الآخر أو يشعر بها. وكان «الأستاذ» عن كل هذا ساكتا لا يفتح فمه.

وانتهى المعلم من حساب نبقة وخصم القروش الخمسة من يوميته، وانتحى ركنا وجلس يلتهم العشاء الذي أحضرته له امرأته من المغرب بعد ما عزم بفتور على الجالسين. وبعد أن غسل يديه جلس ينتظر نهاية اللعبة ويسمع ما يدور..

كان حمودة إذا سبق يشم نفسه ويقول:

ـ العب يابو صفايح يا نتن.. والنبي مانا مخليك تعرف وشك من أفاك.. والنبي لمتوبك عن مسكها..

وكان مليم إذا اجتاز حمودة بأبناط قليلة يصرخ، ويزغزغ نفسه، ويقلد الديكة والمعيز والحمير، ولا يرد إلا بقوله:

ـ كله ماشي.. كله عال.. صلي على سيدك.. أهي دي تاكل دي.. ودي تروح مع دي. يا سلام يابو الملاليم.. والنبي حقيتك تبقى نص ريال.. بصرا..

يقولها ملء فمه، وملء قوته، ولا يسكت إلا حين يناوله المعلم كلمتين كاللكمات.

ولما قاربت العشرة على الانتهاء جاء الرجل بنفسه وجلس يشهد ويراقب ويحكم.

وخسر مليم فأمسك بالمنضدة في قسوة وأربدت ملامحه وقال:

- إزاي . . إزاي . . احسبوا تاني . . مش معقول . . احسب ياسي أستاذ .

غير أن شهادة المعلم الواثقة الخافتة المطمئنة جعلت غير المعقول معقولا .

وبانت الهزيمة على مليم حين قال بصوت غليظ :

- العب الفرق يابن (. .) .

وكان الفرق يعني تأمينا جديدا . وقال مليم للمعلم بصوت منخفض متوهما أن حمودة لا يسمعه :

- خلي التأمين بأجرة الشهر الجاي . .

وهز المعلم رأسه قائلا :

- ما ينفعش . . هو حد عاش . .

وكأنما أهان رده مليما ، فقال بكبرياء ضعيفة مجروحة :

- يكفيك الصفايح يا معلم . . خدهم . .

- الاثنين بستة ساغ . .

وبحلق فيه مليم ولم يقل شيئا ، ولكنه مد يده يفرق . ولكي يخلص المعلم ذمته من الله أخرج من جيبه ثلاثة قروش هي كل ما تبقى بعد التأمين ووضعها أمام مليم .

وأشار المعلم لنبقة حتى يحضر الطلبات ، ولكنه توقف في

منتصف إشارته وقد تذكر شيئا فقال وهو يبتسم :

ـ ايه رأيكو ياولاد . . فيه سمك ورز . . تاخذوا الفرق منه .

ووافقا في التو فقد كانا جائعين، وقد أصابهما غثيان من كثرة ما عبا من قهوة وشاي ودخان .

وأحضر نبقة بقايا عشاء المعلم . .

وفي دقائق اختفت البقايا . .

ومن جديد فنط حمودة الكوتشينة . .

وبعد أن ألقى بتعليماته لنبقة، وهمس له أن لا يدعهما يلعبان إلا عشرتين فقط، خرج وقفل الباب وراءه .

* * *

قبل شروق الشمس ، كان المعلم يأخذ طريقه إلى القهوة وهو يتمتم بختام صلاة الصبح ، ويده ترفع ثوبه من خلفه ، ويده الأخرى تحرك مسبحته الكهرمان في رزانة وخشوع .

وحين فتح الباب بمفتاحه كانت القهوة يسودها ظلام تخرقه خيوط من ضوء ما قبل الشروق التي تنفذ من الثقوب الكثيرة في نافذتيها، وفي حائطها نفسه. وكان هواؤها ثقيلا فيه دخان وله رائحة، وكان الكلوب مطفيا، والأرض عليها أكوام من تفل الشاي ، وقشر السوداني ، وورق المعسل الفارغ ، وفيها برك صغيرة من ماء أسود حالك .

وكان نبقة راقدا يشخر على كنبة طويلة وقد تعرت ساقاه وتعلقت إحداهما في الهواء.

وعلى المنضدة الأبلكاش، كان هناك مليم وحمودة وقد ألصقا رأسيهما ليستطيعا رؤية الأوراق على ضوء اللمبة «أم ساروخ» ولهيبها يتلاعب وينفث هبابه فيسود وجهيهما، ويلتهم ما شاء من شعر حمودة النافر في كل اتجاه. وكان الأستاذ هناك أيضا وقد ربع يديه ووضع فوقهما رأسه، مائلا إلى اليمين ليلمح أوراق حمودة ثم مرتدا إلى اليسار ليرى ما عند مليم.

ويبدو أن أحدا لم يحس بمقدمه، أو ان كانوا قد شعروا فإنهم لم يبالوا بالقادم ولا بمن يكون. ولكنهم أفاقوا تماما على صوت المعلم وقد عادت هامته إلى الارتفاع، وجحظت عيناه على آخرهما في غضب واستنكار ودهشة:

ـ يا فتاح يا عليم.. هو أنا حقلبها قمار.. هو انتو موظفين يا ولاد الكلب يا جعانين.. واد يا مليم.. واد يا حمودة.. فز أنت وهوه عمى في عينك منك له.. أصل العيب مش عليكو. العيب على الصايع دهه..

وشد المعلم نبقة من رجله المعلقة في الهواء فرماه على الأرض، وصحا الولد شاهقا هالعا، ولكنه لم يمهله فانهال عليه بكفه ومسبحته وبلغته وقدميه..

وهنا فقط تحرك الثلاثة الذين كانوا واجمين مسمرين على

مفاجأتهم الأولى وكأنهم ضبطوا متلبسين ولا أمل لهم في نجاة. كان أولهم الأستاذ الذي انسل كالنسمة مغادرا القهوة، وتبعه مليم وحمودة وكل منهما يجر نفسه جرا وعيناه مطفأتان محمرتان فيهما تعب مريض، وقد تجمعت نقط بيضاء جافة على أركانهما، ووجهه ممتقع أصفر يختلط فيه الإنهاك بهباب المصباح. وليس في رأسيهما إلا طوابير من العشرات الطيبة والأولاد ومئات البصرات. وامرأة حمودة وبناته وصفائح مليم والغربية بلده.

ومضيا على غير هدى في الضوء الرمادي الباهت.

٨٨٠

المكنــة

كانت ادارة(مكنة) الطحين، مثل كسوف القمر، ووهج البرق، احدى الطلاسم التي لا يفهمها أحد، ومع هذا فالناس كانوا ينتظرون ادارتها بصبر فارغ، ويحسبون ليوم الطحين ألف حساب، ويحمدون الله أن هيأ لهم مكنة قريبة من البلدة.

ولم يكن أحد يدري متى بنيت ولا كيف أحضرت عدتها مع أن الشيخ الهادي العجوز يزعم أنه رأى بعينه(الونش) الذي حملها، ولكن الجيل الحديث لا يطرق باله هذا الزعم ولا يصدقه فمن يومه وهو يراها هكذا قائمة ثابتة كالجميزة الطاعنة، ترسل دقاتها مثل القلب النابض بنغم منتظم رتيب.

وكان الناس حين يمرون فوق السكة الضيقة المؤدية الى الطريق الزراعي، ويرون باب المكنة مفتوحا، وشبح الاوسطى محمد يروح ويجيء داخلها يدركون من فورهم انها سرعان ما تدور، فيلقي كل مستعجل نظرة خاطفة الى الباب، ويتلكأ من ليس وراءه عمل، وقد يجلس البعض فوق كومة السباخ القريبة. يحدث هذا من بعيد لبعيد، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب، حتى الأولاد الذين كان الطفل

منهم مستعدا أن يتنازل عن الرغيف الذي في يده أو الجلباب الذي يرتديه على اللحم ليستطيع مشاهدة ما يدور في الغرفة المظلمة المصنوعة من الصاج. . حتى هؤلاء الصغار كانوا غير راغبين في المجازفة بأعمارهم والاقتراب، فالكل يعلم أن الاوسطى محمد هناك وانه الآن في أتعس حالاته، ولو وضع انسان عود كبريت على طاقة أنفه في هذا الوقت لاشتعل العود.

والذي يرى الاوسطى محمد في غيظه وحنقه يعجب حين يشاهده يدخل المكنة في الصباح، يربت على العدة القديمة المهروشة المتآكلة بيده ويطمئن الى سلامتها، والى أن ذارت الدقيق الناعم لم تتسرب من حجرة الطحين ولم تفسد خضرة دهانها الذي لم يبلى. ويدور الأوسطى محمد حولها، ويفرغ وعاء الزيت، ويعمر الوابور ثم يشعله، ويضعه في مكانه من العدة حتى تسخن(طاستها)، ولا يتوقف أثناء هذا عن دق أشياء بداخلها، وتلمس أشياء، وتجربة مسالك ومقابض حتى يرى بينه وبين نفسه أن الوقت قد حان، فيضع رجله في(الحدافة) الكبيرة الضخمة، ويستند بذراعيه القويتين الى الحائط، ثم يستعين بالسيد البدوي ويدفع العجلة.

وقد تقوم(المكنة) في ساعة، وقد لا تقوم، فيسب لها الاخضرين. وقد تعمل مرة، ويتصاعد صوتها الحبيب الى نفسه من المدخنة الحديدية ولكنه لا يلبث أن يتلاحق وقعه، ويهبط حتى يموت ليعود الى اشعال الوابور وتسخين الطاسة.

ونـادرا ما كـانت تقوم قبـل العصر بعـد أن يكون الاوسـطى قد هدهد عليها وهو حانق، واستعطفها وهو يكاد ينفجر، وتحايل عليها، وداعب(البستم) ونغمش «الشناير» بأصابعه.

وحين يتم قيـامها كـان الاوسطى ينتـظر قليـلا ليـطمئن أنهـا لن تفعلها معه وتقف، وان العادم تمام، و«البوبينات» شغالة بالمضبوط.

وكان حينئذ ينفض يده منها، ويمسحها بقطعـة«الاصطبـة» وهو يقول بكل الحقد الرؤوف الذي في قلبه عليها:

ـ الله يلعن أبو أصحابك. .

وكان وهو يستدير لا يستطيع اخفاء شبح ابتسامة راضية يداريها عن المكنة وهو يخرج. وكان يغادر الباب المـظلم وعليه غبـرة وزيت وشحم، وهو لا يني عن مسح الجاز والعرق الذي في وجهه وذراعيـه وصدره بقطعة«الاصطبة» ثم يضعها في حرص بجوار الحائط الصاج.

ويمشي إلى الخليـج القريب حيث يغمـر كل مـا هو بـائن من جسده بـالتراب ويـظل يـدعكـه حتى يتحـول إلى طين أسـود يغسله فينـداح الزيت والجاز على سطح الماء في حلقات.

ويعـود بعد هـذا الى جلستـه المختـارة تحـت شجـرة الخـروع بجوار حائط المكنة وفي مواجهة بابها، وتكون الادوات جاهزة فيتربع ويشعـل النار في الاصـطبة من الـولاعة النحـاس التي صنعهـا بنفسه. ويغلي الماء في الكوز الـذي له يـد طويلة من السـلك المبـروم ويظل يغلي الشاي حتى يستوي ويخرط مرات.

ولا يستطيع انسان أن يحدثه قبل أن يرتشف في بطء حكيم وفي خبرة الكييف القطرات الأولى من الشاي ذي الكيان الأسود.

وكان الناس يقولون ان في شايه رائحة الجاز، وانه يلقط من الزيت الذي لا تخلو منه يده، ولكن كل من شاركه مرة كان يؤكد ان الجاز، ان كان هناك جاز، يضفي على الشاي نكهة ذات مزاج لذيذ، ويجعل له مذاق العنبر.

وكان الاوسطى محمد لا يتحدث كثيرا، واذا تكلم فإنما لينفض متاعبه، ويروي كيف حرنت(مكنة) الطحين، أو كيف انزلق السير عن الطارة، أو ضبط ذات مرة امرأة من حاملات المقاطف تحاول دخول غرفة العدة، وهم ببعثرة ما تحمله لولا تدخل الناس.

وكان اذا انحرف الحديث وخرج عن المكنة، ينطق بكلمة أو كلمتين، وكان كلامه في المليان فهو لا يعجبه الحال المائع، ولا الثرثرة التي لا فائدة منها.

وكان مستمعوه، القليلون، وهم دائما قليلون، ينظرون الى وجهه الذي احترق الجزء الأسفل منه وبقي الجلد مكانه سميكا لا ينبت فيه شعر ذقنه التي كثيرا ما يتركها تنبت وتترعرع، ولا تفلت العيون شاربه الذي لا هو بالكثيف أو الخفيف وانما منفوشة نهاياته ومتفرقة، ذائبة في لحيته النامية.

كان مستمعوه ينظرون اليه ثم يهزون رؤوسهم موافقين وقانعين بالسكوت فإنهم يعرفون أن لا نتيجة من وراء جداله، وانه اذا قال

شيئا لا يتحول عنه ولو أعطوه مال قارون.

ولم تكن لهجته تتغير حتى حين يكلم الحج طه، والحج كان يستأجر المكنة من صاحبها الذي له في البندر بيوت وماكينات ولم يكن الحج أول مستأجر ولا صاحبها أو صاحب. ففي خلال أعوام كثيرة تقلبت من يد الى يد، وانتقلت من بائع الى مشتر ورهنت مرات وفك الرهن، والاوسطى محمد يتنقل معها ويلف، وليس بينه وبين مستأجرها كلام أو سلام، فالحج جالس في غرفة الطحين يزن المقاطف والاجولة على (الطبلية)، ويحاول مغالطة الزبائن في كيلة، أو نصف كيلة، ويحاول الزبائن الجور عليه، واستعطافه واستجداءه اذا لم ينفع الجور أو يجدي..

والاوسطى محمد ليس له داع بما يحدث فالعدة هي كل دنياه. لم يكن له زوجة، فقد ماتت من أمد طويل بعد أن خلفت له شحاته. وما تزوج بعدها أو فكر في الزواج، وانما علم شحاته، وكان يطمع أن يرثه في صنعته، ولكن الولد خاب وفسد، وبعد أن رأى الويل في تعليمه أصول الكار ذهب واشتغل صبيا على عربة نقل في البندر، وكثيرا ما كان يبيت هناك فلا يراه أبوه أو يسمع عنه.

ولم يكن الاوسطى محمد ساخطا على ابنه أو غاضبا منه، وكان اذا جاءت سيرته أو حكى واحد انه رآه، يصمت وتتعمق ملامحه ثم يقول:

ـ خليه يشوف اللي شفته..

وأهل البلد كلهم كانوا يعرفون الاوسطى ويسلمون عليه ويحيونه، الا أنه لم يكن يعرف منهم، مع طول اقامته بينهم، الا القليلين. ولم يكنن يسهر اذا عن له السهر الا مع عائلة الهواشمة التي تصنع الاقفاص، فكان يضمهم سطح منزلهم، ويجلسون بين أكوام الحطب، وتدور كراسي الدخان الحاف، ثم يتركهم الاوسطى ويذهب لينام في بيته ذي الغرفة الواحدة التي لها طاقة صغيرة عالية، وكان قد استأجر البيت يوم جاء بخمسة قروش في الشهر من نعسة أم هاشم. وماتت نعسة وتركت له بنتها التي تذهب اليه كلما قرصت الحاجة زوجها، وعلى كل ثدي من أثدائها ذباب وَطفل معلق، تطالبه بالقرشين.

وكان يدفع لها على مضض، ووجهه معقود، فأجره كان ضئيلا، ومع هذا فما طالب بزيادة أبدا، فقد كان يضن بكرامته أن تخدش اذا رفض الحج طلبه، وكان قانعا بالمكنة، واضعا فيها كل همه، حتى قطعة الأرض الفضاء الصغيرة التي أمامها ظل يرشها ويرويها ويزرعها حتى أصبحت جنة، وحجرة المكنة كانت كالعروسة، وكان يضن بدنياه المحدودة أن يرشقها واحد بنظرة أو يستحل لنفسه التطلع اليها أو الجلوس فيها.

وكان الناس يعزون انطواءه على نفسه ومكنته الى انه مصاب بداء الكبر ولهذا فأنفه دائما في السماء، بل كان يذهب الذاهبون الى انه مريض بالسل، وأنه السبب في اعتداده وفي وجهه الذي لا ينفك.

وذات يوم حدث شيء لم يتوقعه أحد . .

فقد فاجأ الاوسطى محمد ابن الحج طه داخل غرفة العدة وهو يحاول أن يلمس الحدافة الضخمة الدائرة. ورأى الاوسطى أن السير يكاد يلهف ثوبه ويقطعه، فعلق الولد من أذنه وهو يفركها في غيظ بين أصابعه، ثم سحبه الى الخارج كالعنزة العاصية.

وذهب الولد باكيا منتحبا الى أبيه، وفار دم الرجل وجاء مسرعا الى حيث كان يجلس الاوسطى تحت الخروعة يصنع الشاي. وقال له بوجه أصفر عليه قطرات صغيرة من العرق، وبعينين زائغتين، وشفاه مرتجفة:

ـ يا أوسطى محمد . . شوفلك شغلة تانية . .

ولم يتحرك الاوسطى أو يثور، وانما ظل ممسكا بالكوز، رافعا بصره الى الحج، محدقا فيه، ثم قال بعد برهة وبعد أن جاهد ليبتسم حتى أعوج شاربه:

ـ بس كده . . حاضر . .

وشرب شايه على مهله، ثم قام وأوقف المكنة، ولم أشياءه، ومضى . .

خرج الاوسطى محمد من هنا، وبدأ الناس يتقاطرون على الحج طه الذي كان لا يزال يرتعش، ويحاولون ارجاعه عن قراره. واستمرت المحاولات دون فائدة، ودون أن يلين قلب الرجل أو يتحرك له ضمير. وانقلب الناس الى الاوسطى محمد يلحون عليه أن

يستسمح الحج، ولكنه كان يرد عليهم وهو ساهم في تصميم أكيد:

ـ والنبي لما أحلق فردة من شنبي وأسيب فردة.

ويئس الناس الطيبون من محاولاتهم، فتركوا ما يحدث يحدث وأمرهم الى الله.

وتناقش أهل البلدة كثيرا فيما كان وانتشرت الاقاويل تلوم الحج وتؤنبه، وتقول انه لو لف الأرض سبع مرات فلن يجد أحدا مثل الاوسطى محمد. وكان الاوسطى يسمع الكلام ويبتسم فهو أدرى منهم بقيمته، فما كان انسان يعرف مثله أسرار المكنة، فقد رباها على يده، وعرف متى تعصي وكيف تلين، وما هي الدفعة التي تديرها والضغطة التي تلف حدافتها ثم الغمزة التي توقفها. كان يعرفها أكثر من نفسه ويعرف مزاجها وضعفها مثلما يعرف مزاجه وضعفه. واثقاً أن الحج سيأتيه حالاً وهو صاغر ويسوق عليه الناس كي يرجع.

في ذلك اليوم وقفت المكنة طول النهار، وفي اليوم التالي، رجع الحج من البندر وفي جعبته أوسطى آخر قضى ساعات كثيرة، يلهث ويعرق ويستريح، وحين غابت الشمس ضرب الجنيه الذي أخذه بعد مساومة في جيبه وانصرف دون أن يتكتك للمكنة صوت.

وطالت السهرة على سطح الهواشمة، وامتد الحديث عن خيبة الاوسطى الجديد.

ولم ييأس الحج فغاب عن البلدة قليلا ثم عاد ومعه ثلاثة من

الأسـطوات. وهلكت امرأتـه وهي تعد لهم الـطعام والشـاي كل يـوم وهم يتخبطون ويختلفون.

وكلما طال تخبطهم كان الاوسطى محمد يسعد غايـة ما تكـون السعادة حتى انه ما كان ينتهي ضحكه، وحتى أصبح النـاس يأنسـون اليه فيكلمهم، ويهزر معهم، ويلكزهم أحيانا.

وكـان انفراج وجهـه بعد طـول تكشير وتقـطيب بـالنسبـة اليهم فاكهة في غير أوانها، فذهب ما كانوا يشعـرون به من رهبـة تجاهـه، وأحسوا انه انسان مثلهم من دم ولحم، وانه ليس مـريضا أو متكبـراً، وإنما طبعه حلو، ودعابته رائقة.

ومـع أن النـاس وحشهم صـوت المكنـة، وانقـطع عنهم دقهـا القوي المكتوم، ولم يعـد هناك طحين أو بيـاض أرز، وفرغ الفضـاء الذي حولها من الحمير والجمال، وانتهى زعيق الرجال أمامها وزحمة النساء، وراح الناس يقترضون من بعضهم الدقيق.. مع كـل هذا الا انهم كانوا مع الاوسطى محمد، وكانوا على أتـم استعداد لقضـاء أيام كثيرة دون أرز أو طحين.

وكانوا يسخرون بالحج وبالاسـطوات الذين يـأتي بهم ويتنبأون معه بفشلهم وبأنهم سيرجعون كما جاءوا ووجوههم مثل قفاهم.

وأثناء هذا لـم يقطع الناس الطيبون محاولاتهم الملحة للصلح، ولكن الحـج أبى الا أن ينفذ كلمتـه ولو صـار فيها ضـرب نار. وحين

زهق ركب القطار إلى مصر وعاد في ذات اليوم ومعه أوسطى يرتدي عفريتة زرقاء.

وتهامس الناس وهم ينظرون الى صغر سنه، وذقنه الملساء، وبشرته التي ليس فيها خشونة ثم تنبأوا له بالفشل الذي لحق بسابقيه.

وكان الاوسطى محمد ساعتها جالسا على جسر الترعة يتحدث الى الناس، ويتحدث الناس اليه، ويشرق الحديث ويغرب ولا محور له الا الاوسطى الذي جاء من مصر، والذي يرتدي عفريتة آخر الزمان.

وكان الاوسطى محمد يؤكد للحاضرين أن هذا الصبي لو حاول ادارتها فستنفضه وتلقيه في الخليج.

وكان يتحدث في ثقة وايمان كما لو كان يتكلم عن نفسه.

وعلى حين فجأة انبعثت تكتكة عنيفة ثم انقطعت.

* * *

وانتهى الحديث في التو، وصمت الموجودون وكأن ألسنتهم ربطت الى أوتاد. وتحولت الانظار كلها الى الأوسطى محمد الذي كان صامتا، وفي صمته دهشة غير قليلة وفي أعماقه يغلي قلق استحوذ عليه ولم يغب عن الانظار. ورغم أن ثقته في نفسه وفي المكنة كانت لا حد لها الا أن الفار بدأ يلعب في عبه، فقام دون أن ينطق بحرف أو يسأله الحاضرون أين هو ذاهب. وتمشى على الجسر واضعاً يديه خلف ظهره، ورأسه مائلة على صدره، وعقله يتأرجح بين الشك واليقين.

وقادته قدماه غصبا عنه الى المكنة. وجلس على حافة المصلي القريبة وعيناه مصوبتـان إلى بابهـا، وأذنه تتسمـع دوي الوابـور، وهو يسخنها، وثمة ابتسامة واثقة غير مصدقة حائرة على شفتيه . .

واتسعت ابتسامته وهو يشاهد الاوسطى الصغير يستعين بالحـج على ادارة الحدافة. ولكن البسمة غاضت تمـاما من وجهـه حين رأى البستم الملعـون يلف ويـدور ولا يقف، والحـدافـة قـد انـطلقت من نفسها كالمجنونة وقد أخفت السرعة هيكلها وابتلعتـه، بينما المـدخنة اندفعت تنفث حلقات الدخان في نظام لا تشوبه شائبة.

ولم يحتمل الاوسطى محمد، ففر من جلسته واقفا وهو يكذب مـا يراه ومـا يسمعه وشيء لاسـع ينهش صدره وهـو يلمح الاوسـطى الصبي يغـادر الحجـرة وعلى سيمـاه بشـر كثيـر، والنـاس يتجمعـون حوله، ويسلمـون عليه، ويـرحبون بـه، ويدخـل بعضهم يتفرج على المكنة الدائرة ويهنىء الحج ويشد على يده.

وقف الاوسطى محمد وحيدا مزروعا في مكانه، والناس رائحة غادية من أمامه لا يلحظونه ولا يلحظهم. وقبل أن يغادر مكانـه انتزع من صدره تنهدة حارقة طويلة، وغمغم باشمئزاز، وكأنـه الزوج يضبط امرأته متلبسة بخيانته:

ـ الله يلعن أبو صحابك . .

ثم بصق ملء فمه.

شغلانة

كان عبده في حاجة الى قرشين..

ولم تكن هذه أول مرة يحتاج فيها عبده، فقد أمضى عمره باحثاً عن القرشين..

كان في الأصل طباخا، تعلم على يد الحاج فايد الشامي وأتقن الصنعة، حتى أن طبق(الدمعة) كان حين يخرج من يده محبوكا محوجا يحظى بإعجاب المعلم نفسه.

ولكن الحال لا تدوم على وتيرة واحدة، وهكذا اشتغل عبده صبيا في الورشة التي بجوار المطعم ثم طرده صاحب الورشة فعمل بوابا فترة من الزمن وأشرف وحده على عمارة من عشرة طوابق، ثم أسلمه عوده الفارغ وساعده القوي الى عربات النقل فأصبح شيالا حتى أصيب بالفتق.

وعبده كان له صوت، وصوته، لم يكن جميلا، ولكنه كان قويا طازجا، وحين كان يبيع الخيار والشمام والعنب كان يلفت الشارع كله الى بضاعته بنداء واحد

وقد عمل عبده ذات مرة سمسارا، وكان يجوب الأزقة ليل نهار بحثا عن حجرة خالية، وكان يجدها، ويجد معها العشرة قروش، ثم

استطاع أن ينفذ الى كهنوت السماسرة، فيقبض القروش العشرة بلباقة من الزبون ولا يجوب الأزقة أو يجد الحجرة. .

وعبده في شغل القهاوي عجب، وكان أيام عزه يقف في أرضية القهوة وحده ليلة العيد فلا يؤخر طلبا أو يكسر كوبا.

وكانت له زوجة، يسكن واياها حجرة وحولهما الجيران. ورغم المعارك الصغيرة التي كانت تنشب بين نسائهم وامرأته، فقد كانوا على العموم أناسا طيبين، يواسونه ويقرضونه اذا لم يعمل ويدعون له وأحيانا يقترضون منه اذا وجد العمل، والدنيا ماضية به وبهم تبيع لهم العيش بالميزان، وتنقص كل يوم في الميزان، وانما هي الدنيا والسلام.

كان عبده في حاجة الى قرشين. .

وهذه المرة كانت حاجته قد طالت، ولم يكن هناك أمل في نهايتها، ومعارفه القدامى حفيت قدماه وهو يلف عليهم ويدور، ويعود من لفه ودورانه بنفس وجهه المقطب العابس ويديه الخاويتين ويدق الباب فتفتح امرأته فلا يحييها، ولا تحييه، وينام على الحصيرة، ويسد أذنيه عن لغط نفيسة ودوشتها وهي تجره جرا الى الذي يحدث كل يوم، والى تهديد صاحب البيت، وأنصاف الارغفة الحاف وأرباعها التي يتصدق بها الجيران، والعيد القادم، وأقة الخوخ التي نفسها فيها وتتوحم عليها، وابنته التي ماتت، وابنه الذي في الطريق والخوخة التي سيولد بها.

وطالت هذه المرة على غير عادتها، وعلا صوت نفيسة حتى لم يعد يحتمله، وأصبح لا يطيق النظر الى وجوه جيرانه ورءوسهم المهتزة الآسفة على شبابه وقلة بخته، أو تمنياتهم التي لا يمضغها تحت أسنانه أو يستر بها جسده نفيسة.

وفي يوم وعبده عائد، قالت له نفيسة أن طلبة قد أرسل له.

وأحس عبده بفرحة فإن أي سؤال في مثل حاله يعني الأمل، وليكن أملا كاذبا أنهأحسن من لا شيء على أية حال.

وفي التو ذهب الى طلبة، وكان سيد القاطنين في البيت بلا جدال، فقد كان يعمل تمورجيا في المستشفى، وكان كذلك أحدث القاطنين.

ورحب به طلبة، وابتسم عبده لترحيبه في خجل. وما كاد طلبة يسأل عن الحال حتى قص عبده الحكاية، وكان عبده يشعر بالراحة وهو يقصها ويتحدث عن أيام مجده وذكرياته، كان اذا أحس بالنظرات تقشعر وهي تعبر جلبابه المهلهل لا يستريح حتى يتكلم عن حرفه، وعن الناس الذين عرفهم وعمل معهم، وكأنه يداري خروق جلبابه، وحين يتكلم عما فات كان صوته يمتلىء ونفسه تكبر ويشعر بأنه كان رجلا، ثم يخفت حديثه وتتبرم لهجته، ويسخط على الدنيا والزمان والناس، ويتشوق الى الخير الذي ضاع ويشمئز من الشر الذي ملأ القلوب. ثم كانت كلماته تصغر، وصوته يضعف وابتسامة خجلة تأخذ طريقها الى وجهه، وهو يتحدث الى جليسه عما صار

اليه، ويسأله، بعد أن يفرغ كل الضعف الذي في صوته، وتنتهي كل الاستكانة التي يهمس بها، يسأله ان كان يعرف له الطريق الى عمل.

واستمع طلبة، وقاطعه كثيرا وهو يستمع ثم أخبره في النهاية بأن هناك عملا ينتظره.

ورجع عبده وكأن ليلة القدر فتحت له.

وحدث نفيسة كثيرا عن طلبة وترحيبه وطيبته، وأمرها أن تذهب في الغد بعدما ترجع من عند الطلبة الذين تغسل لهم الى امرأته وتساعدها، وتسليها..

ومن الفجر كان عبده مستيقظا، وقبل شروق الشمس كان هو وطلبة أمام قسم نقل الدم في المستشفى.. وانتظر.. وجاء أناس مثله وانتظروا، وفتح الباب في العاشرة.. ودخلوا.. وأخذ عبده بالمكان الذي كله سكون وصمت.. ونفذت الى أنفه رائحة كالفنيك تملأ الجو، وجعلت معدته تطفو حتى تصل الى حلقه. وأوقفوهم طابورا وسألوه وهو كالذاهل واستجوبوه وعرفوا اسم أمه وأبيه، وكيف مات خاله وعمه، وطالبوه بصورة وبحث عبده فلم يجد الا صورته الملصقة على تحقيق الشخصية الذي يحمله دائما خوفا من الطوارىء والعساكر.

ودفعوا ابرة في وريده، وأخذوا منه ملء زجاجة من الدم الأحمر. وقالوا: بعد اسبوع.

وخلال الأسبوع كان عبده لا يزال في حاجة الى القرشين، ولا

يزال غاديا رائحا يبحث، وأنصاف الارغفة وأرباعها كادت تفرغ، بل فرغت. وفي الميعاد تماما كان أمام القسم. وفي العاشرة فتح الباب. وقالوا للذي قبله في الطابور: لا . .

وحين تصلب الرجل في مكانه أزاحوه وهم يقولون؛ دمك فاسد . .

وخفق قلب عبده . .

ولكنه كف عن الخفقان حين قالوا له : أيوه . .

ولما تثاقل في مكانه أزاحوه وهم يقولون: حناخد منك . . النهاردة . .

وكاد عبده يركب رأسه، ويمضي في الطابور مهللا مقهقها كما كان يفعل في عز شبابه، ولكنه كان جائعا، ففرح على مضض وانتظر . .

وبعد قليل نادوا عليه، وأدخلوا ذراعه في ثقب لا يسع الا ذراعه. وخاف عبده ولكنه اطمأن حين وجد على يمينه واحدا وعلى شماله آخر. وأحس بذراعه كلها يغمرها شيء بارد وكأنها وضعت في لوح من الثلج. واندست فيها بعد برهة مسلة، وتأوه، ثم لم يعد شيء يضنيه فسكت. وأتاح له سكوته أن يتفرج على المكان، وأن يرفع رأسه ويشب ويختلس النظرات خلال الزجاج الفاصل فيلمح فتيات كالورد يرحن ويجئن في صمت وليس لهن ضب امرأته، ولا ثوبها الاسود، وأدرك عبده بعد برهة انهم ليسوا كلهم فتيات، وانما

بينهن بعض الرجال ولكن وجوههم هي الأخرى كانت بيضاء كـالقطن المندوف ولامعة كالحرير. وراح عبده يحسـد ذراعه والـرجال الـذين في الـداخل، ويتمنى أن تـطول ذراعه وتـطول حتى بـدأ حتى تصـل أصابعه الى قناع واحدة من الفتيات فيشده، ويقرص وجهها الحلو.

واستمر عبده يشب ويتأمل الوجوه المقنعـة ويخلط بين الرجـال والفتيـات حتى بدأ الـزجاج الفـاصـل يضيء وينـطفىء أمـام عينيـه، والوجوه الحلوة تغطيها الأقنعة ثم تنحسر عنها . .

وأحس أنه تعب . .

وشعر بذراعه تبرد، ثم شعر بها تسخن وتبرد . .

وسأل الذي عن يمينه : هم حياخدوا قد ايه . .

وأجاب الآخر وهو يغمغم وكأنمـا ينوي ليتـوضأ : أنـا عارف . . بيقولوا نص لتر . .

وانتهى الحديث . .

ودقوا على ذراعه وهم يقولون : خلاص . .

ومشى عبـده وهو غيـر ثابت وسـأل عن القرشين . . وقـالـوا لـه انتظر . . .

وانتظر . . .

ودفعوا له جنيها وفوقه ثلاثون قرشا. وخصموا الدمغة . . وكانوا كراما فأفطروه . . .

وقبل أن يرجع الى البيت مر على الجزار فأخذ رطل اللحمة، وفات على الخضري فاشترى البطاطس، ودق باب الحجرة وهو يبتسم . .

وحين فتحت نفيسة ووجدته محملا ردت تحيته، وحملت عنه ما في يده وقد انتابتها خفة، وكادت ـ لولا الحياء ـ تقول انها تحبه وتموت فيه.

وطبخت نفيسه، وشاعت رائحة(التقلية) في الحجرة، وتسربت الى أرجاء البيت، وشمشم الجيران، وابتسم بعضهم، وتحسر آخرون وهم واجمون.

وأكل عبد اللطيف حتى ملأ بطنه، ثم تهور واشترى بطيخة. .

وفي الليل لم يسمع لامرأته زعيق، ولا نصبت الزفة، وانما دار بينهم همس كحديث الحبايب. .

وانتهى الاسبوع، وقبل أن ينتهي كان عبده قد صرف كل ما أخذ. .

وفي الميعاد ذهب الى المستشفى، ومد ذراعه، وأخذوا منه ما أخذوا ، وأعطوه ما أعطوه، ولم ينسوا فأطعموه.

وارتاح عبده الى العمل الجديد فليس فيه امارة معلم أو شخطة أوسطى ولا تمحيكة عسكري، وليس عليه الا أن يذهب كل اسبوع الى هذا المكان النظيف الذي كله أبيض في أبيض، ويعطيهم نصف لتر من دمه، ويناولونه الثمن، وتدبر امرأته عيشهم بما يأخذه، ويكون

جسده قد دبر الدم، حتى اذا مـا انتهى الاسبوع يعـود ليعطيهم الـدم ويناولونه النقود.

كان عمله(ألسطة)، وحساده كثيرين. .

وكانت حال امرأته معه على كف عفريت، فحين يقبل وفي يده ما في يده تـبسم له وتكاد تـزغرد، وحين ينـام طيلة الاسبوع لا تـدعه ينام وانما تحدثه عن رجليـه الرفيعتين، ووجهـه الـذي يصفر، وتقص عليـه في كلمات مبتـورة عابـرة، ما تقـوله نسـاء(الحتة) عنـه، وكيف عايرتها حميدة حين تشاجرت معها بزوجهـا الذي يبيـع دمه. وأحيـانا كانت تهدهـد عليه وتشفق وكـأنها أمـه، وتغطيـه في الليل وتثقـل في الغطاء ولا تجعله يتحرك من مكـانه أثنـاء النهار وانمـا دائما بين يـديه تلبي كل اشاراته وكأنه طفل مريض.

وكان عبده يلمس هذا، ويشعر بالمرارة وهو يلمسه، ولكن ماذا يهم. .

صحيـح انه كلمـا أخذوا منـه الدم يـدوخ وينـام بجـوار حـائط المستشفى حتى العصر.

وصحيح أن الناس تتكلم، وكلام الناس كثير، ولكن المهـم أن وابورهم والع، وايجارهم مدفوع، والذي لا يعجبه هذا فليشـرب من أوسع بحر.

غيـر أن عبـده ذهب يـومـا الى المستشفى، ولم يجلسـوه أمـام الثقب وانما نادوا عليه وقالوا له: لا. .

ـ ليه؟ . .

ـ . . أنيميا . .

ـ أنمية ايه؟ . .

ـ . . فقر دم . .

ـ وماله؟ . .

ـ . . ما ينفعشي . .

ـ وبعدين؟ . .

ـ . . لما تقوى . .

ـ أنا قوي أهه . . أهد الحيطة . .

ـ هبوط في القلب . .

ـ مالكوش دعوة . .

ـ . . تموت . .

ـ أنا راضي . .

ـ . . صحتك . . الانسانية . .

ـ ودي . انسانية يا جدعان؟! . .

ـ مش ممكن . .

٩٠٠

ـ يعني ما فيش فايده؟ . .

ـ . . ولا عايدة . .

وفي هذا اليوم نسوا فلم يطعموه . .

ومن جديد أصبح عبده في حاجة الى قرشين . .

مظلوم

كان لنا صاحب اسمه عبد المجيد، وكنا لا نذكره إلا ونذكر الحشيش، فهو من رواده الأول القلائل، وله فيه صولات وجولات، وله معه تاريخ حافل طويل.

وكنا لا نراه إلا (مسطولاً) ونكون واثقين حينئذ أن في جيبه بقية.

ومرت علينا أيام كان لا حديث لنا فيها الا عن عبد المجيد ونوادره. كانت كل كلمة من كلماته نكتة، وكل رد من ردوده قفشه، وكان لا يجيء ذكره الا ويحكي كل منا عشرات مما حدث له مع عبد المجيد، وعشرات مما حدث لعبد المجيد.

وكان عبد المجيد يعمل طبيبا في مستشفى كبير، والناس يعتقدون أن الطبيب لا بد أن يكون قصيرا، سمينا له كرش وعنق غليظ، وعلى عينيه نظارات، وفوق ملامحه بسمات طيبات . .

ولكن عبد المجيد كان على عكس هذا، فهو طويل رفيع، نحيف، شاحب الوجنات.

٩٠٢

ولا أريد الاسترسال في الحديث عن عبد المجيد، فالحديث عنه طويل، وسيرته كسيرة الحيات اذا وجدت لها بداية فلن تستطيع العثور لها أبدا على نهاية.

المهم انه في ليلة كان عليه نوبتجية الاستقبال، وكان لا بد ان يسهر الليلة كلها استعدادا لما تتمخض عنه المدينة من أحداث. وكان لا يمكن أن تمر مناسبة كهذه دون أن يستعد لها ويبالغ في الاستعداد. ودخن عبد المجيد حتى أصبحت عيونه ليست حمراء تماما ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين. وجلس على مكتبه في حجرة الاستقبال، وبدأت أسراب الموجوعين والممغوصين تفد اليه صارخة.

وفي أعقاب هذه الاسراب جاءته احدى المعضلات، اذ دخل ضابط ومعه اثنان من العساكر يحرسان رجلا قصيرا محنيا ذا خدود غائرة. ووضع الضابط أوراقا كثيرة على مكتب الطبيب وقص عليه الحكاية بالاختصار، وقال له انهم هاجموا(غرزة) ففر كل من فيها واستطاعوا امساك هذا الرجل، وحين فتشوه عثروا معه على قطعة حشيش، وفيما هم مشغولون بمتابعة الهاربين غافلهم وابتلعها، وانه حاضر اليه ليعمل للرجل غسيلا للمعدة ويستخرج ما فيها من حشيش..

وأعجبت المعضلة صاحبنا عبد المجيد، وقد وجد فيها لذة، ولحلها جدة تختلف كل الاختلاف عما جرت به الليلة من أولها الطويل..

ونـظر الى الرجـل الواقف والحـديد في يـديه، وسـألـه بلهجـة خبير، وبحنكة ناب أزرق:

ـ انت يا واد بلعتها والا رميتها. .

وأجـاب الرجـل في ذلة ذليلة، وضعف ضعيف، وبـراءة دونهـا براءة الأطفال:

ـ أنـا يـا بيـه؟!. . بلعت ايـه؟!. . والله معـرف حتى شكله! والنبي مظلوم!. . يا ناس مظلوم!. .

ونظر له عبد المجيد وقد كبر في عينيه وابتسم وكأنما يقول له:

ـ لا والله جدع يا واد!. . يحميك!. .

ولم يكفـه التشجيع الصـامت فأصـر على أن يفك الحـديد من يديه. وبعد مناقشة قصيرة اقتنـع الضابط ذو الـوجه الأحمـر والشارب الاصفر والعيون الزرق. .

والمفروض أن الطبيب هـو الذي يقـوم بعملية غسيـل المعدة، ولكنها ليست عملية أو شيئا من هذا القبيل، انما هي اجـراء يستطيع أن يقـوم به أي ممـرض. ولذلـك أمر الـطبيب عبـد السـلام أن يعـد الغسيـل. وذهب الـرجـل وفي صحبتـه العسكـريـان الى الحجـرة الأخرى، وبقي الضابط والطبيب وحدهما في المكتب.

وكـان من المستحيل أن يـظلا ساكتين، وبـدأ الحديث بـالفتـاة المـرسـومـة على مجلة كـانت في يـد الـطبيب، ثم تشعب الحـديث

واكتشف الاثنان أنهما كانا ذات عام في مدرسة ثانوية واحدة، وأنهما يموتان في أغاني أم كلثوم، وان الضابط يسكن في العباسية، ولعبد المجيد شلة أصدقاء فيها، وان الاثنين لم يأخذا بعد اجازتهما الاعتيادية، فالرؤساء يحتجون بزحمة العمل. وقبل أن تمضي سلسلة الاكتشافات الى نهايتها، قال الضابط:

ـ يا أخي حاجة تعكنن بصحيح!.. داحنا كنا قاعدين حتة قعدة في روف واحد نعرفه في مصر الجديدة.. والليلادي كان لنا صاحب لسه جاي معمر من فلسطين.. وحليت القعدة.. وأم كلثوم بتغني هلت ليالي القمر. ولسه يدوبك بنبدي، والواحد بدا يتنعنش ويحس انه صح تمام الا ومخبر جايني ومعاه أمر التفتيش.. أعمل ايه؟.. رحت قاطع القعدة وقايم معاه.. الله يلعن أبو دي عيشة!.. بذمتك مش حاجة تعكنن؟!..

ووافقه الطبيب ان هذا شيء يعكنن، وافقه وهو ينظر الى عيني الضابط الجميلتين وقد غرقت حبتاهما الزرقاوان في بحيرة، ليست حمراء تماما، ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين..

وقبل أن يوافقه أكثر، ويحكي له فصلا مماثلا حدث له في احدى ليالي سلطنته، دخل عليه عبد السلام التومرجي قائلا بفرح وتهليل وكأنه اكتشف أمريكا:

ـ الحتة أهه يا بيه.. الراجل نزلها.. دي تطلع قرشين..

فرد الاومباشي:

٩٠٥

ـ قرشين ايه؟!.. أقطع ذراعي إن ما زادت عن ربع وقية خروبتين..

وهز العسكري رأسه هزة خبير وقال:

ـ لأ.. وحته حلوه.. باين عليها غباره يا بوي..

وعلى عجل غادر الطبيب والضابط المكتب، والتفوا كلهم حول الرجل القصير الراقد فوق المنضدة العالية يستخرج كل ما في جوفه من خير ومن شر. وشخط الطبيب في عبد السلام يأمره بوضع القطعة مع بقية الغسيل في حرز ويختمه بالشمع، وتلألأت عين الضابط الوردية بالفرح، وقد ثبتت الجريمة، وأصبح جسدها في حرز حصين. واقتيد الرجل في النهاية وقد أعيد الحديد الى يديه ومشى بين حراسه يقول في صوته الضعيف الثائر:

ـ مظلوم يا ناس!.. والله مظلوم!..

في الليل .

كانوا قد تجمعوا كما اعتادوا التجمع كل ليلة وكان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، وأملهم في ظهوره راح يتأرجح .

وجاء واحد وقال انه رآه عند الجامع .

وتهلل الجالسون والواجمون . .

كان بعضهم قد مدد رجليه في إعياء وملل، وكان آخرون قد تربعوا، والباقون قد أراحوا ظهورهم على الجدار ليريحوا ما فيها من ألم ممض، وكانت أجسادهم كلها ليس فيها موضع لتعب آخر، وقد أتوا بعد العشاء كالاشباح الناحلة السمراء قد اختلط في وجوهها العرق بالرماد، وطالت لحاها، واحمرت منها العيون .

وجاء قادمون جدد . .

وتبادلوا تحية المساء مع الجالسين، تبادلوها في فتور، وكان الواحد منهم ما يكاد يجلس حتى تزحف ذرات التعب الذي لاقاه طول النهار كجيوش النمل آخذة طريقها الى رأسه، فيتخدر جسده لزحفها، ويسكر، ويحس بالراحة تتصاعد من جوفه فتلطف جفاف

حلقه وكأنها حبات نعناع .

وقال واحد وهو يناجي نفسه أكثر مما يخاطب الآخرين :

ـ يا سلام . . الدنيا ضلمة يا ولاد . . والعتمة حلوة .

وما كان الليل جميلاً لما فيه من سكون أو نجوم ، وإنما كان جميلاً لأن ليس فيه عمل، ولأن فيه راحة وجلوسا ، ولأنهم يستطيعون فيه الحديث ويحسون اذا جلسوا واستراحوا وتحدثوا أنهم بشر مثل سائر البشر.

ومع أن الليل كان هناك، وكانوا جالسين مرتاحين الا انهم ملوا ما راحت أفواههم تلوكه من تافه الأخبار، وسرعان ما مات الكلام على أفواههم وتجمد.

وتبادلوا نظرات متثائبة ، في تثاؤبها تساؤل، وفي تساؤلها قلق غامض .

ومرة أخرى راحت أسئلتهم تترى عنه .

وقبل أن يعودوا ويملوا السؤال، جاءهم الصوت الرطب الواضح الخارج، الحلو، المملوء بالرنين، يقول :

ـ مساء الخير يا رجاله . . .

* * *

وتحركت ألسنتهم وقد طال سكوتها :

ـ مساء الخير يا عوف . . ليلتنا ندا يا عبده . . انت فين يا

أخي . . يا ميت ندامة على اللي حب ولا طلشي . .

وبينما الجماعة قد علتها ضجة الترحيب به، لم يتمالك بعض منها نفسه وهو يرى الابتسامة الحائرة التي تود الظهور على وجه عوف فيمنعها أدبه، لم يتمالك نفسه وهو يقارن وجهه الجاد بالهزل الذي قاله، والذي سوف يقوله، فانطلق يضحك .

ولم ينتظر عوف أن يهدأ الهيجان، وانما انسل في رقة وأدب، وركع في سرعة على ركبتيه قبلما يقوم له أحد، ومد يده في خجل مؤدب وسلم عليهم واحدا واحدا بحرارة وهو يقسم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا، واندفع الذين لم يضحكهم أدبه، فضحكوا على حرارة سلامه وغلظ قسمه .

وأخيرا جلس، بينما تنحى أناس، واعتدل آخرون، وامتدت أذرع تصلح أوضاع الجالسين، وتوسع الحلقة .

وتلاقت العيون والاسئلة كلها عليه وقد تربع ووضع قبضيته متلاصقين في حجرة كما اعتاد أن يفعل، ولمعت بشرته السمراء والابتسامة ما زالت تتردد قبل ظهورها على ملامحه .

كانوا يودون سؤاله مثلا ان كان وجد عملا . وآخر عمل كان يقوم به عوف كان مع تجار البهائم، اذ كان عليه أن يوصل بضاعتهم من المواشي الى الأسواق قبل الفجر، وحين ينفض السوق يعود بما بقي دون بيع، وما جد بالشراء، وكان لا يعود قبل حلول الظلام .

٩٠٩

وانتهى موسم التجارة، ووقف سوق البهائم، وأصبح عوف مرة أخرى بلا عمل.

وكانوا يودون سؤاله أيضا أين كان طيلة ما بعد العشاء، اذ لا ريب أنهم كانوا لا يعرفون كيلة الاذرة، وما جرته عليه من مصائب، ولا ما أجبرته عليه من سؤال وهمس وإلحاف.

وما استمر السكون الذي صنعه قدوم عوف طويلا، اذ سرعان ما رفع رأسه، وحدق فيهم جميعا دون أن ينطق حرفا، وأدار رقبته، وشمشم بطاقتي أنفه، وتابع الموجودون حركاته وهم صامتون يخمنون ويستعدون. وظل عوف برهة يحاور عيونهم ويلاعبها، ثم جعل ابتسامته تضحك ضحكتها القصيرة الخاطفة وأتبعها بقوله وكأنه يستنكر:

ـ واللا هاو آريو يا رجاله ! . .

وانفجر الجمع ضاحكا . .

ولم تتحمل الصدور ما فيها من ضحكات، فسعلت، وضحكت، ثم سعلت. واستلقى بعضهم على ظهره ليضحك أكثر، وانثنى البعض حتى لاصق وجهه الارض وهو يضرب بيده على فخذه وقد تشنج ضاحكا.

لم يكن ما قاله عوف يستحق كل هذا الانفجار، بل ما كان قوله غريبا على أسماعهم، ولكنهم كان يكفي أن يروه أو يسمعوه، أو حتى تأتي سيرته ، لتنساب منهم الضحكات. كان هو التميمة القادرة

دائما على فتح أفواههم وقد سمرها طول النهار.

ولم تكد الموجة الأولى تنحسر، ويبدأ الضحك يتحول الى همس ضاحك، حتى قال عوف بصوته الذي فيه بحة رنانة يذوبون فيها:

ـ كيلة الدرة يا ولادا. .

ودون أن يعرفوا ما هي الحكاية قهقهوا بكل ما يملكون من صدور. .

واستطرد عوف القهقهات تترى من حوله:

ـ أني سايب الوليه من غير عشا يا جدعان! . .

ولعلعت الضحكات، ووضع البعض أيديهم على بطونهم حتى لا تتمزق بينما تعبت بطون الآخرين.

ولما لم يجز عليهم ما في وجهه من جد ولا ما في ابتسامته المؤدبة من تردد، ولا ما في ملامحه من حزن وتأثر، هز رأسه في يأس ووسع ابتسامته على قدر ما استطاع، وتلفت حوله وهو يدير رقبته في استسلام، وعلى يمينه كان هناك جالس قد استحوذ عليه النعاس رغم كل تلك الضجة، وراح يفقر، ورأسه تهوي على صدره ثم تنتفض عائدة الى مكانها فوق رقبته.

ومضى عوف يتأمل الرأس الصاعدة الهابطة عن يمينه وقد ران عليه تفكير عميق وكأنه أمام معضلة لا حل لها. وكان الجالسون ينظرون اليه، ثم الى النائم ولا يستطيعون بعد هذا أن يملكوا زمام

أنفسهم فيضحكون. وبدا على عوف أنه قد وجد الحل، فقرب فمه من أذن النائم ثم قال بأعلى صوته وكأنه يهش على جدي كبير:

ـ سك.. سكك دبحه!..

وثارت عاصفة ضحك عاتية، واستيقظ النائم على ثورتها نصف مذهول واسترد وعيه وهو يضحك، ثم أسرف في الضحك حتى قهقه، ولما رأى العاصفة مستمرة قام، وخلع طاقيته الصوف ورماها وداس عليها بقدمه الغليظة ثم سب أبا الدنيا وقعد وهو يبتسم في سذاجة وذهول.

ونسي عوف نفسه وسوق الماشية والكيلة وما بعد العشاء، وقد أعجبه ما أشاعه فيهم من ضحك وحياة، بل إنه أحس بشيء غير قليل من الفخر والتيه وهو يرى كلماته تتلاعب بعقولهم فتحركها أنى تشاء.

ونسي الحاضرون أنفسهم هم الآخرون، ونسوا حياتهم.

وما كان يأتيهم النسيان الا بعد عناء.

وبدأوا يضحكون حقيقيا..

وأيضا ما كان يأتيهم الضحك الا بشق الأنفس.

كانوا يضحكون أول الأمر وهم فقط يقلدون من يضحكون.

ثم يحسون أن ما هم فيه يستحق الضحك فعلا فيضحكون.

ثم يرون أن ما أمامهم فرصة ينعمون فيها بضحك لا ثمن له،

وهم ما اعتادوا أمثال تلك الفرص. . فيضحكون لحاضرهم ويختزنون ضحكات أخرى للمستقبل. .

ثم كانوا يتذكرون ما قاسوه في النهار، وما سوف يبذلونه في الغد المقبل فيتشبثون بما هم فيه من ساعة أنس، ويضحكون ويغصبون على أنفسهم ويضحكون أكثر وأكثر.

ولا يدوم هذا الى الابد. .

فسرعان ما يمسح عجوز منهم الدمعة الضاحكة عن عينيه ويقول بصوت فيه رنة ندم وكأنه اقترف اثما:

ـ اللهم اجعله خير يا ولاد. .

* * *

وفي لحظة من لحظات السكوت نادى واحد وطلب شايا لعوف. .

وأحس الموجودون كلهم أنهم غفلوا عن شيء خطير، وأنهم أخطأوا في حق الرجل وقد منعهم الهرج من القيام بالواجب، ولذلك راحوا يتنافسون، وكل منهم يصر أن شاي عوف سيكون على حسابه. وعوف قد جلس جلسته المتربعة المؤدبة الخجلة يتمتم من بين شفتيه الوادعتين:

ـ خلي عنكو يا رجاله. . خلي عنكو. .

ولكن الرجال لم يخلوا عنهم، بل وطلب كل منهم لنفسه طلبا

وكأنهم يجلسون في أحسن قهوة، والمكان ما كان حتى غـرزة، وانما هو فضاء صغير تحده البيوت الداكنة المنخفضة، وفي وسـطه حفرة، فيها نار، وعلى النار براد كبيـر، رأى صاحبـه أن يجلس، ويضحك، وأيضـا يعمـل، فكـان يصنـع لهم القهـوة والشـاي، ويـرص لهم الكراسي . .

وسرعان ما وزعت الاكواب على الـذي معه والـذي ليس معه، فما كان لحظتها مهمـا من الذي يـدفع، وقـد أصبح مـا في جيب كل منهم ليس هـو محط تفكيـره وبؤرة اهتمـامـه، ولكن أصبـح مـا في الجيب آخر ما يفكر فيه، وإخـراجه أسهـل، والندم الـذي يعقبه أقـل وأوهى .

وراحت أفواههم التي عليها بقايا ضحكات وابتسامـات ترتشف ما في الاكواب، وأحسوا لأصوات رشفاتهم، وحشرجة شفطهم ترنيمة رائقة تتصاعد في جوف الليل الساكن الساجي وكان القـدح الذي في يـد عوف مجمـع أنظارهم فقـد كان ممسكـا ايـاه بـطريقتـه الـرشيقـة ويـرتشف منه بفمـه الذي ضيقـه ودقق من فتحتـه بينمـا لمعت سمـرة وجهه بعرق خفيف أشاعه دفء الشاي . .

وأخـذ واحـد منهم رشفـة ذات نغم طـويـل ثم مصمص حلقـه وقال :

ـ ازاي الحال . .

ولم ينتظر ليرد عوف وانما مضى يسأله :

ـ ازاي الحال دلوقتي؟!..

سأله وهو يبتسم. وفي تؤدة واتزان قبل عوف باطن يده ثم قبل ظهرها ونظر اليه بعينيه التائهتين السارحتين وقد ضيق المثلث الضاحك الذي فيه شاربه وقال:

ـ عال.. نحمده.. أنضف من الصيني بعد غسيله.. والاشيا معدن..

وسخسخ الحاضرون ضاحكين، وتساقط بعض ما في الاكواب على أيديهم فلسعها، وتساقط على أثوابهم فما سألوا فيها، بينما اصطدمت الضحكات الخارجة من أفواهم بالرشفات الداخلة، فاحتقنت الوجوه وشاعت فيها حمرة غريبة على ما كان فيها من شحوب، ولم يرحمهم عوف وانما استطرد:

ـ هو طول ما انت فيها يا أبو وش يملا كنكه احنا حنشوف طيب..

وانهال عليه بلسانه..

وكان المضحوك عليه أول الضاحكين، فما تأثر أو اربد، بل أسعده في الحقيقة أن يتخذه عوف هدفا للذعاته. وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه. كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه رغم أنه كان أفقر رجل في القرية ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها، ولا يستطيعون العيش الا اذا كرهوا وحقدوا وتخاطفوا. كانوا ككل من في القرية يودون الحياة، ولا حياة هناك الا بالصراع، ولا بقاء الا للأقوى.

وفور فيهم ما احتسوه من قهوة وشاي نشاطا، وتلمظ عوف ووجهه يلمع، وبحث فيهم بعينيه التائهتين، ثم توقفت ابتسامته وقتا غير قليل على واحد منهم وأشار اليه بطرف ابتسامته وقد ضيق احدى عينيه وقال في أدبه وخجله:

ـ الا معاكشي حتة ألف يا عويد؟..

ولم يملك الرجل يده فامتدت للتو في جيبه وأخرج علبة صغيرة غمس فيها عود كبريت وقدمه لعوف وعليه سنة أفيون وحين كان يرجع العلبة الى جيبه وقد عاد كما كان ينظر الى الرجال حوله، لمح في عيونهم رغبات، ومرة أخرى لم يستطع أن يملك يده، فاستمر عود الكبريت رائحا غاديا بين العلبة وبين ألسنتهم وقد أخرجوها من أفواههم ومدوها على قدر ما يستطيعون.

وعلى رشفات الشاي مصمصها عوف والألسن حوله تتحرك في الأفواه المقفلة فتنبعج لحركتها الاشداق. وفي جرعات أخرى من الشاي ابتلعوا ما أذابوه، وبدأ الانسجام.

وأحسوا جميعا بريقهم يجف وحلوقهم تطلب الكثير من الدخان. ودارت الجوزة التي لا شيء عليها، وراح الرجال يعتصرون صدورهم ويجذبون الأنفاس، وتزدحم عروق رقابهم النحيلة بما في أجسادهم من دم قليل وهم يجذبون ويجذبون، والجوزة تكركر وتجأر كعربة نقل ينوء محركها بما فوقها من أحمال، وغامت الجلسة بسحابات الدخان الرمادي الرخيص وهي تنعقد وتنفض فوق الرؤوس.

وقال عوف وكلماته تصنعها دفعات الدخان التي ينفثها:

ـ عارفين الحرب التي قامت ليه يا رجالة؟ . .

وانتبهت العقول كلها، وصمت القليلون المتحدثون، فقد كانوا يتوقعون هذا السؤال أو مثله من زمن، ويأملون وقد طال بهم الانتظار أن يتحفهم عوف بحكاية.

ولم يجب عوف مرة واحدة، انما بكلماته التي كان ينتقيها بخبرة وروية ثم يقطعها وينغمها ويمثلها، وبملامح وجهه التي يملك زمامها كلها ويستطيع أن يقول بها ما شاء دون حاجة الى كلام، وبحنجرته التي تخرج منها الاصوات لها بحة الناي الحزين الذي يضحك حزنه، بهذا كله بدأ عوف في رواية القصة فتنحنح ثم قال:

ـ انتو عارفين جدكو عامر يا ولاد؟ . .

وضحكوا قبل أن يقول حرفا آخر. اذ ما كادوا يتصورون الجد عامر العجوز الذي ترك وراءه التسعين وبدأ يتطلع الى المائة والذي قضى حياته لا يعرف الا الزرع والصلاة، والذي كانوا أول الأمر يجعلون من كلامه حكما يرددونها في المناسبات، لا لشيء الا لأنه عجوز وشعره أبيض كله. ما كادوا يتصورون الجد عامر وعوف يردد نفس حكمه بنفس كلماته فيدركون مدى سخفها، وكثرة ما فيها وما في حكم الكبار كلهم من تخريف.

ما كادوا يتصورون هذا حتى ضحكوا وأغرقوا في الضحك، واستمر عوف يقول وهو يغالب ابتسامته:

ـ كان مرة جدكو عامر هو وأبوكو اسماعين قاعدين يشمسوا في ضهر الزريبة. وانتو عارفين الاتنين ولله الحمد خبراء من الدرجة الأولى في الفقر وقلة البخت. وبعدين السياسة حزقت أبوكو اسماعين قوي، قام قال:

ـ ألا بذمتك يا جد مخيمر.. وحياة الله يرحمها دنيا وآخرة جدتي أم عاشه.. وحق من أماتها يا شيخ.. عارفشي الحرب قامت ليه؟.. قام جدكو عامر هرش ضهره في الحيطة وقاله: بقى يابن أم خرزه ما نتاش عارف ليه؟..

قال له: والله أهو أني عارف كل زقاق في السياسة الا المدعوقة دي..

قام جدكو عامر اتنهد وقالوا ايه: أما عقلك فارغ صحيح.. دا يا واد الحكاية بسيطة قوي.. الالمان قالوا للانجليز طياييركو ما تمشيش مع طيايرنا في سكة واحدة. الانجليز قالوا رأسنا وألف سيف.. وهب.. راحت قايمه..

وما كانت تلك أول مرة يرويها، ومع هذا فقد ضحكوا لها وأسرفوا في الضحك، فالحكاية من فمه كانت لها لذة، وروايته لها وتمثيله اياها كانت تضفي عليها رونقاً جديدا.

وانتهت القصة ولم تنته القهقهات التي انبعثت وراءها والتي كانت تتصاعد حية مليئة بالحياة والرغبة فيها، تتصاعد من أعماق القرية الراقدة كقبعة سوداء كبيرة من الصمت القتيل.

وأعادت ضحكاتهم الكثيرة كل ما جار عليه الزمن من إنسانيتهم وانتشوا وهم يحسون أنهم مثل الافندية تماما، لهم قعدة ومجلس، وتحكى من أجل ايناسهم القصص.

وتعالت الاصوات تطلب من عوف المزيد وقد هضموا كل ما فات. .

وتمنع عوف أول الأمر ككل فنان، ثم انطلق يحكي عن أبيه وكيف كان لا عمل له الا الصيد بالسنارة، وكيف كانوا يتعشون كل يوم سمكا.

ويحكي عن لسان أبيه وطوله، وخاصة ساعة الطبلية، وما كان يتبادله هو وأبوه من قفشات حتى ينقلب عشاؤهم آخر الأمر الى سامر يتجمع له الناس ويتسمعون من وراء الباب. ثم يذهبون بعيدا ويضحكون.

والمرة التي طلعت لأبيه في السنارة فردة حذاء، والمرة التي رأى فيها الجنية وكاد يتزوجها. .

ولا تفرغ قصص عوف. .

وكانوا يحبون كلهم حكاية ذهابه الى المولد وهو صغير والثلاث ورقات والملحمة الكبيرة التي قامت ليلتها واستوعبت كل ما في المولد من شماريخ وخيزرنات وحلاوة ورجال.

ولا يستكن لسان عوف.

كـان يسخر من كـل شيء.. من الناس.. ومن نفسـه.. ومن الحياة التي يحيونها..

كان قد لف مصر من أولها الى آخرها، ودخل السينما، وشاهد المتـاحف وقام بـأنواع لا أول لهـا ولا آخر من الاعمـال، وعـاش في القاهرة وعرف مخابىء الاسكندرية أيـام الغارات وتعلم هـاو آريو من الجيش الانجليـزي حين كـان فيـه. وكـان يـدور دورتـه ويعـود الى القرية:

ألاقي أبوك الحجعلي لسه بيقول للفحلة.. عاه يا بنت الانيته، وخـالتك أم بـركة لسـه بتـدور على فـرن خـابـز تشحت منـه رغيف، والعمـدة لسه متنـك على قرمـاية الخشب وأبـوك مخيمـر واقف جنبـه لابس حتة العباية اللي ما تساويش تلاتـه أبيض، ودي بنت مين اللي فايته يا مخيمر؟ يقوله.. دي بنت فـلان يا عمـدة اللي اجوزهـا علان واللي طلقهـا تلتان.. حـاجة تفلق اللي مـا ينفلقش.. الدنيـا تنشـال وتنهبد وبلدنا ولا هي هنا.. يا رب لا اعتراض ولا مانع.. انما ادنته شايف.

وحين كانوا يسمعونه يشـرق ويغرب ويقـول كل مـا عنده كـانوا يهـزون رؤوسهم ويضحكون وهم يـوافقـون، ويحسـون بفـرحـة وهم يوافقون، ويزدادون بكل حكاية من عوف ايمانا بأن حياتهم لا جديـد فيها ولا طريف.. حتى الموت ما كان فيه من جديد، وانما كان عودة حزينة لحزن قديم.. الناس تولد وتكبر ثم تمـوت، والبقرة تـدور في السـاقية مغمـاة لا تدري أين تسيـر، وعيون السـاقية تغتـرف الماء من

باطن الأرض، وتمتليء به، ثم تصبه العيون، ليعود إلى الأرض وباطنها.. لا جديد في حياتهم ولا طريف..

* * *

وفجأة سكت عوف عن كلامه، وسكت الناس لسكوته، وتحولوا ينظرون حيث ذهبت عيناه، ومن بعيد أقبل شبح أسود طويل عرفوا فيه امرأته وكلها سواد في سواد حتى وجهها قد غطته، زيادة في الحياء، بشاشها الاسود الذي لا يخلو من ثقوب.

وكانت تمسك بمفتاح ضبة بابهم الخشبية وتتلاعب به.

ومن بعيد أيضا جاء صوتها رفيعا كقوامها، طويلا كطولها:

ـ عبد الرحمان..

وارتج على عوف ومأمأ برأسه، ثم خفضها وهو ينحني حتى أصبحت بين فخذيه.. وقال في همس مملوء بالخوف الذي يضحك:

ـ ولاد.. اني مش هنا..

وسمعوها تغمغم بكلام لم يسمعوه، ثم نادت بعد برهة بصوت يائس وقد نفد صبرها:

ـ يه.. شوفوا الراجل يا خواتي واني لفيت عليه البلد حتة حتة.. عبد الرحمان..

٩٢١

وأفلح البعض في كتم ضحكاته، ولم يفلح. آخرون، ولعلها لمحته وهو منحن وقد قارب الارض فإنها صرخت قائلة:

ـ وطي كمان وطي. مانتاش مكسوف والنبي عليك.. سايب الدار على الحميد المجيد وجاي تنصب السامر بتاع كل ليلة.. عبد الرحمان..

ولم يجد عوف بدأً من الظهور فاعتدل شيئا فشيئا وهو يقول لمن حوله هامساً:

ـ أهي قلبت بغم يا رجاله!..

ورفع صوته جادا لا أثر للهزل فيه وقال:

ـ روحي يا بت..

وتعالت الضحكات لجده وامارته..

وردت المرأة وقد عيل صبرها:

ـ والنبي يا شيخ؟!.. اسم الله عليك وعلى حواليك!.. مش تلايمها شوية.. فين يا راجل حق كيلة الدرة اللي انت قايللي دقيقة واحدة وحاجيبه؟!.

وبنفس الصوت الجاد قال عوف بعصبية أكثر وقد تذكر كل شيء:

ـ روحي يا بت اختشي..

وضحكوا كما لم يضحكوا في ليلتهم بل في أعمارهم كلها.

وأغاظت ضحكاتهم المرأة فقالت وهي تكاد تصرخ:

ـ والله ماني منقولة الا أما تجيب حق الكيلة. . دا صاحبتها قاعدة في الدار ما المغرب. . سامع والا لأ. .

وأجاب عوف بصوت عال:

ـ لا مش سامع. .

فقالت وهي مغيظة:

ـ عنك ما سمعت. . هه. . وآدي قعدة. .

وحاولوا مرة أخرى أن يتأدبوا ويكتموا الضحكات، والمرأة تنتقي لنفسها مجلسا فوق كومة سباخ عالية. ورفع عوف رأسه ونظر اليها وهي ممتطية الربوة كأم قويق، وسكت برهة، ثم قال بصوت نصفه ضاحك، ونصفه جاد:

ـ روحي يا بت يام وش زي وش السلندر.

ومع أنهم ما كانوا يعرفون ما هو السلندر الا انهم انثنوا وتمايلوا مقهقهين وعيونهم قد شدت الى عوف الجالس لا يعرفون ان كان هو جاداً في كلامه أم هازلا. .

ولم تسكت المرأة وإنما قالت على الفور:

ـ والنبي ماني مروحة يابو رأس أنعم من البريزة الماسحة.

واستمرت الضحكات تترى بلا انقطاع. .

وقال عوف وهو يزيد النصف الضاحك من صوته:

ـ والنبي ان ما روحتي لقايم فاتح بطنك ومطلع منه طعم..

وما عاد الحاضرون يتمالكون أنفسهم ولا يعرفون ان كانوا يضحكون أو لا يضحكون..

وبينما هذا يحدث،كان بعضهم يفكر فيه من ناحية أخرى، وتمنى أكثر من جالس أن يمد يده الى محفظته الكالحة ويستخرجها ثم يسقط في يد عوف ثمن الكيلة. ولكن أمانيهم بصيرة، وأيديهم قصيرة ـ جد قصيرة.

وكان عوف هو الآخر يضحك بقلب، ويحلم بقلب آخر.. أن تمتد يد في حجره وتدفىء أصابعه بالثلاثين قرشا التي داخ عليها من المغرب. وبقيت أصابعه باردة في حجره..

وشخط عوف في المرأة قائلاً:

ـ عليّ الطلاق ان ما روحتي..

وعلى الفور نزلت المرأة واستدارت عائدة بشبحها الأسود الطويل..

وقال عوف وقد سره ما أحدثته الشخطة واستعاد لسانه الحاد:

ـ شايفين يا ولاد.. والنبي رجل مراتي اليمين بتنفس..

واختلطت القهقهات بالأصوات وسمعوا ضحكة تفلت من المرأة المبتعدة رغما عنها.

وكانوا قد تعبوا وما عادوا يستطيعون الضحك فسكتوا. وسكت الليل. وسكت كل شيء وأصبح لا صوت هناك الا نقيق الضفادع وتنهدات البعضر والماء وهو يغلي في البراد ويفور.

حتى عوف كان قد أرخى رأسه على صدره وكأنه يفكر.

واستمر الصمت زمنا لم يقطعه الا عوف حين رفع رأسه وقال وهو يستغرب منهم السكوت، ويحدق فيهم:

ـ والله هاو يا رجاله . .

وانفجروا يضحكون، واستمرت الضحكات تنفجر وهي لا تريد أن تنتهي وكان يبدو أنها لن تنتهي لولا أنهم سمعوا همهمة لم يألفوها وحمل اليهم الظلام جعجعة شيخ الخفراء المعهودة ونبراته القاطعة الحادة:

ـ واد انت وهوه . . انتو عاملينها غرزه يا ولاد الكلب. قوم قامك عفريت منك له . .

وكان أول من تسلل لا يلوي على شيء هو خالي الوفاض منهم، أما الذي في حافظته قرش أو يتدفأ جنبه بورقة فقد تكاسل قليلا وهو يقوم، ولما وقف تثاءب كثيرا وتمطى ثم مضى في خطوات وئيدة وهو يلقي بالسلام الى من حوله، ويشدد على عوف باللقاء في ليلة ثانية، وكلهم يحسون ان الليلة قد انتهت وما كان يريد لها أحد أن تنتهي.

٩٢٥

واستوقف شيخ الخفراء عوف، وقال له بعد أن اطمأن الى ذهابهم جميعاً:

ـ واد يا عوف.. ازيك؟..

وفهم عوف ما يريد، فقال له وكأنه يؤدي فرضا عليه:

ـ هاو آريو يا شيخ الغفر..

وقهقه الرجل، وظل يقهقه ويتلوى وعوف يأخذ طريقه الى داره..

ومضى الليل..

* * *

وقبل شروق الشمس الجديدة كانوا جميعا يأخذون طريقهم الى النهار، وكانوا يأخذون طريقهم اليه ووجوههم باسمة وأطياف من الليلة التي مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما في نهارهم من حدة..

وكان عوف يتسلل هو الآخر كالعصفور المبتل، مؤدبا وخجولا، ليستأنف همسه وسؤاله عن ثمن الكيلة.

SS

المحتويات